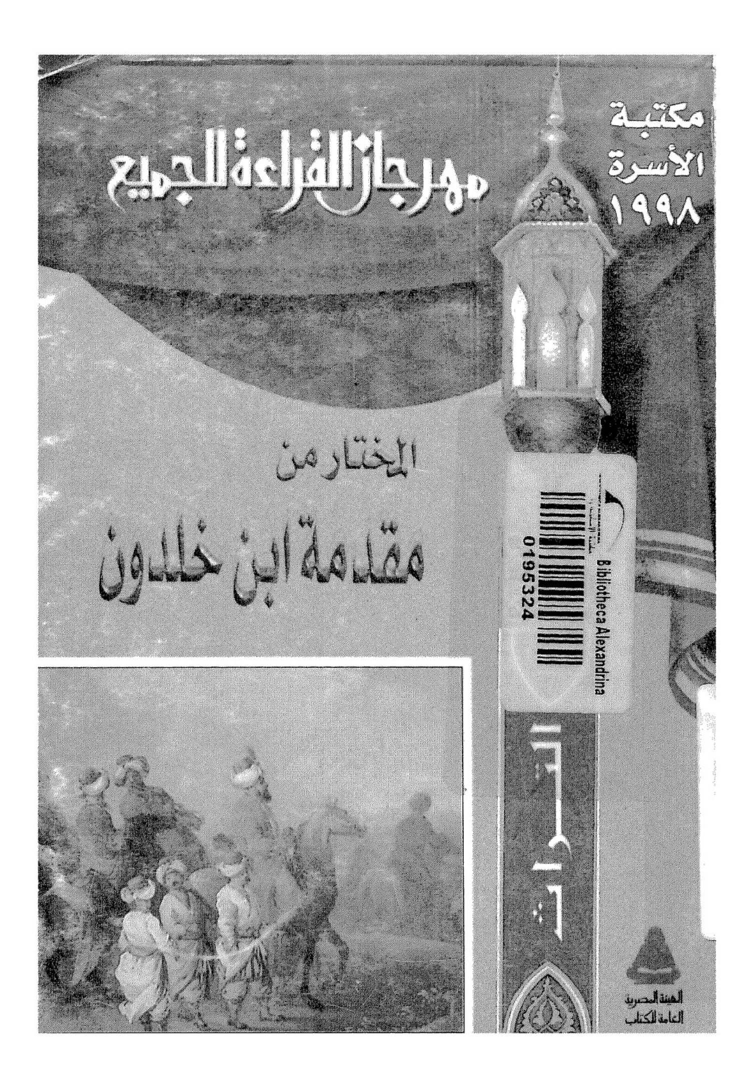
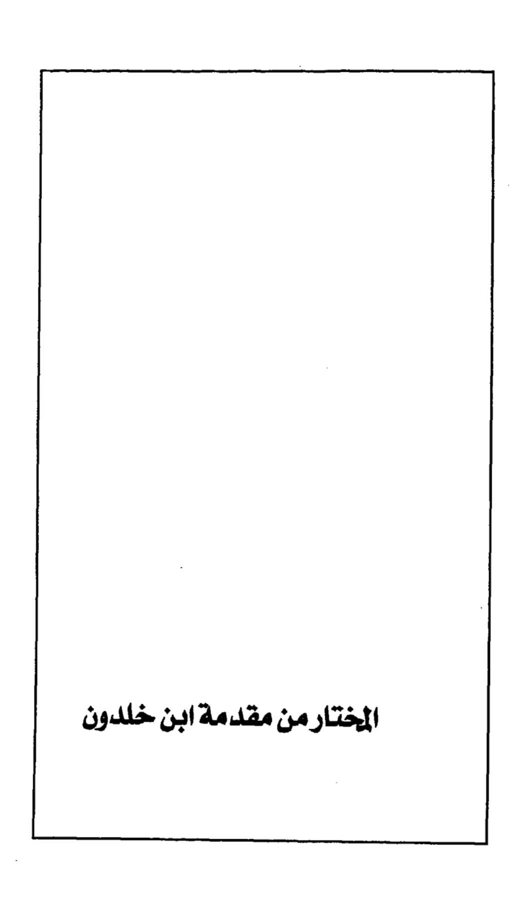

مكتبة
الأسرة
١٩٩٨
مهرجان القراءة للجميع
المختار من
مقدمة ابن خلدون
الهيئة المصرية
العامة للكتاب



المختار من مقدمة ابن خلدون

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

المختار من مقدمة

ابن خلدون



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة التراث)

المختار من مقدمة ابن خلدون

إعداد : د. سمير سرحان

د. محمد عنانى

الغلاف:

للفنان جمال قطب

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

تصــدير

قدمت مكتبة الأسرة في العام الماضى مقتطفات من مقدمة ابن خلدون اقتـصرت على مـا أسماه بالمقـدمة العـامة ، وهى فصـول نظرية فى علم التاريخ أصبحت تعـتبر أسسًا للبحث التاريخى وعلم الاجـتماع الحديث ، وقد حـاولنا فيهـا التركيـز على ما اعتـبره ابن خلدون من أسس التـفكير العلمى فى قراءة التاريخ ومعناه وأسلوب الحكم على الروايات وتفسيرها ، وهذا ما يزال أساسًا لمبحث التاريخ فى العصر الحديث .

وتقدم مكتـبة الأسرة هذا العـام فصولاً أخـرى من المقدمـة تتناول ما استخلصه هذا العالم الفذ من دراسته للتاريخ القريب ، ولذلك قد يضرب الأمثلـة من الوقائع التى كـان قريب العـهد بهـا فى شمـال إفريقـيا وفى الأندلس ، وهو يحلل ويفـسـر ويناقش بأسلوب يكاد يكون مـعاصـرًا ، وتفخر مـكتبة الأسرة بأن تطلع أبناء اليـوم على فكر عربى عبقـرى سبق النهضة الأوربية ، وما زال فكره حيا نابضًا بعـد انقضاء ما يقرب من ستة قرون .

مكتبة الأسرة

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

فصل

فى أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لاتزيد عليها

والسَّبَبُ فى ذلكَ أنَّ عِصابةَ الدَّوْلَةِ وقَوْمَها القَائمين بِهَا الْمُمَهِّدين لَهَا، لابُدَّ مِنْ تَوْزِيعِهِمْ حِصَصًا علَى الْممالكِ والثُّغُورِ الَّتى تَصِيرُ إلَيْهِمْ ويستَوْلُونَ علَيْهَا لِحِمَايتِهَا من الْعَدُوِّ ، وإمْضَاءِ أحْكَامِ الدَّولَةِ فِيهَا مِنْ جِبَايةٍ وردْعٍ وغَيْرِ ذلكَ . فَإذَا تَوزَّعتِ الْعَصَائبُ كُلُّهَا علَى الثُّغُورِ والْممَالكِ ، فَلابُدَّ مِنْ نَفَادِ عددها ، وقَدْ بلَغَت الْممالكُ حِينَئذٍ إلَى حدٍّ يكُونُ ثَغرًا للدَّوْلَةِ وتَخْمًا لوطَنِهَا ، ونطَاقًا لِمركَزِ مُلْكِهَا . فَإنْ تكَفَّلَت الدَّوْلَةُ بعْدَ ذلكَ زِيادةً علَى مَا بِيَدِهَا ، بَقِيَ دُونَ حَامِيَةٍ وكَانَ مَوْضِعًا لانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوِّ وَالْمُحَاوِرِ ، وَيَعُودُ وبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا يكُونُ فِيهِ مِنَ التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ الْهَيْبَةِ .

وَمَا كَانَت الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً ، ولَمْ يَنْفَدْ عَدَدُهَا فِى تَوْزِيعِ الْحِصَصِ عَلَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِي ، بَقِيَ فِى الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ عَلَى تَنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ ، حَتَّى يَنْفَسِحَ نِطَاقُهَا إلَى غَايَتِه . وَالعِلَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِى ذلكَ ، هِىَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِن سَائِرِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّة . وَكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الأفْعَال فَشَأْنُهَا ذلكَ فِى فِعْلِهَا . وَالدَّوْلَةُ فِى مَرْكَزِهَا أشَدُّ مِمَّا يكُونُ فى الطَّرَفِ وَالنِّطَاق ، وَإذَا انْتَهَتْ إلَى النِّطَاقِ الَّذى هُوَ الْغَايَةُ ، عَجزَتْ وَأَقْصَرَتْ عَمَّا

وَرَاءَهُ ، شَأْنُ الأَشِـــعَّةِ وَالأَنْوَارِ إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَاكِزِ وَالدَّوَائِرِ الْمُنْفَسِحَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مِنَ النَّقْرِ[1] عَلَيْهِ . ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالضَّعْفُ ، فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِى التَّنَاقُصِ مِنَ جِهَةِ الأَطْرَافِ ، وَلاَ يَزَالُ الْمَرْكَزُ مَحْفُوظًا ، إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِ الأَمْرِ جُمْلَةً ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ ، انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ .

وَإِذَا غُلِبَ عَلَى الدَّوْلَةِ مَرْكَزُهَا ، فَلاَ يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الأَطْرَافِ وَالنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُّ لِوَقْتِهَا ؛ فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَالْقَلْبِ الَّذِى تَنْبَعِثُ مِنْهُ الرُّوحُ ، فَإِذَا غُلِبَ عَلَى الْقَلْبِ وَمُلِكَ انْهَزَمَ جَمِيعُ الأَطْرَافِ .

وَانْظُرْ هـذَا فـى الـدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ : كَانَ مَرْكَزُهَا الْمَدَائِنَ ؛ فَلَمَّا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْمَدَائِنِ انْقَرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمَعُ ، وَلَمْ يَنْفَعْ يَزْدَجِرْدَ مَا بَقِىَ بِيَدِهِ مِنْ أَطْرَافِ مَمَالِكِهِ . وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ الدَّوْلَةُ الـرُّومِيَّةُ بِالـشَّامِ لما كـــانَ مـــركَـزها الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَغَلَبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ ، تَحَيَّزُوا إِلى مـــرْكَزِهِمْ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَلَمْ يَضُرَّهُمْ انْتِزَاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمْ يَزَلْ مُلْكُهُمْ مُتَّصِلاً بِهَا إِلَى أن تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِهِ .

وَانْظُرْ أَيْضًا شَأْنَ الْعـرَبِ أَوَّلَ الإِسْلاَمِ : لَمَّا كَانَتْ عَصَائِبُهُمْ مَوْفُورَةً كَيْفَ غَلَبُوا عَلَى مَا جَاوَرَهُم مـــنَ الـــشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ لأَسْرَعِ وَقْتٍ ثُمَّ

---

(١) أى على أثر الفقر عليه بحصاة مثلا .

تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِنَ السِّنْدِ وَالْحَبَشَةِ وَأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الأَنْدَلُسِ .

فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصًا عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ وَنَزَلُوهَا حَامِيَةً ، وَنَفِدَ عَدَدُهُمْ فِى تِلْكَ التَّوْزِيعَاتِ أَقْصَرُوا عَنِ الْفُتُوحَاتِ بَعْدُ وَانْتَهَى أَمْرُ الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تِلْكَ الْحُدُودَ ، وَمِنْهَا تَرَاجَعَتِ الدَّوْلَةُ حَتَّى تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِهَا . وَكَذَا كَانَ حَالُ الدُّوَلِ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ؛ كُلُّ دَوْلَةٍ عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِى الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ، وَعِنْدَ نَفَادِ عَدَدِهِم بِالتَّوْزِيعِ ، يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالإِسْتِيلاَءُ : سُنَّةَ اللهِ فِى خَلْقِهِ .

فصل

فى أن الأوطان الكثيرة القبائل ، قل أن تستحكم فيها دولة

وَالسَّبَبُ فِى ذلِكَ اخْتِلاَفُ الأَرَاءِ وَالأَهْوَاءِ ، وَأَنَّ وَرَاءَ كُلِّ رَأْيٍ مِنْهَا هوىً وَعَصَبِيَّةٌ تُمَانِعُ دُونَهَا فَيَكْثُرُ الانْتِقَاضُ عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخُرُوجُ عَلَيْهَا فِى كُلِّ وَقْتٍ ، وَإِنْ كَانَتْ ذَاتَ عَصَبِيَّةٍ لأَنَّ كُلَّ عَصَبِيَّةٍ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهَا تَظُنُّ فِى نَفْسِهَا مَنَعَةً وَقُوَّةً .

وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذلِكَ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ ، مُنْذُ أَوَّلِ الإِسْلاَمِ وَلِهَذَا الْعَهْدِ . فَإِنَّ سَاكِنَ هَذِهِ الأَوْطَانِ مِنَ الْبَرْبَرِ أَهْلُ قَبَائِلَ وَعَصَبِيَّاتٍ ، فَلَمْ

يُغْنِ فيهِم الْغَلَبُ الأَوَّلُ ، الَّذى كَانَ لابْنِ أَبِى سَرْحٍ عَلَيْهِم وَعَلَى الإفْرِنْجَةِ شَيْئًا ، وَعَاوَدُوا بَعْدَ ذلكَ الثَّوْرَةَ وَالرِّدَّةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَعَظُمَ الإِثْخَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الدِّينُ عِنْدَهُمْ عَادُوا إِلَى الثَّوْرَةِ وَالْخُرُوجِ، وَالأَخْذِ بِدِينِ الْخَوَارِجِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً .

قَالَ ابْنُ أَبِى زَيْدٍ ، ارْتَدَّتِ الْبَرَابِرَةُ بِالْمَغْرِبِ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَلَمْ تَسْتَقِرَّ كَلِمَةُ الإِسْلاَمِ فِيهِمْ إلاَّ لِعَهْدِ وِلايَةِ مُوسَى بَن نُصَيْرٍ ، فَمَا بَعْدَهُ . وَهذَا مَعْنَى مَا يُنْقَلُ عَنْ عُمَرَ : أَنَّ أَفْرِيقَةَ مُفَرِّقَةٌ لِقُلُوبِ أَهْلِهَا ، إِشَارَةً إِلَى مَا فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ ، الْحَامِلَةِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الإِذْعَانِ والانْقِيَادِ ، وَلَمْ يَكُنْ الْعِرَاقُ لذلكَ الْعَهْدِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ ؛ وَلاَ الشَّامُ ، إِنَّمَا كَانَتْ ، حَامِيَتُهَا مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ ، وَالْكَافَّةُ دَهْمَاء ، أَهْلُ مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ فَلَمَّا غَلَبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا مُمَانِعٌ وَلامُشَاقٌّ . وَالْبَرْبَرُ قَبَائِلُهُمْ بِالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى وَكُلُّهُمْ بَادِيَةٌ ، وَأَهْلُ عَصَائِبَ وَعَشَائِرَ ، وَكُلَّمَا هَلَكَتْ قَبِيلَةٌ ، عَادَتِ الأُخْرَى مَكَانَهَا ، وَإِلَى دِينِهَا مِنَ الْخِلاَفِ وَالرِّدَّةِ ، فَطَالَ أَمْرُ الْعَرَبِ فِى تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ بِوَطَنِ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ . وَكَذلكَ كَانَ الأَمْرُ بِالشَّامِ لِعَهْدِ بَنِى إِسْرَائِيلَ : كَانَ فِيهِ مِنْ قَبَائِلِ فِلَسْطِينَ وَكَنْعَانَ وَبَنِى عِيصُو وَبَنِى مَدْيَنَ وبَنِى لُوطٍ وَالْيُونَانِ وَالْعَمَالِقَةِ وَأَكْرِيكَشَ وَالنَّبَطِ ، مِنْ جَانِبِ الْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلِ مَالاَ يُحْصَى كَثْرَةً وَتَنَوُّعًا فى الْعَصَبِيَّةِ ، فَصَعُبَ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ تَمْهِيدُ دَوْلَتِهِم ،

وَرُسُوخُ أَمْرِهِمْ ، وَاضْطَرَبَ عَلَيْهِمْ الْمُلْكُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . وَسَرَى ذلكَ الْخِلاَفُ إِلَيْهِمْ ، فَاخْتَلَفُوا عَلَى سُلْطَانِهِمْ ، وَخَرَجُوا عَلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ مُوَطَّدٌ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ ، إِلَى أَنْ غَلَبَهُمُ الْفُرْسُ ثُمَّ يُونَانُ ، ثُمَّ الـــرُّومُ آخِرَ أَمْرِهِمْ عِنْدَ الْجَلاءِ ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

وبِعكْسِ هذَا أَيْضًا : الأَوْطَانُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْعَصَبِيَّاتِ يَسْهُلُ تَمْهِيـــدُ الدَّوْلَةِ فِيهَا ، وَيَكُونُ سُلْطَانُهَا وَازِعًا لِقِلَّةِ الْهَرْجِ[1] وَالانْتِقَاضِ ، وَلاَتَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ فِيــهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فى مِصْرَ وَالشَّامِ لِهـذَا الْعَهْدِ ؛ إِذْ هِيَ خُلُوٌّ مِنَ الْقَبَائِلَ وَالْعَصَبِيَّاتِ ، كَأَنْ لَمْ يَكُنَ الــشَّامِ مَعْدِنًا لَهُمْ كَمَا قُلْنَاهُ . فَمُلْكُ مِصْرَ فـى غَايَةِ الــدَّعَةِ والـرُّسُوخِ لِقِلَّةِ الْخَوَارِجِ ، وَأَهْلِ الْعَصــــائِبِ . إِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ ، وَدَوْلَتُهَا قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرْكِ وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ عَلَى الأَسْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، وَيَنْتَقِلُ الأَمْرُ فِيــهِمْ مِن مَنْبِتٍ إِلَى مَنْبِــتٍ وَالْخِلاَفَةُ مُسَمَّاةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ ، بِبَغْدَادَ ؛ وَكَذَا شَأْنُ الأَنْدَلُسِ لِهذَا الْعَهْدِ : فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ابْنِ الأَحْمَرِ سُلْطَانِهَا لَمْ تَكُنْ لأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقَوِيَّةٍ ، وَلاَ كَانَتْ كَرَّاتٍ إِنَّمَا يَكُونُ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ بَقُوا مِنْ ذلكَ الْقِلَّةِ .

---

(١) الفتنة والقتل .

(٢) مرة بعد مرة .

وَذلكَ أَنَّ أَهْلَ الأَنْدَلُسِ لَمَّا انقرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُمْ ، وَمَلَكَهُمُ الْبَرْبَرُ مِنْ لِمتُونَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ سَئِمُوا مَلَكَتَهُمْ وَثَقُلَتْ وَطْأَتُهُمْ عَلَيْهِمْ ، فَأُشْرِبَتِ الْقُلُوبُ بَغْضَاءَهُمْ ، وَأَمْكَنَ الْمُوَحِّدُونَ وَالسَّادَةُ فِى آخرِ الدَّوْلَةِ كَثِيراً مِنَ الْحُصُونِ لِلطَّاغِيَةِ فِى سَبِيلِ الاسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى شَأْنِهِمْ ، مِنْ تَمَلُّكِ الْحَضْرَةِ مَرَاكِشَ : فَاجْتَمَعَ مَنْ كَانَ بَقِىَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مَعَادِنُ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ تَجَافَى بِهِمِ الْمَنْبِتُ عَنِ الْحَاضِرَةِ وَالأَمْصَارِ بَعْضَ الشَّىْءِ، وَرَسَخُوا فِى الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ ابْنِ هُودٍ وَابْنِ الأَحْمَرِ وَابْنِ مَرْدَنِيشَ وَأَمْثَالِهِمْ ، فَقَامَ ابْنُ هُودٍ بِالأَمْرِ وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلاَفَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَنَبَذُوا إِلَيْهِمِ الْعَهْدَ، وَأَخْرَجُوهُمْ وَاسْتَقَلَّ ابْنُ هُودٍ بِالأَمْرِ فِى الأَنْدَلُسِ. ثُمَّ سَمَا ابْنُ الأَحْمَرِ لِلأَمْرِ وَخَالَفَ ابْنَ هُودٍ فِى دَعْوَتِهِ ، فَدَعَا هَؤُلاَءِ لابْنِ أَبِى حَفْصٍ صَاحِبِ أَفْرِيقِيَّةَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَقَامَ بِالأَمْرِ وَتَنَاوَلَهُ بِعِصَابَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ قَرَابَتِهِ كَانُوا يُسَمَّوْنَ الرُّؤَسَاءَ ، وَلَمْ يَحْتَجْ لأَكْثَرَ مِنْهُمْ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ بِالأَنْدَلُسِ وَإِنَّهَا سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ، ثُمَّ اسْتَظْهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الطَّاغِيَةِ بِمَنْ يُجِيزُ إِلَيْهِ الْبَحْرَ مِنْ أَعْيَاصِ[1] زَنَاتَةَ، فَصَارُوا مَعَهُ عُصْبَةً عَلَى الْمَثَاغِرَةِ وَالرِّبَّاطِ . ثُمَّ سَمَا لِصَاحِبٍ مِنْ مُلُوكِ زَنَاتَةَ أَمَلٌ فِى الاسْتِيلاَءِ عَلَى الأَنْدَلُسِ ، فَصَارَ أُولَئِكَ الأَعْيَاصُ عِصَابَةَ ابْنِ الأَحْمَرِ عَلَى الامْتِنَاعِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَأَثَّلَ أَمْرُهُ ، وَرَسَخَ

---

(١) من يعتبرون أصولها وذوى المكانة فيها .

وَأَلِفَتْهُ النُّفُوسُ ، وَعَجَزَ النَّاسُ عَنْ مُطَالَبَتِه وَوَرِثَهُ أَعْقَابُهُ لِهذَا الْعَهْدِ . فَلاَ تَظُنَّ أَنَّهُ بِغَيْرِ عِصَابَةٍ فَلَيْسَ كَذلِكَ ، وَقَدْ كَانَ مَبْدَؤهُ بِعِصَابَةٍ ، إلاَّ أَنَّهَا قَلِيلَةٌ ، وَعَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ : فَإِنَّ قُطْرَ الأَنْدَلُسِ لِقِلَّةِ الْعَصَائِبِ وَالْقَبَائِلِ فِيهِ، يُغْنِى عَنْ كَثْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ فِى التَّغَلُّبِ عَلَيْهِمْ ، وَاللهُ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

فصل

فى أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وذلكَ أَنَّ الْمُلْكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ . وَالْعَصَبِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عُصَبَاتٍ كَثِيرَةٍ وَتَكُونُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْتَوْلِى عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهَا جَمِيعًا فى ضِمْنِهَا ، وَبِذلِكَ يَكُونُ الاجْتِمَاعُ وَالْغَلَبُ عَلَى النَّاسِ وَالدُّوَلِ . وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ ؛ وَالْمِزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعَنَاصِرِ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ فِى مَوْضِعِه أَنَّ الْعَنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةً فَلاَ يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَصْلاً ، بَلْ لاَبُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةَ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا ، وَتُؤَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِى ضِمْنِهَا ، وَتِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ الْكُبْرَى ، إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلِ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِم، وَلاَبُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ ، فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا لِغَلَبِ مَنْبِتِه لِجَمِيعِهَا .

وَإذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذلكَ ، فَمِنَ الطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ الْكِبْرِ وَالأَنَفَةِ ، فَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ مِنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِى اسْتِتْبَاعِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِمْ ، وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِى فِى طِبَاعِ الْبَشَرِ ، مَعَ مَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ مِنِ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلاَفِ الْحُكَّامِ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] فَتُجْدَعُ حِينَئِذٍ أُنُوفُ الْعَصَبِيَّاتِ وَتُفْلَجُ شَكَائِمُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِى التَّحَكُّمِ ، وَتَقْرَعُ عَصَبِيَّتُهُمْ عَنْ ذلكَ ، وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لاَ يَتْرُكَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ فِى الأَمْرِ ، لاَ نَاقَةً وَلا جَمَلاً فَيَنْفَرِدُ بِذلكَ الْمَجْدِ بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيَدْفَعَهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ . وَقَدْ يَتِمُّ ذلكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ ، وَقَدْ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ لِلثَّانِى وَالثَّالِث عَلَى قَدْرِ مُمَانَعَةِ الْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَا . إِلاَّ أَنَّهُ أَمْرٌ لاَبُدَّ مِنْهُ فِى الدُّوَلْ ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَاللهُ تعالى أَعْلَمُ .

فصل

فى أن من طبيعة الملك الترف

وَذلكَ أَنَّ الأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِى أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا ، كَثُرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا ، فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ ، إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِى عَوَائِدِهِمْ

---

(١) الآية رقم : ٢٢ من سورة الأنبياء .

وأَحْوَالِهِم ، وتَصِيــرُ لِتلْكَ النَّوَافِلِ عوَائدُ ضَرُورِيَّةٌ فى تَحْصِيلِهَا ويَنْزِعُونَ مَعَ ذلكَ إلى رقــة الأَحْوَالِ فــى الْمطَاعِمِ والْمــلاَبِسِ ، والْفُرُشِ والآنِيَةِ ، ويَتَفَاخَرُونَ فى ذلكَ ، ويُفَاخِرُونَ فيــه غَيْرَهُمْ مِنَ الأُمَمِ ، فى أَكْلِ الطَّيِّبِ ولُبْسِ الأَنِيقِ ورُكُوبِ الْفَارِهِ[1] ، ويُنَاغِى خَلَفُهُمْ فى ذَلكَ خَلَفَهُمْ إِلَى آخرِ الدَّوْلَةِ ، وعَلَى قَدْرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذلكَ وتَرَفُهُمْ فيــه ، إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذلكَ الْغَايَةَ الَّتِى للــدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وعَوَائدِ مَنْ قَبْلَهَا ، سُنَّةَ اللهِ فى خَلْقِه واللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

فصل

فى أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذلكَ أَنَّ الأُمَّةَ لاَ يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إلاَّ بالْمُطَالَبَةِ ، والْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا الْغَلَبُ والْمُلْكُ؛ وإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْىُ إِلَيْهَا (قال الشاعر)[2] :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِى وبَيْنَهَا

فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِبِ الَّتِى كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا فـــى طَلَبِه، وآثَرُوا الرَّاحَةَ والسُّكُونَ والــدَّعَةَ ورَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ

---

(١) الفارة : الجيد للسير ؛ يناغى : ينافس .

(٢) هو أبو صخر ومطلع القصيدة : لليلى بذات الجيش دار عرفتها . . . البيت .

مِنَ الْمَبَانِى وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَلاَبِسِ ، فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِّيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا ، وَيُؤْثِرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِبِ ، وَيَتَأَنَّقُونَ فِى أَحْوَالِ الْمَلاَبِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالآنِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتَطَاعُوا ، وَيَأْلَفُونَ ذلِكَ وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِمْ وَلاَ يَزَالُ ذلِكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

فصل
فى أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ :

الأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِى الانْفِرَادَ بِالْمَجدِ كَمَا قُلْنَاهُ ، وَمَا كَانَ الْمَجْدُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْعِصَابَةِ ، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِدًا كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِى التَّغَلُّبِ عَلَى الْغَيْرِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحَوْزَةِ أُسْوَةً فِى طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا ، وَمَرْمَاهُمْ إِلَى الْعِزِّ جَمِيعًا يَسْتَطِيبُونَ الْمَوْتَ فِى بِنَاءِ مَجْدِهِمْ ، وَيُؤْثِرُونَ الْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ ؛ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ ، وَاسْتَأْثَرَ بِالأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُم وَرَئِمُوا الْمَذَلَّةَ

وَالاسْتِعْبَاد ، ثُمَّ رُبِى الْجِيلُ الثَّانِى مِنْهُمْ عَلَى ذلكَ يحْسِبُونَ مَا ينَالُهُمْ مِنَ الْعَطَاءِ أَجْرًا مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ لاَ يَجْرِى فِى عُقُولِهِمْ سِوَاهُ ، وَقَلَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَهُ على الْمَوْتِ ، فَيَصِيرُ ذلكَ وَهْنًا فِى الدَّوْلَةِ ، وَخَضْدًا مِن الشَّوْكَةِ وَتُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِى الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِفَسَادِ الْعَصَبِيَّةِ بِذَهَابِ الْبَأْسِ مِن أَهْلِهَا .

وَالْوَجْهُ الثَّانِى : أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْك تَقْتَضِى التَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ، فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وتَزِيد نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعطيَاتِهِمْ وَلاَ يَفِى دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ . فَالْفَقِيرُ مِنهم يَهْلِكُ ، وَالْمُتْرَفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرَفِهِ ، ثُمَّ يَزْدَاد ذلكَ فِى أَجْيَالِهِمِ الْمُتَأَخِرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَف وَعَوَائِدِهِ ، وَتَمَسَّهُمُ الْحَاجَةُ وَتُطَالِبَهمْ مُلُوكُهُم بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِمْ فِى الْغَزْوِ وَالْحُرُوبِ فَلاَ يَجِدُونَ وَلِيجَةً[1] عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمَ الْعُقُوبَاتِ ، وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِى أَيْدِى الْكَثِيرِ مِنْهُم يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَو يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ ، فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذلكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحوَالِهِمْ ، وَيَضْعُفُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ .

وَأَيضًا : إِذَا كَثُرَ التَّرَف فِى الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤهُم مُقَصِّرًا عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِم ، احتَاجَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الَّذِى هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِى أَعطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلَلَهُمْ ، وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَالْجِبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعلُومٌ ،

---

(١) يعنى : مندوحة ، وهذا الاستعمال غير سليم .

وَلاَ تَزِيد وَلاَ تَنْقُصُ . وَإِنْ زَادتْ بِمَا يُسْتَحــدَثُ الْمُكُوسِ فَيَصِيـرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُودًا ، فَإِذَا وُزِّعَتِ الْجِبَايَةُ عَلَى الأَعْطِيَاتِ ، وَقَد حَدَثَتْ فِيهَا الزِّيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِد بِمَا حَدَثَ مِن تَرَفِهِمْ وكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِم ، نَقَصَ عَدَدُ الْحَامِيَةِ حِينَئِذ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الأَعْطِيَاتِ ، ثُمَّ يَعـظُمُ الـتَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيـرُ الأَعْطِــــيَاتِ لِذَلِكَ ، فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ ، وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى أَنْ يَعُودَ الـعَسْكَرُ إِلَى أَقَلِّ الأَعْدَاد ، فَتَضْعُفُ الْحِمَايَةُ لِذَلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الــدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ الـــدُّوَلِ ، أَو مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ ، وَيَأْذَنُ اللهُ فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِى كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ .

وَأَيْضًا : فَالتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلْخَلْقِ بِمَا يَحْصُلُ فِى الـنَّفْسِ مِنْ أَلْوَانِ الشَّرِّ وَالسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا ، كَمَا يَأْتِى فِى فَصْلِ الْحَــضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُم خِلاَلُ الْخَيْرِ الَّتِى كَانَتْ عَلاَمَةً عَلَى الْمُلْكِ وَدَلِيـلاً عَلَيْهِ ، وَيَتَّصِفُونَ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلاَلِ الـشَّرِّ ، فَيَكُونُ عَلاَمَةً عَلَى الإِدْبَارِ وَالانْقِرَاضِ ، بِمَا جَعَلَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ فِى خَلِيقَتِهِ ، وَتَأْخُذُ الدَّوْلَةُ مَبَادِىءَ الْعَطَبِ وَتَتَضَعْضَعُ أَحوَالُهَا ، وَتَنْزِلُ بِهَا أَمرَاضٌ مُزْمِنَةٌ مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهَا .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّ طَبِيــعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِى الدَّعَةَ كَمَا ذَكَرنَاهُ . وَإِذَا اتَّخَذُوا الدَّعَةَ وَالـرَّاحَةَ مَأْلَفًا وَخُلُقًا ، صَارَ لَهُم ذَلِكَ طَبِيــعَةً وَجِبِلَّةً شَأْنَ الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِيـلاَفِهَا ، فَتَرْبَى أَجْيَالُهُمُ الْحَادِثَةُ فِـى غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ . وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ التَّوَحُّشِ وَيَنْسَونَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِى كَانَ بِهَا

الْمُلْكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ ، وتَعَوُّدِ الافْتِرَاسِ ، ورُكُوبِ الْبيدَاءِ ، وهدَايَةِ الْقَفْرِ فَلاَ يُفرَقُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ السُّوقَهِ مِنَ الْحَضَرِ إلاَّ فِى الثَّقَافَةِ ، والشَّارَةِ فَتَضْعُفُ حِمَايَتُهُم ، ويَذْهَب بَأسُهُمْ ، وتَنْخَـــضِدُ شَوْكَتُهُمْ ويَعُودَ وبَالُ ذلكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا تَلْبَسُ مِن ثِيَابِ الْهَرَمِ ، ثُمَّ لاَيَزَالُونَ بعَوَائِد التَّرَفِ والْحَـــضَارة وَالسُّكُونِ وَالدَّعَـةِ ورِقَّةِ الْحاشِيَـةِ فى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ ، ويَنْغَمِسُونَ فِيـهَا ، وَهُمْ فِى ذلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ ، ويَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، وينْسونَ خُلُقَ الْبسَالَةِ الَّتِى كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ والْمُدافَعةُ حتَّى يعُودُوا عيالاً علَى حامِيَةٍ أُخرى إنْ كَانَتْ لَهُمْ .

واعتَبِرْ ذلكَ فى الدُّوَلِ الَّتِى أَخْبـارُها فى الصُّحُفِ لَديْكَ تَجِدْ مـا قُلْتُهُ لَكَ مِنْ ذلِكَ صحيـحًا مِنْ غَيْرِ رِيبة . ورُبَّمـا يحْدُثُ فى الدَّوْلَةِ إذَا طَرَقَهَا هذَا الْهَرمُ بِالتَّرفِ والرَّاحـةِ ، أنْ يَتَخَيَّر صاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَارًا وشِيـعةً مِنْ غَيْرِ جِلْدتِهِمْ ، مِمَّنْ تَعـــوَّدَ الْخُشُونَةَ فَيـتَّخِذُهُمْ جُنْدًا يكُونُ أصْبـــر علَى الْحـرْبِ ، وأقْدر علَى مُعـانَاة الشَّدائِد مِن الْجُوعِ والشَّظَفِ ، ويكُونُ ذلكَ دواءً لِلدَّوْلَةِ مِن الْهَرَمِ ، الَّذِى عساهُ أنْ يطْرُقَهَا حتَّى يأْذَنَ اللهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ .

وهذَا كَما وقَع فى دوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمـشْرِقِ : فَإِنَّ غَالِب جُنْدهَا الْموالى مِن التُّرْكِ ، فَتَتَخَيَّرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أُولئكَ الْممـاليكِ الْمجْلُوبِين إلَيْهِمْ فُرْسانًا وجُنْدًا ، فَيكُونُونَ أَجْرأَ علَى الْحـــرْبِ وأَصْبـــر عـلَى الشَّظَفِ مِنْ أَبْنَاءِ

المماليك الَّذين كانُوا قَبْلهمْ وربُوا فى ماءِ النَّعيمِ والسُّلْطَانِ وظلِّه ، وكَذلكَ فى دولَة المُوحِّدين بأفريقيَّةَ فإنَّ صاحِبهَا كَثيرًا ما يتَّخذُ أجْنَاده منْ زَنَاتَةَ والْعرب ، ويَستكثرُ منْهُمْ ويتْرُكُ أهْل الدَّوْلَة الْمتَعوِّدين للتَّرف ، فتَستَجدُّ الدَّوْلَة بذلكَ عُمْرًا آخَر سالمًا منَ الْهَرم واللهُ وارثُ الأرْض ومنْ علَيْهَا .

فصل
فى أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

إعْلَمْ أنَّ العُمْر الطَّبيعيَّ للأشْخَاصِ على ما زَعم الأطبَّاءُ ، والْمُنَجِّمُونَ مائَةٌ وعِشْرُونَ سنَةً ، وهِى الْعُمْرُ فى كُلِّ جيلٍ بحسب الْقِرانَاتِ فَيزيدُ عنْ هذَا وينْقُصُ منْهُ ، فَتكُونُ أعْمارُ بعْضِ أهْلِ الْقِرانَات مائَةً تَامَّةً ، وبعْضهمْ خَمْسين أوْ ثَمانين أوْ سبعين ، علَى ما تَقْتَضيه أدلَّةُ الْقِرانَات عنْد النَّاظِرين فِيهَا وأعْمَارُ هذه الْمِلَّة ما بيْن السِّتِّين إلَى السَّبْعين كَما فى الْحديث ، ولاَ يزِيدُ علَى الْعُمْرِ الطَّبيعىِّ الَّذى هُو مِائَةٌ وعِشْرُونَ إلاَّ فى الصُّورِ النَّادرة ، وعلَى الأوْضَاعِ الْغَرِيبَة مِن الْفَلَكِ ، كَما وقَع فى شَأْنِ نُوحٍ علَيْه السَّلاَمِ وقَليلٍ ، مِنْ قَوْمِ عاد وثَمُود .

وأمَّا أعْمارُ الدُّولِ أيْضًا : وإنْ كَانَتْ تَخْتَلفُ بِحسب الْقِرانَاتِ إلاَّ أنَّ الدَّوْلَةَ فى الْغَالِب لاَ تَعْدُو أعْمار ثَلاَثَة أجْيالٍ ، والْجيلُ هُو عُمْرُ شَخْصٍ واحِدٍ مِن الْعُمْرِ الْوسطِ ، فَيكُونُ أرْبعين ، الَّذى هو انْتِهاءُ النُّمُوِّ والنُّشُوءِ

إلَى غَايته ، قَال تَعالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾[1] ولهذَا قُلْنَا : إنَّ عُمْر الشَّخصِ الْواحِدِ هُو عُمْرُ الْجيـلِ ، ويُؤيِّدهُ مـا ذَكَرنَاهُ فى حكْمة التِّيـه ، الَّذى وقَع فى بنِى إسْرائيل ، وأَنَّ الْمـقْصُود بالأَرْبعِين فِيهِ فَنَاءُ الْجِيل الأَحْياءِ ، ونَشْأَةُ جِيلٍ آخرَ لَمْ يعْهَدُوا الذُّلَّ ولاَ عرفُوهُ فَدلَّ علَى اعْتِبارِ الأَرْبعِين فى عُمْرِ الْجِيلِ الَّذى هُو عُمْرُ الشَّخْصِ الْواحِدِ .

وإنَّمـا قُلْنَا إنَّ عُمْر الدَّوْلَة لاَيعْدُو فى الْغَالب ثَلاثَةَ أَجْيـال : لأَنَّ الْجيل الأَوَّل لَمْ يزَالُوا على خُلُقِ الْبـداوةِ وخُشُونَتهَا وتَوحُّشـهَا مِنْ شَظَفِ الْعَيْشِ والْبسـالَة والافْتِراسِ والاشْتِراكِ فى الْمـجْد ، فَلاَ تَزَالُ بِذلِكَ سورةُ الْعَصَبِيَّة مَحفُوظَةً فِيـهم ، فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ وَجانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ ، وَالنَّاسُ لَهُم مَغْلُوبُونَ ، وَالْجيلُ الثَّانى تَحَوَّلَ حَالُهُم بِالْمُلْك وَالتَّرَفُّه ، مِن الْبـدَاوَة إلَى الْحضَارَة وَمِنَ الشَّظَف إلَى الـتَّرَف وَالْخَصْب وَمِنَ الاشْتِرَاكِ فى الْمَجْد إلَى انْفِراد الْوَاحِد بِهِ وكَسَلَ الْبَاقِينَ عنِ السَّعْي فِيـه ، وَمِنْ عَزِّ الاسـتِطَالَة إلَى ذُلِّ الاسْتكَانَة ، فَتَنْكَسِرُ سَوْرَةُ الْعَصَبِيَّة بَعْضَ الـشَّىْءِ وَتُؤنَسُ مِنْهُمُ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ ، وَيَبقَى لَهُمُ الْكَثِـيرُ مِنْ ذلكَ بِمَا أَدركُوا الْجِيلَ الأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَاهَدُوا اعتـزَازَهُمْ وَسَعْيَهُم إلى الْمَجْدِ ، وَمَرَامِيهِمْ فى الْمُدافَعَة والْحمايةِ فَلاَ يسعُهُم تَركُ ذلكَ بِالْكُلِّيَّة ، وإنْ ذَهب مِنْهُ ما ذَهب ويكُونُونَ

---

(١) الآية رقم : ١٥ من سورة الأحقاف .

علَى رجـاءٍ مِنْ مُراجعةِ الأحـوالِ الَّتِى كَانَتْ لِلْجِيلِ الأَوَّلِ أَو علَى ظَنٍّ مِنْ وُجُودِهَا فيهِم .

وأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ : فَيَنسَـوْنَ عهْدَ الْبـداوةِ والْخُشُونَةِ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ ، ويفقِدُونَ حلاَوةَ[1] الْعِزِّ والْعصبيَّةِ بِما هُمْ فِيهِ مِنْ ملكَةِ الْقَهْرِ ، ويبْلُغَ فِيهِم التَّرفُ غَايتَهُ بِما تَفَنَّقُوه[2] مِن النَّعِيمِ وغَضَارةِ فَيَصِيرونَ عِيَالاً عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الْمُحْتَاجِـينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَتَسْقُطُ الْعَصَبِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ ، وَيَنْسَونَ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَيُلَبِّسُونَ عَلَى الـنَّاسِ فـى الـشَّارَةِ وَالزِّىِّ وَرُكُوبَ الْخَيْلِ وَحُسْنِ الـثَّقَافَةِ يُمَوِّهُونَ بِهَا وَهُمْ فـى الأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ الـنِّسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا . فَإِذَا جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يُقَاوِمُوا مُدَافَعَتَـه ، فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذ إِلَى الاسْتِظْهَارِ بِسِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِى ، وَيَصْطَنِعُ مَنْ يُغْنِى عـنِ الدَّوْلَةِ بَعْضَ الْغَنَاءِ ، حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِهَا ، فَتَذْهَبَ الدَّوْلَةِ بِمَا حمَلَتْ .

فهذه كَمَا تَرَاهُ ثَلاَثَةُ أَجْيَالٍ فِيهَا ، يكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخَلُّفُهَا ، ولِهذَا كَانَ انْقِرَاضُ الْحَسَبِ فى الْجِيـلِ الرَّابـعِ كَمَا مَرَّ فى أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبِ ، إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ . وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فِيهِ بِبُرْهَانِ طَبِيعِىٍّ كَافٍ ظَاهِرٍ مبْنَىٍّ على مَا

(١) كذا فى الأصل : ولعلها محرفة عن خلال .

(٢) تقلبوا فيه من النعيم .

مَهَّدْنَاهُ قَبْلُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ ، فَتَأَمَّلْهُ فَلَنْ تَعْدُو وَجْهَ الْحَقِّ ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الإِنْصافِ .

وَهذِهِ الأَجْيَالُ الثَّلاَثَةُ : عُمْرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً عَلَى مَامَرَّ وَلاَ تَعْدُو الدُّوَلُ فِى الْغَالِبِ هذَا الْعُمْرَ بِتَقْرِيبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ ، إِلاَّ إِنْ عَرَضَ لَهَا عارِضٌ آخرَ ، مِنْ فِقْدَانِ الْمَطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حاصِلاً مُسْتَوْلِيًا ، وَالطَّالِبُ لَمْ يحْضُرْهَا وَلَوْ قَدْ جَاءَ الطَّالِبُ لَمَا وَجَدَ مُدَافِعًا ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1] ، فَهذَا الْعُمْرُ لِلدَّوْلَةِ بِمَثَابَةِ عُمْرِ الشَّخْصِ مِن التَّزَيُّدِ إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى سِنِّ الرُّجُوعِ ، وَلِهذَا يَجْرِى عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فى الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمْرَ الدَّوْلَةِ مِائَةُ سنَةٍ ، وَهذَا مَعْنَاهُ فَاعْتَبِرْهُ واتَّخِذْ مِنْهُ قَانُونًا يُصَحِّحُ لَكَ عَدد الآبَاءِ فى عَمُودِ النَّسَبِ ، الْذى تريدُهُ مِنْ قِبلِ مَعْرِفَةِ السِّنِين الْمَاضِيَةِ ، إِذَا كُنْتَ قَد اسْتَرَبْتَ فى عَدَدِهِمْ ، وكَانَتِ السِّنُونَ الْماضِيةُ مُنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحَصَّلَةً لَدَيْكَ فَعُدَّ لِكُلِّ مِائَةٍ مِن السِّنين ثَلاَثَةً من الآبَاءِ ، فَإِنْ نَفَدَتْ علَى هذا الْقِياسِ مَع نُفُودِ عَدَدِهِمْ فَهُو صَحِيحٌ ، وإِنْ نَقَصَتْ عنهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلِطَ عَدَدُهُم بِزِيَادةِ واحِدٍ فى عَمُودِ النَّسَبِ وإِنْ زَادتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ وَكَذلكَ تَأْخُذُ عَدَدَ السِّنِينَ مِنْ

(١) الآية ٦١ من سورة النحل .

عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحَصَّلاً لَدَيْكَ فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فِى الْغَالِبِ صَحِيحًا ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[1] .

فصل
فى انتقال الدول من البداوة إلى الحضارة

إعلَمْ أَنَّ هـذِهِ الأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوَلِ ، فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِى يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ وَبِمَا يَتْبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ الافْتِرَاسِ ، وَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ غَالبًا إلاَّ مَعَ الْبَـداوةِ ؛ فَطَوْرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ، ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبِعَهُ الرفْهُ ، وَاتِّسَاعُ الأَحْوَالِ . وَالْحِضَارَةُ إِنَّمَا هِىَ تَفَنُّنٌ فِى التَّرَفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ ، الْمُسْتَعْمَلَةِ فِى وُجُوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْمَطَابِخِ والمَلاَبِسِ وَالْمَبَانِى وَالْفُرُشِ وَالأَبْنِيَةِ ، وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ ، فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِع فِى اسْتِجَادَتِهِ ، والتَّأَنُّقِ فِيهِ ، تَخْتَص بِهِ وَيَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلاَفِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلاذِّ وَالتَّنَعُّمِ بِأَحْوَالِ التَّرَفِ ، وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِد فَصَارَ طَوْرُ الْحِضَارَةِ فِى الْمُلْكِ يَتْبَعُ طَوْرَ الْبِدَاوَةِ ضرورةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَّةِ الرَّفْهِ لِلمُلْك .

وَأَهْل الدُّوَلِ أَبَدًا يُقَلِّدُونَ فِى طَوْرِ الْحِضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ السَّابِقَة

---

(١) الآية رقم ٢٠ من سورة المزمل .

قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِى الْغَـــالِبِ يَأْخُذُونَ. وَمِثْلُ هذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ ، وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالـرُّومَ وَاسْتَخْدَمُوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا لِـذَلِـكَ الْعَهْدِ فِـى شَىْءٍ مِنَ الْحِضَارَةِ ؛ فَقَدْ حُكِىَ أَنَّهُ قُدِّمَ لَهُمُ الْمُرَقَّقُ فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعًا ، وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِى خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِى عَجِينِهِمْ مِلْحًا ، وَمِثَالُ ذلِكَ كَثِيـــرٌ ، فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الـدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِـى مِهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِمْ ، وَاخْتَارُوا مِنْهُمُ الْمَهَرَةَ فِــى أَمْثَالِ ذلِكَ وَالْقَوَمَةَ عَلَيْهِمْ ، أَفَادُوهُمْ عِلاَجَ ذلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ مَعَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنِ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّفَنُّنِ فِى أَحْوَالِهِ ، فَبَلَغُوا الْغَايَةَ فِـى ذلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَـورِ الْحِضَارَةِ وَالـتَّرَفِ فِـى الأَحْوَالِ ، وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلاَبِسِ وَالْمَبَانِـــى وَالأَسْلِحَةِ وَالْفُرُشِ وَالآنِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرْثِىِّ وَكَذلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِى أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلاَئِمِ ، وَلَيَالِى الإِعْرَاسِ[1] ، فَأَتَوا مِنْ ذلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ . وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِىُّ وَالطَّبَرِىُّ وَغَيْرُهُمَا فِـى إِعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ ، وَمَا بَذَلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ حِينَ وَافَاهُ فِــى خِطْبَتِهَا إِلَى دَارِهِ ، بِفَمِ الصِّلْحِ وَرَكِبَ إِلَـيْهَا فِى السُّفِينَ ، وَمَا أَنْفَقَ فِى إِمْلاكِهَا ، وَمَا نَحَلَهَا الْمَأْمُون ، وَأَنْفَقَ فِى عِرْسِهَا ، تَقِفُ مِنْ ذلك عَلَى الْعَجَبِ .

---

(١) يعنى ما نسميه الآن حملات الزفاف .

فَمِنْهُ أنَّ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَثَرَ يَوْمَ الإمْلاَكِ[1] فِى الصَّنِيعِ الَّذِى حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمَأمُون : فَنَثَرَ عَلَى الطَبَقَةِ الأُولَى مِنْهُمْ بَنَادِقَ الْمِسْكِ مَلْتُوتَةً عَلَى الرِّقَاعِ بِالْضِّيَاعِ ، وَالعَقَارِ مُسَوَّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِى يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أدَّاهُ إلَيْهِ الاتِّفَاقُ وَالبَخْتُ .

وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ بِدَرَ[2] الدَّنَانِيرِ ، فِى كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةُ آلاَفٍ ، وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بِدَرَ الدَّرَاهِمِ كذلكَ بَعْدَ أنْ أنْفَقَ عَلَى مُقَامِةِ الْمَأمُونِ بدارِهِ أضْعَافَ ذلكَ .

وَمِنْهُ : أنَّ الْمَأمُونَ أعْطَاهَا فِى مَهْرِهَا لَيْلَةَ زِفَافِهَا ألْفَ حَصَاةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ ، وَأوْقَدَ شُمُوعَ الْعَنْبَرِ فِى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةُ مَن ، وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلثَانِ[3] وَبَسَطَ لَهَا فُرُشًا كَانَ الْحَصِيرُ مِنْهَا مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ مُكَلَّلاً بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، وَقَالَ الْمَأمُونُ حِينَ رَآهُ : قَاتَلَ اللهُ أبَا نُوَاسٍ ، كَأنَّهُ أبْصَرَ هذَا حَيْث يَقُولُ فِى صِفَةِ الْخَمْرِ :

كأنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا

حَصْبَاءُ دُر عَلَى أرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

---

(١) حفل الزواج .

(٢) جمع بدرة وهى فى الأصل عشرة آلاف درهم ، ولكنه فرقها دنانير .

(٣) قوله ثلثان : الذى كتب فى اللغة أن المن رطل وقيل رطلان .

وَأَعدَّ بِدَارِ الطَّبْخِ مِنَ الْحَطَبِ ، لِلَيْلَةِ الْوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ بَغْلاً مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِى كُلِّ يَوْمٍ ، وَفَنِى الْحَطَبُ لِلَيْلَتَيْنِ وَأَوْقَدُوا الْجَرِيدَ يَصبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ ، وَأَوْعَزَ إِلَى النَّوَاتِيَةِ بِإِحْضَارِ السُّفُنِ لإِجَازَةِ الخَوَاصِ مِنَ النَّاسِ ، بِدِجْلَةَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ ، لِحُضُورِ الْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ الْحَرَّاقَاتُ[1] الْمُعَدَّةُ لذلكَ ثَلاَثِينَ أَلْفًا ، أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أُخْرَيَاتِ نَهَارِهِمْ ، وَكَثِيرٍ مِنْ هذَا وَأَمْثَالِهِ .

وَكَذلكَ عُرسُ الْمَأْمُونِ بْنِ ذِى النُّونِ بِطُلَيْطِلَةَ : نَقَلَهُ ابنُ بَسَّامٍ فِى كِتَابِ الذَّخِيرَةِ وَابْنُ حيان بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِى الطَّورِ الأَوَّلِ مِنَ الْبَدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذلكَ جُمْلَةً لِفِقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعهِ فِى غَضَاضَتِهِمْ وَسَذَاجَتِهِمْ . يُذْكَرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ أَوْلَمَ فِى اخْتِتَانِ بَعْضِ وُلْدِهِ فَاسْتَحْضَرَ بَعْضَ الدَّهَاقِينِ ، يَسْأَلُهُ عَنْ وَلاَئِمِ الْفُرْسِ ، وَقَالَ : أَخْبِرْنِى بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ . فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ، أَيُّهَا الأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ مَرَازِبَةِ كِسْرَى ، وَقَدْ صَنَعَ ، لأَهْلِ فَارِسَ صَنِيعًا أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ الذَّهَبِ عَلَى أَخْوِنَةِ الْفِضَّةِ أَرْبَعًا عَلَى كُلِّ وَاحِد وَتَحْمِلُهُ أَرْبَعُ وَصَائِفَ ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَإِذَا طَعِمُوا أُتْبِعُوا أَرْبَعَتُهُمْ الْمَائِدَةَ بِصِحَافِهَا وَوَصَائِفِهَا . فَقَالَ الْحَجَّاجُ يَا غُلامُ . انْحَرِ الْجُزُرَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ ، وعَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَسْتَقِلُ بِهذهِ الأُبَّهَةِ وَكَذلِكَ كَانَتْ .

(١) الحراقات بالفتح جمع حراقة سفينة فيها مرامى نار يرمى بها العدو .

وَمنْ هذَا الْبَابِ أعْطـيَةُ بَنِى أُمَيَّةَ وَجوَائزُهُمْ ، فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرَهَا الإِبِل أَخْذًا بِمَذَاهب الْعَرَبِ وبِدَاوتِهمْ ، ثُمَّ كَانَت الْجَوَائِـزُ فى دَوْلَة بَنى الْعَبَّاسِ وَالْعُبَيْديِّينَ منْ بَعْدهمْ مَا عَلمْتَ مِنْ أَحْمَال الْمَال وَتُخُوت الثِّيَاب ، وَإِعْدَاد الْخَيْلِ بِمَرَاكِبِهَا . وَهـكَذَا ، كَانَ شَأْنُ كُتَامَةَ مَعَ الأَغَالبَة بِأفْرِيـقيَّةَ ، وَكَذَا بَنِى طُغْجَ بِمصْرَ ، وَشَأْنُ لَمتُونَةَ مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائف بِالأَنْدَلُسِ وَالْمُوَحِّدِينَ. وَكَذلكَ شَأْنُ زَنَاتَةَ مَعَ الْمُوَحِّـدينَ وَهَلُمَّ جرًا ؛ تَنْتَقِلُ الْحضَارَةُ مِنَ الدُّوَل السَّالفَة إِلَى الدُّوَلِ الْخَالفَة ، فَانْتَقَلَتْ حضَارَةُ الْفُرْسِ لِلْعَرَبِ بَنِى أُمَيَّةَ وَبَنِى الْعَبَّاسِ ، وَانْتَقَلَتْ حـضَارَةُ بَنِى أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ ، إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمُوَحِّدينَ ، وَزَنَاتَةَ لِهذَا الْعَهْد ، وَانْتَقَلَتْ حَضَارة بَنِى الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَم، ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ، ثُمَّ إِلَى السَّلْجُوقيَّة ثُمَّ إِلَى التـرْكِ الْمَمَاليك بِمصْرَ وَالتَّتَرِ بِالْعِرَاقَيْنِ . وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ الدَّوْلَة يَكُونُ شَأْنُهَا فِى الْحـضَارَة ، إِذْ أُمُورُ الْحـضَارَةِ مِنْ تَوَابـعِ التَّرَف، وَالتَّرَفُ مِنْ تَوَابِعِ الـثَّرْوَة وَالنَّعْمَة ، والثَّرْوَةُ وَالنِّعْمَةُ مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْك وَمِقْدَارَ مَا يَسْتَوْلـى عَلَيْه أَهْلُ الدَّوْلَة ، فَعَلَى نسْبَة الْمُلْكِ ، يَكُونُ ذلكَ كُلُّهُ ، فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْهُ ، وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحِيـحًا فى الْعُمْرَانِ ، وَاللهُ وَارِثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

فصل

فى أن الترف يزيد الدولة فى أولها قوة إلى قوتها

وَالسَّبَبُ فى ذلِكَ : أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالتَّرَفُ ، كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ وَالْعُمُومِيَّةُ ، فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكْثَروا أَيْضًا مِنَ الْمَوَالى وَالصَّنَائِعِ وَرُبِيَتْ أَجْيَالُهُمْ فى جَوِّ ذلِكَ النَّعِيمِ ، وَالرِّفْهِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَدًا إِلَى عَدَدِهِمْ ، وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ، فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيلُ الأَوَّلُ وَالثَّانِى ، وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ فى الْهَرَمِ ، لَمْ تَسْتَقِلَّ أُولئِكَ الصَّنَائِعُ وَالْمَوَالى بِأَنْفُسِهِمْ ، فى تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيدِ مُلْكِهَا لأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ ، إِنَّمَا كَانُوا عِيَالاً عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَا ، فَإِذَا ذَهَبَ الأَصْلُ لَمْ يَسْتَقِلَّ الْفَرْعُ بِالرُّسُوخِ ، فَيَذْهَبُ وَيَتَلاَشَى ، وَلاَ تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا مِنَ الْقُوَّةِ .

وَاعْتَبِرْ هذا بما وَقَعَ فى الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فى الإِسْلاَمِ ، كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ النُّبُوةِ وَالْخِلاَفَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ ، وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فى الدَّوْلَةِ ، وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالى وَالصَّنَائِعِ ، بَلَغَ ذلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ . يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمِ نَازَلَ عَمُّورِيَّةَ لَمَّا افْتَتَحَهَا فى تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ ، وَلاَ يَبْعُدُ مِثْلُ هذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، إِذَا اعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فى الثُّغُورِ الدَّانِيَةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَالْمَوَالى

وَالْمُصْطَنِعِينَ . وَقَالَ الْمَسْعُودِىُّ : أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونَ لِلإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلاَثِينَ أَلْفًا ، بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ. فَانْظُرْ مَبَالِغَ هذَا الْعَدَدِ لأَقَلَّ مِنْ مِائَتَى سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ الرَّفَهُ وَالنَّعِيمُ الَّذِى حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرُبِّىَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ ، وَإِلاَّ فَعَدَدُ الْعَرَبِ لأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هذَا وَلاَ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَاللهُ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ .

فصل
فى أطوار الدولة واختلاف أحوالها . وخلق أهلها باختلاف الأطوار

إِعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالاَتٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ بِهَا فِى كُلِّ طَوْرٍ خُلُقًا مِنْ أَحْوَالِ ذلِكَ الطَّوْرِ لاَ يَكُونُ مِثْلُهُ فِى الطَّوْرِ الآخَرِ ، لأَنَّ الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالطَّبْعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِى هُوَ فِيهِ . وَحَالاَتُ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهَا لاَ تَعْدُو فِى الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ :

الطَّوْرُ الأَوَّلُ دَوْرُ الظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ ، وَغَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمُمَانِعِ ، وَالاسْتِيلاَءُ عَلَى الْمُلْكِ ، وَانْتِزَاعُهُ مِنْ أَيْدِى الدَّوْلَةِ السَّالِفَةِ قَبْلَهَا . فَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِى هـذَا الطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فِى اكْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجِبَايَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحَوْزَةِ وَالْحِمَايَةِ ، لاَيَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَىْءٍ ؛ لأَنَّ ذلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ الَّتِى وَقَعَ بِهَا الْغَلَبُ ، وَهِىَ لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهَا.

الطَّوْرُ الثَّاني : طَوْر الاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَالانفِرَاد دُونَهُمْ بِالْمُلْك وَكَبْحِهِمْ عَنِ التَّطَاوُل لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِى هذَا الطَّوْرِ مَعْنِيًّا بِاصْطِنَاعِ الرِّجَالِ ، وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنْ ذلِكَ ؛ لِجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِى نَسَبِهِ ، الضَّارِبِينَ فِى الْمُلْكِ ، بِمِثْل سَهْمِهِ ، فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ الأَمْرِ ، وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ ، وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يَخْلُصُوا إِلَيْهِ[1] حَتَّى يُقِرَّ الأَمْرَ فِى نِصَابِهِ ، وَيُفْرِدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِى مِنْ مَجْدِهِ ، فَيُعَانِى مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الأَوَّلُونَ فِى طَلَبِ الأَمْرِ أَوْ أَشَدَّ ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ دَافَعُوا الأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهَرَاؤُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ ؛ وَهذَا يُدَافِعُ الأَقَارِبَ لاَيُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِم إِلاَّ الأَقَلُّ مِن الأَبَاعِدِ ، فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الأَمْرِ .

الطَّوْرُ الثَّالِثُ : طَوْرُ الْفَرَاغِ وَالدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ ، مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الآثَارِ ، وَبُعْدِ الصِّيتِ ؛ فَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ فِى الْجِبَايَةِ وَضَبْطِ الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ، وَإِحْصَاءِ النَّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِى الْحَافِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالأَمْصَارِ الْمُتَّسِعَةِ،

---

(١) يعنى يحول بينهم وبين الوصول إلى الحكم .

وَالْهَيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ ، وَإِجَازَةِ[1] الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ ، وَبَثُّ الْمَعْرُوفِ فِـى أَهْلِهِ ؛ هـذَا مَعَ التَّوْسِعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فـى أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ ، وَالْجَاهِ وَاعْتِرَاضِ[2] جُنُودِهِ ، وَإِدْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِى أُعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هِلاَل ، حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ فِى مَلاَبِسِهِمْ وشِكَّتِهِمْ[3] وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزِّينَةِ ، فَيُبَاهِى بِهِمْ الدّوَلَ الْمُسَالِمَةَ ، وَيُرْهِبُ الدُّوَلَ الْمُحَارِبَةَ . وَهـذَا الطَّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الاسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ ، لأَنَّهُمْ فِـى هـذِهِ الأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِآرَائِهِمْ ، بَانُونَ لِعِزِّهِمْ مُوضِحُونَ الطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

الطَّوْرُ الرَّابِعُ : طَوْرُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِى هـذَا قَانِعًا بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ ، سِلْمًا لأَنْظَارِهِ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ ، مُقَلِّدًا لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ ، فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، وَيَقْتَفِى طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ الاقْتِدَاءِ ، وَيَرَى أَنَّ فِى الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ ، وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُ بِمَا بَنَوا مِنْ مَجْدِهِ .

الطَّوْرُ الْخَامِسُ : طَوْرُ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِى

---

(١) منحها الجوائز الهدايا .

(٢) يعنى عرضهم وتفقد أحوالهم وإن كان اللفظ هنا لايفيده .

(٣) الشكة : السلاح .

هذَا الطَّوْرِ مُتْلِفًا لِما جمع أَوَّلُوهُ فى سبيلِ الشَّهَواتِ والْمَلاذِّ ، والكَرمِ على بِطَانَتِهِ وفى مجالسه ، واصْطِنَاعِ أَخْدانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءِ[1] الدِّمَنِ ، وتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَات الأُمُورِ الَّتى لاَيَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا ، ولاَ يَعْرِفُونَ ما يأْتُونَ وَيَذَرُونَ منْهَا ، مُسْتَفْسِدًا لِكَبَارِ الأَوْلِياءِ مِنْ قَوْمِهِ وصنَائعِ سلَفِهِ ، حتَّى يضْطَغِنُوا[2] علَيْه ، ويتَخَاذَلُوا عنْ نُصْرَتِهِ ، مُضَيِّعًا مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِياتِهِمْ فى شَهَواتِهِ ، وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مُبَاشَرَتِهِ وتَفَقُّدِه . فَيَكُونُ مُخَرِّبًا لِمَا كَانَ سلَفُهُ يُؤسِّسُونَ ، وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ . وفى هذَا الطَّوْرِ تَحْصُلُ فى الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ الْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِى عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمُزْمِنُ الَّذى لاَتَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ ، ولاَ يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ ، كَمَا نُبَيِّنُهُ فى الأَحْوَالِ الَّتى نَسْرُدُهَا وَاللهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

فصل

فى أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها فى أصلها

وَالسَّبَبُ فِى ذلِكَ أَنَّ الآثَارَ إِنَّمَا تَحْدُث عَنِ الْقُوَّةِ الَّتى بِهَا كَانَتْ أَوَّلاً، وَعَلَى قَدْرِهَا يَكُونُ الأَثَرُ . فَمِنْ ذلِكَ مَبَانى الدَّوْلَةِ وَهَيَاكِلُهَا الْعظِيمَةُ، فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قَوَّةِ الدَّوْلَةِ فى أَصْلِهَا ؛ لأَنَّهَا لاَتَتِمُّ إِلاَّ

(١) أصحاب المظاهر الخادعة من ذوى المنابت السيئة .

(٢) يطوون قلوبهم على الضغينة .

بِكَثْرَةِ الْفَعَلَةِ ، واجْتِمَــاعِ الأَيْدى عَلَى الْعَمَلِ بِالتَّعَاوُنِ فِيــهِ . فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيــمَةً فَسِيــحَةَ الْجَوَانِبِ ، كَثِيــرَةَ الْمَمَالِكِ وَالرَّعَايَا ، كَانَ الْفَعَلَةُ كَثِيــرِينَ جِدًّا ، وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا ، فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِه .

أَلاَ تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وثَمُودَ ، وَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ عَنْهُمَا ؟ وَانْظُرْ بِالْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى ، وَمَا اقْتَدَرَ فِيــهِ الْفُرْسُ ، حَتَّى أَنَّهُ [لَمَّا][1] عَزَمَ الرَّشِيدُ عَلَى هَدْمِهِ وتَخْرِيبِهِ ، فَتَكَاءَدَ[2] عَنْهُ وَشَرَعَ فِيهِ ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْعَجْزُ . وَقِصَّةُ اسْتِشَارَتِهِ لِيَحْيَى ابْنِ خَالِدٍ فى شَأْنِهِ مَعْرُوفَةٌ . فَــــانْظُرْ كَيْفَ تَقْتَدِرُ دَوْلَةٌ عَلَى بِنَاءٍ لاَ تَسْتَطِيعُ أُخْرَى هَدْمَهُ - مــع بَوْنِ مَا بَيْنَ الْهَدْمِ وَالْبِنَاءِ فى السُّهُولَةِ - تعرِفْ مِنْ ذلِكَ بَوْنَ مَا بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ .

وَانْظُرْ إِلَى بَلاَطِ الْوَلِيدِ بِدِمَشْقَ ، وَجَامِعِ بَنِى أُمَيَّةَ بِقُرْطُبَةَ ، وَالْقَنْطَرَةِ الَّتِى على وَادِيــهَا ، وَكَذلِكَ بِنَاءُ الْحَنَايَا لِجَلْبِ الْمَاءِ إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ فى الْقَنَاةِ الرَّاكِبَةِ عَلَيْهَا ، وَآثَارِ شَرْشَالَ بِالْمَغْرِبِ ، وَالأَهْرَامِ بِمِصْرَ ؛ وَكَثِيرٌ مِنْ هذِهِ الآثَارِ الْمَاثِلَةِ لِلْعَيَانِ ، يُعْلَمُ مِنْهُ اخْتِلاَفُ الدُّوَلِ فِى الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ الأَفْعَالَ لِلأَقْدَمِينَ إِنَّمَا كَانَتْ بِالْهِنْدَامِ[3] وَاجْتِمَاعِ الْفَعَلَةِ

---

(1) زيادة زادها الدكتور وافى فى منشورته لأن السياق يقتضيها .

(2) أعجزه وشق عليه .

(3) النظام وإعمال العقل وحسن الإدارة .

وَكَثْرَةِ الأَيْدِى عَلَيْهَا ، فَبِذَلِكَ شُيِّدَتْ تِلْكَ الْهَيَاكِلُ وَالْمَصَانِعُ . وَلاَتَتَوَهَّمْ مَا تَتَوَهَّمُهُ الْعَامَّةُ أَنَّ ذلِكَ لِعِظَمِ أَجْسَامِ الأَقْدَمِين عَنْ أَجْسَامِنَا فِى أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا ؛ فَلَيْسَ بَيْنَ الْبَشَرِ فِى ذلِكَ كَبِيرُ بوْنٍ . كَمَا نَجِدُ بَيْنَ الْهَيَاكِلِ وَالآثَارِ .

وَلَقَدْ وَلِعَ الْقُصَّاصُ بِذلِكَ وَتَغَالَوا فِيهِ ؛ وَسَطَّرُوا عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةِ فِى ذلِكَ أَخْبَارًا عَرِيقَةً فِى الْكَذِبِ ، مِنْ أَغْرَبِهَا مَا يَحْكُونَ عَنْ عُوجِ ابْنِ عِنَاقٍ[1] رَجُلٍ مِنَ الْعَمَالِقَةِ الَّذِين قَاتَلَهُمْ بنُو إِسْرَائِيلَ فِى الشَّامِ ، زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِطُولِهِ يَتَنَاوَلُ السَّمَكَ مِنَ الْبَحْرِ ، وَيَشْوِيهِ إِلَى الشَّمْسِ . وَيَزِيدُونَ إِلَى جَهْلِهِمْ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ ، الْجَهْلَ بِأَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ ، لِمَا اعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّمْسِ حَرَارَةً[2] ، وَأَنَّهَا شَدِيدَةٌ فِيمَا قَرُبَ مِنْهَا ، وَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَرَّ هُوَ الضَّوْءُ ، وَأَنَّ الضَّوْءَ فِيمَا قَرُبَ مِنَ الأَرْضِ أَكْثَرُ، لانْعِكَاسِ الأَشِعَّةِ مِنْ سَطْحِ الأَرْضِ ، بِمُقَابَلَةِ الأَضْوَاءِ ، فَتَتَضَاعَفُ الْحَرَارَةُ هُنَا لأَجْلِ ذلِكَ ، وَإِذَا تَجَاوَزَت مَطَارِحَ الأَشِعَّةِ الْمُنْعَكِسَةِ ، فَلاَ حَرَّ هُنَالِكَ،

---

(١) قوله ابن عناق الذى فى القاموس فى باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس : عنق بالنون .

(٢) ما يذهب إليه يناقض ما يجمع العلماء عليه من وجود حرارة هائلة فى الشمس نفسها أما تقريره عن تناقص درجات الحرارة بالارتفاع عن سطح الأرض فصحيح .

بَلْ يكُونُ فِيهِ الْبَرْدُ ، حَيْثُ مجَارِى السَّحَابِ وأَنَّ الشَّمْسَ فى نَفْسِهَا لاَحَارَّةٌ وَلاَ بَارِدَةٌ ، وَإِنَّمَا هِىَ جِسْمٌ بَسِيطٌ مُضِىءٌ ، لاَمِزَاجَ لَهُ .

وكَذلكَ عُوجُ بْنُ عِنَاقٍ ، هُوَ فِيـــمَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ ، أَوْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ كَانوا فَرِيسَةَ بَنِى إِسْرَائيل عِنْدَ فَتْحِهِم الشَّام ، وأَطْوَالُ بنِى إِسْرَائيلَ وَجِـــسْمَانُهُمْ لِذلكَ الْعَهْدِ قَرِيبَةٌ مِنْ هيَاكِلنَا . يَشْهَدُ لِذلكَ أَبْوَابُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ فَإِنَّهَا وإِنْ خُرِّبَتْ وَجُدِّدَتْ لَمْ تَزَلِ الْمُحافَظَةُ عَلَى أشْكَالِهَا وَمَقَادِيرِ أَبْوَابِهَا ، وكَيْفَ يكُونُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ عُوجٍ وَبَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ بِهـــذَا الْمِقْدَارِ . وَإِنَّمَا مَثَارُ غَلَطِهِمْ فـــى هـــذَا أَنَّهُمْ اسْتَعْظَمُوا آثَارَ الأُمَمِ ، ولَمْ يَفْهَمُوا حَالَ الـــدُّوَلِ فى الاجْتِمَاعِ وَالـتَّعَاوُنِ ، وَمَا يَحصُلُ بِذلكَ وَبِالْهِنْدَام مِنَ الأَثَارِ الْعَظِيـــمَةِ ، فَصَرَفُوهُ إِلَى قُوَّةِ الأَجْسَامِ وَشِدَّتِهَا بِعِظَمِ هيَاكِلِهَا ، ولَيْسَ الأَمْرُ كَذلكَ .

وَقَدْ زَعَمَ الْمَسْعُودِىُّ - وَنَقَلَهُ عَنِ الْفَلاَسِفَةِ - مَزْعَمًا لاَمُسْتَنَدَ لَهُ إلاَّ التَّحكُّمُ ، وَهُوَ : أَنَّ الـطَّبِيـــــعَةَ الَّتِى هِىَ جِبِلَّةٌ للأَجْسَامِ ، لَمَّا بَرَأَ اللهُ الْخَلْقَ، كَانَتْ فى تَمَامِ الْمِرَّةِ[1] ، وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ والْكَمَالِ ، وكَانَتِ الأَعْمَارُ أَطْوَلَ ، وَالأَجْسَامُ أَقْوَى ، لِكَمَالِ تِلْكَ الطَّبِيـــعَةِ ؛ فَإِنَّ طُرُوءَ الْمَوْتِ إِنَّمَا هُوَ بِانْحِلاَلِ الْقُوَى الطَّبِيـــعِيَّةِ . فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً ، كَانَتِ الأَعْمَارُ أَزْيَدَ ،

---

(١) القوة ، ومتانة التكوين .

فَكَانَ الْعَالَمُ فـــى أَوَّلِيَّةِ نَشْأَتِه تَامَّ الأَعْمَارِ ، كَامِلَ الأَجْسَامِ . ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَتَنَاقَصُ لِنُقْصَانِ الْمَادَّةِ ، إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَى هـذِهِ الْحَالِ الَّتِى هُوَ عَلَيْهَا . ثُمَّ لاَيَزَالُ يَتَنَاقَصُ إِلى وَقْتِ الانْحِلاَلِ وَانْقِرَاضِ الْعَالَم .

وَهذَا رَأْىٌ لاَوَجْهَ لَهُ إِلاَّ التَّحَكُّمُ كَمَا تَرَاهُ . وَلَيْسَ لَهُ عِلَّةٌ طَبِيـــعِيَّةٌ ، وَلاَ سَبَبٌ بُرْهَانِىٌّ ، وَنَحْنُ نُشَاهِدُ مَسَاكِنَ الأَوَّلِينَ وَأَبْوَابَهُمْ وَطُرُقَهُمْ فِيـمَا أَحْدَثُوهُ مِنَ الْبُنْيَانِ وَالْهَيَاكِلِ وَالدِّيَارِ وَالْمَسَاكِنِ ، كَدِيَارِ ثَمُودَ الْمَنْحُوتَةِ فـى الصَّلْدِ مِنَ الصَّخْرِ بُيُوتًا صِغَارًا ، وَأَبْوَابُهَا ضَيِّقَةٌ . وَقَدْ أَشَارَ ﷺ إِلى أَنَّهَا دِيَارُهُمْ ، وَنَهَى عَنِ اسْتِعْمَالِ مِيَاهِهِمْ ، وَطَرَحِ مَا عُجِنَ بِهِ ، وَأَهْرَقَهُ[1] ، وَقَالَ : « لاَتَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِيـــنَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » . وَكَذلِكَ أَرْضُ عَادٍ وَمِصْرَ ، وَالشَّامِ ، وَسَائِرِ بِقَاعِ الأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا . وَالْحَقُّ مَا قَرَّرْنَاهُ .

وَمِنْ آثَارِ الـدُّوَلِ أَيْضًا : حَالُهَا فـى الأَعْرَاسِ وَالْوَلاَئِمِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ فى وَلِيمَةِ بُورَانَ[2] ، وَصَـنِيعِ الْحَجَّاجِ ، وَابْنِ ذِى الـنُّونِ ، وَقَدْ مَرَّ ذلِكَ كُلُّهُ .

وَمِنْ آثَارِها أَيْضًا : عَطَايَا الدُّوَلِ ، وَأَنَّهَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَتِهَا ، وَيَظْهَرُ ذلِكَ فِيـهَا وَلَوْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْهَرَمِ ، فَإِنَّ الْهِمَمَ الَّتِى لأَهْلِ الدَّوْلَةِ ، تَكُون

---

(١) صبه وأراقه .

(٢) بنت الحسن عند زفافها إلى المأمون .

عَلَى نِسبَةِ قُوَّةِ مُلْكِهِمْ وَغَلَبِهِمْ لِلـنَّاسِ ، وَالْهِمَـــمُ لاَتَزَالُ مُصَاحِبَةً لَهُمْ إِلَى انْقِرَاضِ الـدَّوْلَةِ ، وَاعْتَبِرْ ذلكَ بِجَوَائِزِ ابْنِ ذي يَزَنٍ لِـوفْدِ قُرَيْـشٍ ، كَيْفَ أَعْطَاهُمْ مِنْ أَرْطَالِ الذَّهَـبِ وَالْفِضَّةِ وَالأَعْبُدِ[1] وَالْوَصَائِفِ عَشْرًا عَشْرًا ، وَمِنْ كَرِشِ الْعَنْبَرِ واحِدةً ، وَأَضْعفَ ذلكَ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِه لِعَبْـدِ الْمُطَّلِبِ ؛ وَإِنَّمَا مُلْكُهُ يَوْمَئِذٍ قَرارَةُ الْيَمَنِ خَاصَّةً تَحْتَ اسْتِبْدادِ فَارِس ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى هِمَّةُ نَفْسِهِ بِمَا كَانَ لِقَوْمِهِ التَّبَابِعَةِ مِنَ الْمُلْكِ فـي الأَرْضِ وَالْغَلَبِ عَلَى الأُمَمِ فى الْعِرَاقَيْنِ والْهِنْدِ والْمغْرِبِ .

وكَانَ الـصَّنْهَاجِيُّونَ بِأَفْرِيـــقِيَّةَ أَيـضًا إِذَا أَجَازُوا الْوَفْدَ مِنْ أُمَرَاءِ زَنَاتَةَ الْوافِدِينَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّمَا يُعْطُونَهُمُ الْمَالَ أَحْمَالاً ، وَالْكَسَاءَ تُخُوتًا[2] مَمْلُوءَةً وَالْحُمْلاَنَ نَجَائِبَ[3] عَدِيدَةً . وَفِي تَارِيخِ ابْنِ الرَّقِيقِ مِنْ ذلكَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ. وَكَذلكَ كَانَ عَطَاءُ الْبَرَامِكَةِ ، وَجَوَائِزُهُمْ وَنَفَقَاتُهُمْ . وكَانُوا إِذَا كَسَبُوا مُعْدِمًا ، فَإِنَّمَا هُوَ الْوِلاَيَةُ وَالنِّعْمَةُ آخِرَ الدَّهْرِ لاَ الْعَطَاءُ الَّذى يَسْتَنْفِدُهُ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ . وأَخْبَارُهُمْ فى ذلكَ كَثِيـــرَةٌ مَسْطُورَةٌ ، وَهِيَ كُلُّهَا عَلَى نِسبَةِ الدُّوَلِ جَارِيَةٌ .

---

(١) العبيد : والوصائف جمع وصيفة وهى الجارية تؤهلهـا ميزاتها لمصاحبة عقيلات الملوك والخدمة فى بيوت ذوى الجاه واليسار .

(٢) التخوت جمع تخت وهو ما تصان فيه الثياب من أوعية أو صناديق .

(٣) فى جـميع النسخ « والحـملات جنائب » « ومـا أثبتناه عن منشـورة د. وافى . جـ ٢ هامش ص ٦٦٩ .

هـذَا جَوْهَرُ الـصِّقِلِّي الْكَاتِبُ ، قَائِدُ جَيْشِ الْعُبَيْدِيِّينَ لَمَّا ارتَحَلَ إِلَى فَتْحِ مِصْرَ ، استَعَدَّ مِنَ الْقَيْرَوَانِ بِأَلْفِ حِمْلٍ مِنَ الْمَالِ ، ولاَ تَنْتَهِي الْيَوْمَ دَوْلَةٌ إِلَى مِثْلِ هذَا . وكَذلكَ وُجِدَ بِخَطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيـدِ عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ ، أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي، نَقَلْتُهُ مِنْ جرابِ الدَّوْلَةِ .

(غُلاَّتُ السَّوَادِ) سَبْعٌ وَعِشْـرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وثَمَانمائةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَمِنْ الْحُلَلِ النَّجْرَانِيَّةِ[1] مِائَتَا حُلَّةٍ ، وَمِنْ طِينِ الْخَتْمِ مِائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رِطْلاً .

(كفْكَرَ[2]) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمَ مَرَّتَيْنِ وَسِتُّمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(كوردجلة) عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وثَمانِيَةُ دَرَاهِمَ .

(حُلوان) أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وثَمانمائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(الأَهـوازِ) خَمْسَةٌ وَعِشْرونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً ، وَمِنَ الـسُّكَّرِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

---

(١) نسبة إلى : نجران . اسم بلد كانت تعرف بتجويد صناعة النسيج .

(٢) في القاموس : كنكور بلد بين همدان وقرمسين .

(فــارس) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ ، وَمِنَ الزَّيتِ الأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(كَرمــــان) أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنَ الْمَتَاعِ الْيَمَانِيِّ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنَ التَّمْرِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(مكران) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّةً .

(السِّند ومـا يليـه) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَخَمْسُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنَ الْعُودِ الْهِنْدِيِّ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ رِطْلاً .

(سجستـــان) أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الثِّيَابِ الْمُعَيَّنَةِ ثَلَثُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنَ الْفَانِيذِ[1] عِشْرُونَ رِطْلاً .

(خُراســـــان) ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ نُقَرِ الْفِضَّةِ أَلْفَا نُقْرَةٍ ، وَمِنَ الْبَرَاذِينِ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ ، وَمِنَ الرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ ، وَمِنَ الْمَتَاعِ عِشْرُونَ أَلْفَ ثَوْبٍ ، وَمِنَ الإِهْلِيلَجِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ رَطْلٍ .

(جُرجان) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الإِبْرِيسَمِ[2] أَلْفُ شُقَّةٍ .

---

(١) ضرب من الحلوى .

(٢) الحرير .

(قُومَس) أَلْفَ أَلْفِ مَرَّتَيْنِ وَخَمْسُمائَةٍ مِنْ نُقَرِ الْفِضَّةِ .

(طبرستان والربان ونهاوند) سِتَّةُ آلاَفِ أَلْف درهم مَرَّتَيْنِ ، وثَلاثُمائَةِ أَلْفٍ ، وَمِنَ الْفَرْشِ الطَّبَرِيِّ سِتُّمائَةِ قِطْعَة ، وَمِنَ الأَكْسِيَةِ مائَتَانِ ، وَمِنَ الثِّيَابِ خَمْسُمِائَةِ ثَوْبٍ ، وَمِنَ الْمَنَادِيلِ ثَلاثُمائَةٍ ، وَمِنَ الْجَامَاتِ ثَلاثُمائَةٍ .

(الرَّى) اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الْعَسَلِ عِشْرُونَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(هَمَدَان) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَثَلاثُمائَةِ أَلْفٍ ، وَمِنْ رُبِّ الرُّمَّانِ أَلْفُ رِطْلٍ ، وَمِنَ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ رِطْلٍ .

(ما بين البصرة والكوفة) عَشَرَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسَبْعُمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(ما سبذان والدينار)[1] أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(شهر زور) سِتَّةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَسَبْعُمائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

---

(١) علق الهوريني بقوله : والدينار والظاهر أنها الدينور . وفى الترجمة التركية ما سند ان وربان اهـ .

(الموصل وما يليها) أَرْبَعَةٌ وَعِشْرون أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الْعَسَلِ الأَبْيَضِ عِشْرُونَ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ .

(أذربيجان) أَرْبَعَةُ آلاَفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أَرْبَعَةٌ وَثَلاَثُونَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الرَّقِيقِ أَلْفُ رَأْسٍ ، وَمِنَ الْعَسَلِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ زِقٍّ ، وَمِنَ الْبُزَاةِ[1] عشْرَةٌ وَمِنَ الأَكْسِيَةِ عِشْرُونَ .

(أرمينية) ثَلاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنَ الْقُسْطِ[2] الْمَحْفُورِ عِشْرُونَ ، وَمِنَ الزَّقَمِ خَمْسُمِائَةِ وَثَلاَثُونَ رِطْلاً ، وَمِنَ الْمَسَايِجِ السّورِ مَا هِيَ ، عَشْرَةُ آلافِ رطلٍ ، وَمِنَ الصُّونج عَشْرَةُ آلاَفِ رِطْلٍ ، وَمِنَ الْبِغَالِ مِائَتَانِ ، وَمِنَ الْمهرَةِ ثَلاَثُونَ .

(قِنَّسرين) أَرْبَعُمائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَمِنَ الزَّيتِ أَلْفُ حِمْلٍ .

(دمشق) أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وعِشْرُونَ أَلْفَ دِينارٍ .

(الأردن) سَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

---

(١) علق الهوريني بقوله : ومن البزاة . . . إلخ في الترجمة التركية : ومن السكر عشرة صناديق اهـ .

(٢) القسط : عود هندي وعربي يتداوى به .

(فلسطين) ثَلاَثُمائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَعَشْرَةُ آلاَفِ دِينَارٍ ، وَمِنَ الزَّيْتِ ثَلاَثُمائَةِ أَلْفِ رِطْلٍ .

(مصر) أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ وَتِسْعُمَائَةِ أَلْفِ دِينَار وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ .

(برقة) أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ .

(افريقية) ثَلاَثَةَ عَشَرَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَمِنَ الْبُسطِ[1] مَائَةٌ وَعِشْرُونَ .

(اليمن) ثَلاَثُمائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ دِينَارٍ سِوَى الْمَتَاعِ .

(الحجاز) ثَلاَثُمائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ انْتَهَى .

وَأَمَّا الأَنْدَلُسُ : فَالَّذِى ذَكَرَهُ الثِّقَاتُ مِنْ مُوَرِّخِيهَا ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمنِ النَّاصِرَ ، خَلَّفَ فِى بُيُوتِ أَمْوَالِهِ خَمْسَةَ آلاَفِ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ مُكَرَّرَةً ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، تَكُونُ جُمْلَتُهَا بِالْقَنَاطِيرِ خَمْسمِائَةِ أَلْفِ قِنْطَارٍ . وَرَأَيْتُ فِى بَعْضِ تَوَارِيخِ الرَّشِيدِ : أَنَّ الْمَحْمُولَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فِى أَيَّامِهِ ، سَبْعَةُ آلاَفِ قِنْطَارٍ ؛ وَخَمْسُمِائَةِ قِنْطَارٍ فِى كُلِّ سَنَةٍ .

فَاعْتَبِرْ ذلِكَ فِى نَسَبِ الدّوَلِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَلاَ تُنْكِرَنَّ مَالَيْسَ بِمَعْهُودٍ عِنْدَكَ وَلاَ فِى عَصْرِكَ شَىْءٌ مِنْ أَمْثَالِهِ ، فَتَضِيقَ حَوْصَلَتُكَ عِنْدَ

(١) جمع بساط ، ويروى « القسط » كما تقدم .

مُلْتَقَطِ الْمُمْكِنَاتِ . فَكَثِيرٌ مِنَ الْخَوَاصِّ إِذَا سَمِعُوا أَمْثَالَ هذِهِ الأَخْبَارِ عَنِ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ بَادَرَ بِالإِنْكَارِ ، وَلَيْس ذلكَ مِن الصَّوَابِ ، فَإِنَّ أَحْوَالَ الْوُجُودِ وَالْعُمْرَانِ مُتَفَاوِتَةٌ ، وَمَنْ أَدْرَكَ مِنْهَا رُتْبَةً سُفْلَى أَوْ وُسْطَى ، فَلاَ يَحْصُرُ الْمَدَارِكَ كُلَّهَا فِيهَا .

ونَحْنُ إِذَا اعْتَبَرْنَا ما يُنْقَلُ لَنَا عنْ دوْلَةِ بَنِى الْعبَّاسِ ، وبنى أُمَيَّةَ ، والْعُبَيْدِيِّين ، ونَاسَبْنَا الصَّحِيحَ مِنْ ذلِكَ ، والَّذى لاَشَكَّ فِيهِ بِالَّذى نُشَاهِدُهُ مِنْ هذِهِ الدُّولِ الَّتِى هِى أَقَلُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا وجدْنَا بيْنَهَا بوْنًا ، وهُو لما بيْنَهَا مِن التَّفَاوُتِ فى أَصْلِ قُوَّتِهَا وعُمْرانِ ممالكِهَا ؛ فَالآثَارُ كُلُّهَا جارِيةٌ علَى نِسْبَةِ الأَصْلِ فى الْقُوَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ؛ ولاَ يسعُنَا إِنْكَارُ ذَلِكَ عنْهَا ، إِذْ كَثِيرٌ مِنْ هذِهِ الأَحْوالِ فى غَايةِ الشُّهْرَةِ والْوُضُوحِ ، بلْ فِيهَا مَا يُلْحَقُ بِالْمُسْتَفِيضِ والْمُتَوَاتِرِ ، وفِيهَا الْمُعَايَنُ والْمُشَاهَدُ مِنْ آثَارِ الْبِنَاءِ وغَيْرِهِ ، فَخُذْ من الأَحْوالِ الْمنقُولَةِ مراتِبَ الدُّولِ فى قُوَّتِهَا أَوْ ضَعْفِهَا وضَخَامتِهَا أَوْ صِغَرِها.

واعْتَبِرْ ذلِكَ بِما نَقُصُّهُ علَيْكَ مِنْ هذِهِ الْحِكَايةِ الْمُسْتَظْرَفَةِ : وذلِكَ أَنَّهُ ورد بِالْمغْرِبِ لِعَهْدِ السُّلْطَانِ أَبِى عِنَانٍ مِنْ مُلُوكِ بنِى مَرِيْن رجُلٌ مِنْ مشَيخَةِ طَنْجةَ يُعْرَفُ بِابْنِ بطُوطَةَ[1] كَانَ رحلِ مُنْذُ عِشْرِين سنَةً قَبْلَهَا إِلَى الْمشْرِقِ ، وتَقَلَّب فى بِلاَدِ الْعِراقِ والْيمنِ والْهِنْدِ ، ودخَل مدِينَةَ دِهْلى

---

(١) علق الهوريني بقوله : كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهاؤها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرها ٧ كراريس اهـ .

حـاضرة ملك الْهِنْدِ ، وهُو السـلْطَانُ مُحـمَّدُ شَاه ، واتَّصل بِملكِهَا لذلك العـــهْدِ وهُو فَيْرُوزجُوهُ وكَانَ له منْهُ مكَانٌ واستَعْمـلَهُ فى خُطَّة الْقَضَاء ، بِمذْهبِ الْمالكِيَّةِ فى عـملِه ، ثُمَّ انْقَلَب إِلَى الْمغرِبِ واتَّصل بالسُّلْطَانِ أبِى عنَان ، وكَانَ يُحدِّثُ عـنْ شَأْنِ رحْلَتِهِ ، وما رأى من الْعـجَائِبِ بِمـمالك الأرْض . وأكْثَرُ مـــا كَانَ يُحـدِّثُ عنْ دولَةِ صـــاحبِ الْهِنْدِ ، ويأْتِى منْ أحْوالِه بِما يستَغْرِبُهُ السَّامِعُونَ ، مِثْل : أنَّ ملكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَج إِلَى السَّفَرِ أحْصى أهْلَ مـدِينَتِه من الرِّجالِ والنِّســاء والْوِلْدان ، وفَرضَ لَهُمْ رِزْقَ ستَّة أشْهُرٍ ، تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عطَائه ، وأنَّهُ عنْد رُجُوعِه مِنْ ســفَرِه ، يدْخُلُ فى يوْمٍ مـــشْهُودٍ يبْرُزُ فِيـــهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صـــحْرَاءِ الْبلَدِ ، ويطُوفُونَ بِه ، وينْصبُ أمامهُ فى ذلكَ الْحفْلِ منْجنيقَات[1] علَى الظَّهْرِ ، تُرْمَى بِهَا شكَائِرُ الدَّراهِم والـدَّنَانِيـــرِ عـلَى النَّاسِ ، إِلَى أنْ يدْخُل إِيـوانَهُ . وأمْثَال هذه الْحكَايات فَتَنَاجى النَّاسُ بِتكْذِيبِه . ولَقِيتُ أيَّا منذ وزِيرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وِرْدار الْبـعِيـدِ الصِّيتِ ، فَفَاوضْتُهُ فى هذَا الشَّأْنِ ، وأريْتُهُ . إِنْكَار أخْبـارِ ذلكَ الرَّجُلِ لِما استَفَاضَ فى النَّاسِ مِنْ تكْذِيبِه ، فَقَال لِى الْوزِيرُ فَارِسٌ : إِيَّاكَ أنْ تَستَنْكِر مِثْل هذَا مِنْ أحْوالِ الدُّولِ ، بِمـــا أنَّكَ لَمْ تَرهُ ، فَتكُونَ كَابْنِ الْوزِيرِ النَّاشِىءِ فـى السِّجْنِ . وَذلكَ أن وَزِيرًا اعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَثَ

(١) هى فى الأصل آلة حربيـة تستخـدم كالمدافع فى قـذف العدو . واستخدمت هنا فى رمى الدراهم والدنانير .

فى السِّجْنِ سِنِين ربَّى فِيـــهَا ابْنُهُ فى ذلِكَ الْمَحْبِس . فَلَمَّا أَدْرِكَ وعــقَل ، ســـأل عنِ اللُّحْمـــانِ الَّتِى كَانَ يتغَذَّى بِهَا فَقَال لَه أَبُوهُ هذَا لَحْمُ الْغَنَمِ . فَقَال. وما الْغَنَمُ ؟ فَيـصِفَهَا لَهُ أَبُوهُ بِشِيَاتِهَا ونُعُوتِهَا ؛ فَيقُولَ يا أَبتِ تَراها مِثْلَ الْفَارِ ، فَيُنْكِرُ علَيْهِ ويقُولُ : أَيْن الْغَنَمُ مِن الْفَأْرِ ؟ وكَذَا فى لَحْمِ الإِبِلِ والْبقرِ ، إِذْ لَمْ يُعايِنْ فى مَحْبِسِهِ مِن الْحـيوانَات إِلاَّ الْفَأْر ، فَيحْسَبُهَا كُلَّهَا أَبْنَاءَ جِنْسِ الْفَأْرِ ، وهذَا كَثِيرًا مـا يعتَرِى النَّاس فى الأَخْبارِ كَمـا يعتَرِيهِم الْوسْواسُ فى الزِّيادةِ عِنْد قَصْدِ الإغْرابِ كَما قَدَّمْنَاهُ أَوَّل الْكِتَابِ .

فَلْيرْجِع الإنسَانُ إِلَى أُصُولِهِ . ولْـيكُنْ مُهَيْمِنًا علَى نَفْسِهِ ، ومُميِّزًا بين طَبِيعةِ الْمُمْكِنِ والْمُمْتَنِعِ بِصـرِيحِ عقْلِهِ ، ومُسْتَقِيمِ فِطْرتِهِ ؛ فَمـــا دخَل فى نطَاقِ الإِمْكَانِ قَبِلَه ، وما خَرج عــنْهُ رفَضَهُ ، ولَيْس مُرادُنَا الإِمْكَانَ الْعقْلِيَّ الْمُطْلَقَ ، فَإِنَّ نِطَاقَهُ أَوْسعُ شَىْءٍ ، فَلاَ يُفْرضُ حدًّا بيْن الْواقِعـاتِ ؛ وإِنَّما مُرادُنَا الإِمْكَانُ بِحـسبِ الْمـــادَّةِ الَّتِى لِلشَّىْءِ ، فَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا أَصْلَ الشَّىْءِ وجِنْسَهُ وصِــنْفَهُ ومِقْدارَ عِظَمِهِ وقُوَّتِهِ ، أَجْرِيْنَا الْحُكْمِ مِنْ نِسْبَةِ ذلِكَ عــلَى أَحْوالِهِ ، وحكَمْنَا بِالامْتِنَاعِ علَى ما خَرجَ مِنْ نِطَاقِه[1] . ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2] وأَنْتَ أَرْحمُ الرَّاحِمين والله سبْحانَهُ وتَعالَى أَعلَمُ .

---

(١) انظر : منشورة د. وافى جـ ١ ص ٢٤٠ - ٢٥٥ ففيها تفصيل هذه النظرية الهامة التى قام على أساسها علم الاجتماع .

(٢) الآية رقم ١١٤ من سورة طه .

فصل
فى استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالى والمصطنعين

اعْلَمْ أنَّ صاحِبَ الدَّوْلَةِ ، إنَّما يتِمُّ أَمْرُهُ كَما قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ ، فَهُمْ عِصابَتُهُ وظُهَراؤُهُ علَى شأنِه ، وبِهِمْ يُقَارِعُ الْخَوارِجَ علَى دولَتِه ، ومِنْهُمْ يُقَلِّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِه ووِزَارةَ دَوْلَتِه وَجِبايَةَ أَمْوالِه ؛ لأنَّهُمْ أعْوانُه علَى الْغَلَبِ، وَشُرَكَاؤُهُ فى الأَمْرِ ، وَمُسَاهِمُوهُ فى سَائِرِ مُهِمَّاتِه . هذَا مَا دَامَ الطَّوْرُ الأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ [1] .

فَإذَا جَاءَ الطَّوْرُ الثَّانِى ، وَظَهَرَ الاسْتِبْدادُ عَنْهُمْ وَالانْفِرادُ بِالْمَجْدِ ، وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالرَّاحِ ، صَارُوا فى حقِيقَةِ الأَمْرِ مِنْ أَعْدَائِه ، وَاحْتَاجَ فى مُدافَعتِهِمْ عنِ الأَمْرِ وَصدِّهِمْ عنِ الْمُشارَكَةِ ، إلَى أوْلِياءَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ويتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ ، فَيَكُونُونَ أقْرب إلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ ، وأخَصّ بِهِ قُرْبًا واصْطِنَاعًا ، وأوْلَى إيثَارًا وجَاهًا ؛ لِما أنَّهُمْ يسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فى مُدافَعةِ قَوْمِهِ عنِ الأَمْرِ الَّذى كَانَ لَهُمْ ، وَالرُّتْبَةِ الَّتى أَلِفُوها فى مُشَارَكَتِهِم ، فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ ، وَيَخُصُّهُمْ بِمَزِيدِ التَّكْرِمَةِ والإيثَارِ ، وَيقْسِمُ لَهُمْ مِثْل مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيل

(١) انظر الفصل السابع عشر من هذا الباب وعنوانه : « فصل فى أطوار الدولة .. الخ » ص١٥٧.

الأعْمَالِ وَالْولاَيات : مِنَ الْوِزَارَةِ ، وَالْقِيادة ، وَالْجِبايَةِ ، وَمَا يخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِه ، وتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنْ أَلْقَابِ الْمَمْلَكَةِ ؛ لأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِياؤهُ الأقْرِبُونَ ، ونُصحاؤهُ الْمُخْلِصُونَ . وذلكَ حِينَئِذٍ مُؤْذِنٌ بِاهْتِضامِ الدَّوْلَةِ ، وَعَلاَمَةٌ علَى الْمَرَضِ الْمُزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِى كَانَ بِنَاءُ الْغَلَبِ عَلَيْهَا ، ومَرَض قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الامْتِهَانِ ، وَعَدَاوَةِ السُّلْطَانِ ، فَيَضْطَغِنُونَ[1] عَلَيْهِ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ ، وَيَعُودُ وَبَالُ ذلكَ عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَلاَ يُطْمَعُ فى بُرْئِهَا مِنْ هذَا الدَّاءِ لأن مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فى الأعْقَابِ إِلَى أَنْ يُذْهِبُ رسْمَهَا .

واعْتَبِرْ ذلكَ فِى دَوْلَةِ بَنِى أُمَيَّةَ ، كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فى حُرُوبِهِمْ وولاَيَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ ، مِثْلِ عَمْرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ الله بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ وَالْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ ، وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِى صُفْرَةَ ، وَخَالدِ بْنِ عَبْدِ الله الْقَسْرِىِّ ، وَابْنِ هُبَيرَةَ ، وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ ، وَبِلاَلِ بْنِ أَبِى بُرْدَةَ بْنِ مُوسَى الأَشْعَرِىِّ ، وَنَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالاَتِ الْعَرَبِ . وَكَذَا صَدْرٌ مِنْ دَوْلَةِ بَنِى الْعَبَّاسِ كَانَ الاسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضًا بِرِجَالاَتِ الْعَرَبِ . فَلَمَّا صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلانْفِرَادِ بِالْمَجْدِ ، وكُبِحَ الْعَرَبُ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْوِلاَيات ، صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ والصَّنَائعِ مِن الْبَرَامِكَةِ ، وَبَنِى سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ ، وبَنِى طَاهِرٍ ، ثُمَّ بَنِى

---

(١) يحملون له الضغينة والحقد .

بُوَيْه ، وَمَوَالِى التُّرْكِ مِثْلَ بُغَا ، وَوَصِيف ، وَأَتَامِش ، وَبَاكِبَاكَ ، وَابْنِ طُولُونَ ، وَأَبْنَائِهِمْ ، وَغَيْرِ هؤلاءِ مِنْ مَوَالِى الْعَجَمِ ، فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ مَنْ مَهَّدَهَا ، وَالْعِزُّ لِغَيْرِ مَنِ اجْتَلَبَهُ : سُنَّةُ اللهِ فِى عِبَادِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

فصل
فى أحوال الموالى والمصطنعين فى الدول

إِعْلَمْ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِى الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِى الالْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِى الالْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا ؛ وَالسَّبَبُ فِى ذَلِكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِى الْعَصَبِيَّةِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْمُغَالَبَةِ ، إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِى ذَوِى الأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى ، وَالتَّخَاذُلِ فِى الأَجَانِبِ وَالْبُعَدَاءِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَالْوِلاَيَةُ وَالْمُخَالَطَةُ بِالرِّقِّ أَوْ بِالْحِلْفِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ذلكَ ؛ لأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِيًّا ، فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ ، وَالْمَعْنَى الَّذِى كَانَ بِهِ الالْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمُمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةِ بِالْمَرْبَى وَالرِّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ .

وَإِذَا حَصَلَ الالْتِحَامُ بِذَلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ وَالتَّنَاصُرُ . وَهذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ النَّاسِ . وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِى الاصْطِنَاعِ ، فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ الْمُصْطَنِعِ وَمَنِ اصْطَنَعَهُ ، نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ الْوُصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتُؤَكِّدُ اللُّحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَثَمَرَاتُ النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ .

فَإِذَا كَانَت هـذه الْوِلاَيَةُ بَيْنَ الْقَبِيـلِ وَبَيْن أَوْلِيَائِهِمْ ، قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْك لَهُمْ ، كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ ، وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ ، وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُما أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ أُسْوَةٌ فِى حَالِهِمْ فَلاَ يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوِلاَيَةِ إلاَّ عِنْدَ الأَقَلِّ مِنهُم فَيَتَنَزَّلُونَ مِنهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِى قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ . وَإِذَا اصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْك كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ مُمَيِّزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى ، ولأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْوِلاَيَةِ وَالاصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيه أَحْوَالُ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ تَمَيُّزِ الرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهَا فَتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ ، وَيَتَنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الأَجَانِبِ وَيَكُونُ الالْتِحَامُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ ، وَالتَّنَاصُرُ لِذلكَ أَبْعَدَ ، وذَلِكَ أَنْقَصُ مِنَ الاصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ . الْوَجْهُ الثَّانِى : أَنَّ الاصْطِنَاعَ قَبْلَ الْمُلْك يَبْعُدُ عَهْدُهُ عَنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِطُولِ الزَّمَانِ ، وَيَخْفَى شَأْنُ تِلْكَ اللُّحْمَةِ، ويُظَنُّ بِهَا فِى الأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ .

وَأَمَّا بَعْد الْمُلْكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِى فِـى مَعْرِفَتِهِ الأَكْثَرُ فَتَتَبَيَّنُ اللُّحْمَةُ وتَتَمَيَّزُ عَنِ النَّسَبِ فَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوِلاَيَةِ الَّتِى كَانَتْ قَبْلَ الدَّوْلَةِ .

وَاعْتَبِرْ ذلكَ فِى الدُّوَلِ ، وَالرِّئَاسَاتِ تَجِدْهُ . فَكُلُّ مَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الرِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ لِمُصْطَنِعِه تَجِدُهُ أَشَدَّ الْتِحَامًا بِه وَأَقْرَبَ قَرَابَةً إِلَيْه ، وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائه وَإِخْوانِه وَذَوِى رَحِمِه . وَمَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ لِمُصْطَنِعِه ، لايَكُونُ لَهُ من الْقَرَابَة واللُّحْمَة مَا

للأوَّلِينَ . وَهذَا مُشَاهَدُ بِالْعَيَــانِ ؛ حَتَّى إنَّ الدَّوْلَةَ فِى آخِرِ عُمْرِهَا تَرْجِعُ إلَى اسْتِعْمَالِ الأَجَانِبِ وَاصْطِنَاعِهِمْ ، وَلاَ يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَمَا بَنَاهُ الْمُصْطَنَعُونَ قَبْلَ الدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حِينَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الـدَّوْلَةِ عَلَى الانْقِرَاضِ ، فَيَكُونُونَ مُنْحَطِّينَ فِى مَهَاوِى الضَّعَةِ .

وإنَّمَا يَــحْمِلُ صَاحِبَ الــدَّوْلَةِ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ والْعُدُولِ إلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا الأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِى أَنْفُسِــهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَــاحِبِ الــدَّوْلَةِ ، وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ ونَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ الــلُّحْمَةِ مُنْذُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَالاتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالانْتِظَامِ معَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذلكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِــــزَازٌ فَيُنَافِــرُهُمْ بِسَــبَبِهَا صَــاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إلى اسْتِــعْمَــالِ سِوَاهُمْ ، وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلاَصِهِمْ واصْطِنَاعِهِمْ قَرِيــبًا ، فَلاَ يَــبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجْدِ ، وَيَبْقَونَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْخَارِجِيَّةِ .

وَهــكَذَا شَأنُ الــدُّوَلِ فــى أَوَاخِرِهَا . وأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمٌ الــصَّنَائِعِ وَالأَوْلِيَاءِ عَلَى الأَوَّلِينَ . وأَمَّا هــؤُلاءِ الْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وأَعْوَانٌ ، وَاللهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

فصل

فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إذَا استَقَرَّ الْمُلْكُ فى نِصابٍ مُعيَّنٍ ، ومَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِن الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بالدَّوْلَةِ ، وَانفَرَدُوا بِهِ ، وَدَفَعُوا سائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ ، وتَدَاولَهُ بَنُوهُمْ واحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ ، فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمَنْصِبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ . وسَبَبُهُ فى الأَكْثَرِ وِلاَيَةُ صَبِىٍّ صَغِيرٍ ، أَوْ مُضْعَف مِنْ أَهْلِ الْمنْبِتِ يَتَرشَّحُ لِلْوِلاَيَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ ، أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ[1] وَيُؤْنَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ ، وَيُورِّى[2] بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ الاسْتِبْدَادُ ، وَيَجْعَلَ ذلكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِىَّ عَنِ النَّاسِ ، وَيُعَوِّدُهُ اللَّذَّاتِ الَّتِى يَدْعُو إِلَيْهَا تَرَفُ أَحْوَالِهِ ويُسِيمُهُ فى مَرَاعِيهَا مَتَى أَمْكَنَهُ، وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فى الأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عليْهِ . وَهُوَ بِما عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّما هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ ، وإِعْطَاءُ الصَّفْقَةِ وَخِطَابُ التَّهْوِيلِ ، وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ الْحِجَابِ وَأَنَّ الْحَلَّ والرَّبْطَ والأَمْرَ وَالنَّهْىَ وَمُبَاشَرَةَ الأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وتَفَقُّدَهَا مِنَ النَّظَرِ فى الْجَيْشِ والْمَالِ والثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ ، وَيُسلِّمُ لَهُ فى ذلكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ

---

(١) الخدم من البطانة والحاشية .

(٢) يخفى أطماعه الاستبدادية وراء التظاهر بالمحافظة للصبى على ملكه حتى يرشد .

الرِّيَاسَةَ وَالاستبْداد ، وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إلَيْه ، ويُؤثِر بِهِ عشيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْده . كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْه والتُّرْكِ وكافور الأخْشيدِي وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ ، وَلِلْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عامِرٍ بِالأنْدَلُسِ .

وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذلكَ الْمَحْجُورُ الْمُغَلَّبُ لِشَأنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى الخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَجْرِ وَالاستِبْدَادِ وَيُرْجِعُ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ ، وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ ؛ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ الرُّتْبَةِ فَقَطْ ؛ إلاَّ أَنَّ ذلكَ فِي النَّادِرِ الأقَلِّ ، لأنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغَلُّبِ الْوُزَرَاءِ وَالأوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّ لَهَا ذلكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ ، لأنَّ ذلكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي الأكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ ، وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْغَمِسِينَ فِي نَعِيمِه ، قَدْ نَسُوا عَهْدَ الرُّجُولَةِ ، وَأَلِفُوا أَخْلاَقَ الدَّايَاتِ وَالأظْآرِ[1] وَرَبُّوا عَلَيْهَا ، فَلاَ يَنْزِعُونَ إِلَى رِيَاسَةٍ ، وَلاَ يَعْرِفُون اسْتِبْدادًا مِنْ تَغَلُّبٍ . إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي الْقُنُوعِ بِالأبَّهَةِ ، وَالتَّفَنُّنِ فِي اللَّذَّاتِ وأنْوَاعِ التَّرَفِ . وهَذَا التَّغَلُّبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي والْمُصْطَنَعِين عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ، وَانْفِرَادِهِمْ بِهِ دُونَهُمْ . وَهُوَ عَارِضٌ لِلدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌّ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . وَهـذَانِ مَرَضَانِ لاَ بُرءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إلاَّ فِي الأقَلِّ النَّادِرِ » ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾[2] ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

---

(١) جمع ظئر . . . وهى المرضعة .

(٢) الآية : ٢٤٧ من سورة البقرة .

فصل
فى حقيقة الملك وأصنافه

الْمُلْكُ مَنْصِبٌ طَبِيـــعِيٌّ لِلإِنْسَانِ ؛ لأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْبَشَرَ لاَ يُمْكِنُ حَيَاتُهُمْ وَوُجُودُهُمْ إِلاَّ بِاجْتِمَاعِهِم وَتَعَـــــاوُنِهِمْ عَلَى تَحْصِيـلِ قُوتِهِمْ وَضَرُورِيَّاتِهِمْ . وَإِذَا اجْتَمَعُوا دعَتِ الـــضَّرُورَةُ إِلَى الْمُعَامَـــلَةِ وَاقْتِضَاء الْحَاجَاتِ ، وَمَدَّ كُلٌّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَدَهُ إِلَى حَاجَتِه يَأْخُذُهَا مِنْ صاحِبِه ؛ لِمَا فِى الطَّبِيعَةِ الْحَيَوانِيَّةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيُمَانِعُهُ الآخَرُ عَنْهَا بِمُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالأَنَفَةِ ، ومُقْتَضَى الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ فــى ذلِكَ ، فَيَقَعُ الـتَّنَازُعُ الْمُفْضِى إِلَى الْمُقَاتَلَةِ ، وَهِيَ تُؤَدِّى إِلَى الْهَرجِ[1] وَسفْكِ الدِّمَاء ، وإِذْهَابِ النُّفُوسِ الْمُفْضِى ذلِكَ إِلـى انْقِطَاعِ النَّوْعِ ، وهُوَ مِمَّا خَصَّهُ الْبَارِى سُبْحَانَهُ بِالْمُحَافَظَةِ ، فَاسْتَحَالَ بَقَاؤُهُمْ فَوْضَى دُونَ حَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَــهُمْ عَنْ بـــعْضٍ ؛ وَاحْتَاجُوا مِنْ أَجْلِ ذلِكَ إِلَى الْوَازِعِ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ بِمُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْملِكُ الْقَاهِرُ الْمُتَحَكِّمُ .

وَلاَبُدَّ فى ذلِكَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ ؛ لِمــــا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمُطَالَبَات كُلَّهَا وَالْمُدَافَعَات لاَ تَتِمُّ إِلاَّ بــالْعَصَبِيَّةِ . وَهذَا الْمُلْكُ كَمَا تَرَاهُ مَنْصِبٌ شَرِيـفٌ تَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ الْمُطَالَبَاتُ ، وَيَحْتَاجُ إلى الْمُدَافَعَاتِ ؛ وَلاَ يَتِمُّ شىءٌ مِنْ ذلِكَ

(١) الاضطرابات والفتن .

إلاَّ بِالْعَصَبِيَّاتِ كَمَا مَرَّ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُتَفَاوِتَةٌ ، وَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ فَلَهَا تَحكُّمٌ وَتَغلُّبٌ عَلَى مَنْ يَلِيهَا مِنْ قَوْمِهَا وَعَشِيرِها . ولَيْسَ الْمُلْكُ لِكُلِّ عَصَبِيَّةٍ ؛ وَإِنَّمَا الْمُلْكُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لِمَنْ يَسْتَعْبِدُ الرَّعِيَّةَ ، وَيَجْبِى الأَمْوَالَ ، وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَحْمِى الثُّغُورَ ، وَلاَ تَكُونُ فَوْقَ يَدِه يدٌ قَاهِرَةٌ ، وَهذَا مَعْنَى الْملكِ وَحَقِيقَتُهُ فِى الْمَشْهُورِ .

فَمَنْ قَصرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ عَنْ بَعْضِهَا مِثْلِ حِمَايَةِ الثُّغُورِ أَوْ جِبَايَةِ الأَمْوَالِ ، أَوْ بَعْثِ الْبُعُوثِ ، فَهُوَ مَلِكٌ نَاقِصٌ ، لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ . كَمَا وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنْ مُلُوكِ الْبَربَرِ فِى دَوْلَةِ الأَغَالِبَةِ بِالْقَيْرَوَانِ ، وَلِمُلُوكِ الْعَجَمِ صَدْرَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَمَنْ قَصرَتْ بِهِ عَصَبِيَّتُهُ أَيْضًا عَنِ الاسْتِعْلاَءِ عَلَى جَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالضَّرْبِ عَلَى سَائِرِ الأَيْدِى ، وَكَانَ فَوْقَهُ حُكْمُ غَيْرِهِ فَهُوَ أَيْضًا مَلِكٌ نَاقِصٌ لَمْ تَتِمَّ حَقِيقَتُهُ . وَهؤُلاءِ مِثْلُ أُمَرَاءِ النَّوَاحِى وَرُؤَسَاءِ الْجِهَاتِ الَّذِين تَجْمَعُهُمْ دَوْلَةٌ وَاحِدَةٌ . وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ هذَا فِى الدَّوْلَةِ الْمُتَّسِعَةِ النِّطَاقِ ، أَعْنِى تُوجَدُ مُلُوكٌ عَلَى قَوْمِهِم فِى النَّوَاحِى الْقَاصِيَةِ ، يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِى جَمَعَتْهُم مِثْلُ صَنْهَاجَةَ مع الْعُبَيْدِيِّين ، وزَنَاتَةَ مع الأُمَوِيِّين تَارةً والْعُبَيْدِيِّين تَارةً أُخْرى ، ومِثْلُ مُلُوكِ الْعجم فى دولَةِ بنى الْعبَّاسِ ، ومِثْلُ مُلُوكِ الطَّوائف مِن الْفُرْسِ مع الاسْكَنْدرِ وقَوْمِهِ الْيُونَانِيِّين . وكَثِيرٌ مِن هؤلاَءِ فَاعْتَبِرْهُ تَجِدْهُ واللهُ الْقَاهِر فَوْقَ عبادِه .

فصل
فى معنى البيعة[1]

اعلَمْ أنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ . كَأَنَّ الْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ النَّظَرَ فِى أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لاَيُنَازِعُهُ فِى شَىْءٍ مِنْ ذلِكَ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ بِهِ مِنَ الأَمْرِ عَلَى الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرِهِ[2] .

وَكَانُوا إِذَا بَايَعُوا الأَمِيرَ وَعَقَدُوا عَهْدَهُ ، جَعَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِى يَدِهِ ، تَأكِيدًا لِلْعَهْدِ ، فَأَشْبَهَ ذلِكَ فِعْلَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِى. فَسُمِّىَ بَيْعَةً ، مَصْدَرَ بَاعَ وَصَارَتِ الْبَيْعَةُ مُصَافَحَةً بِالأَيْدِى . هذَا مَدْلُولُهَا فى عُرْفِ اللُّغَةِ وَمَعْهُودِ الشَّرْعِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِى الْحَدِيثِ فِى بَيْعَةِ النَّبِىِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ[3] وَعِنْدَ الشَّجَرَةِ[4] وَحَيْثُمَا وَرَدَ هذَا اللَّفْظُ . ومِنْهُ بَيْعَةُ الْخُلَفَاء . وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْبَيْعَةِ. كَانَ الْخُلَفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ عَلَى الْعَهْدِ وَيَسْتَوْعِبُونَ الأَيْمَانَ كُلَّهَا لِذلِكَ، فَسُمِّىَ هذَا الاسْتِيعَابُ أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ .

وَكَانَ الإِكْرَاهُ فِيهَا أَكْثَرَ وَأَغْلَبَ . وَلِهذَا لَمَّا أَفْتَى مَالِكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِسُقُوطِ

---

(١) البيعة بفتح الموحدة . وأما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فهى معبد النصارى .

(٢) يطيعه فيما يحب وفيما يكره .

(٣) هما بيعتان : الأولى فى السنة الثانية عشرة من البعثة . والثانية فى الثالثة عشرة .

(٤) وهى التى ذكرها القرآن الكريم : انظر سورة الفتح الآية رقم ١٨ .

يَمينِ الإكْرَاهِ[1] أنْكَرَهَا الْوُلاَةُ عَلَيْهِ ، ورَأَوهَا قــــادِحَةً فى أيْمَانِ الْبَيْعَةِ ، وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ الإمَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

وأَمَّا الْبَيْعَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهـذَا الْعـهْدِ فَهِىَ تَحِيَّةُ الْمُلُوكِ الْكِسْرَوِيَّةِ ، مِنْ تَقْبِيلِ الأَرْضِ أَوِ الْيَدِ أَوِ الرِّجْلِ أَوِ الذَّيْلِ ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الْبَيْعَةِ ، الَّتى هِىَ الْعَهْدُ عَلَى الـطَّاعَةِ مَجَازًا لَمَّا كَانَ هـذَا الْخُضُوعُ فـى الـتَّحِيَّةِ وَالْتِزَامُ الآدابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعَةِ وَتَوَابِعِهَا ، وَغَلَبَ فِيهِ حَتى صَارتْ حَقِيقِيَّةً عُرْفِيَّةً، وَاسْتَغْنَى بِها عَنْ مُصَافَحَةِ أَيْدِى النَّاسِ ، الَّتـى هِىَ الْحَقِيقَةُ فى الأَصْلِ لِمَا فى الْمُصَافَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ الـتَّنَزُّلِ وَالابْتِذَالِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلرِّئَاسَةِ وَصــوْنِ الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِىِّ ، إلاَّ فـى الأَقَلِّ ، مِمَّنْ يَقْصِدُ الـتَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ ، فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِّهِ وَمَشَاهِيـرِ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ . فَافْهَمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فى الْعُرْفِ ، فَــإِنَّهُ أَكِيـدٌ عَلَى الإنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ ، لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِّ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ ، ولاَ تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثًا وَمَجـانًا ، وَاعْتَبِرْ ذلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ . وَاللهُ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ .

---

(١) روى ابن جرير أن مـالكا حينما قال له بعض من بـايعوا المنصور إن فى أعناقنا بيعـته ، قال : لقد بايعتم مكرهين ، وليس على مستكره يمين ، ولقى بذلك من العنت ما رفع ذكره وأعلى قدره (انظر تعليق د. وافى رقم ٦٥٣ ص ٧٢٠) .

فصل
فى ولاية العهد

إعلَمْ أنَّا قدَّمْنَا الْكَلاَمَ فى الإمَامَةِ وَمَشْروعيـتـهَا ، لِمـا فِيـهـا مِنَ الْمَصلَحَةِ، وَأنَّ حَقِيـقَتَهَا لِلنَّظَرِ فى مَصـالِحِ الأُمـةِ لَدِينِهِمْ وَدُنْيَاهَمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمْ وَالأمِينُ عـلَيْهِمْ ، يَنظُرُ لَهُمْ ذلِكَ فـى حَيَاتِهِ ، وَيَتْبَعُ ذلكَ أنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَيُقِيـمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ ، كَمَا كَانَ هُوَ يَتَوَلاَّهَا ، وَيَثِقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فى ذلِكَ ، كَمَا وَثِقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلَ .

وَقَدْ عُرِفَ ذلكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَانعِقَادِهِ . إذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِى بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُوهُ ، وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِم بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعَنْهُمْ ، وَكَذلِكَ عَهِدَ عُمَرُ فى الـشورَى إلَى السِّتَّةِ بَقِيَةِ[1] الْعَشْرَةِ ، وَجَعَلَ لَهُم أنْ يختاروا لِلْمُسْلمِينَ ، فَفَوَّضَ بَعْضَهُمْ إلَى بَعْضٍ حَتَّى أفْضَى ذلكَ إلَى عَبْدِ الـرَّحْمـنِ بْنِ عَوفٍ ، فَاجْتَهَدَ وَنَاظَرَ الْمُسْلِمِـينَ ، فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِىٍّ ، فَآثَرَ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذلكَ ، لِمُوافَقَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الاقْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فى كُلِّ مَا يَعِنُّ دُونَ اجْتِهَادِهِ . فَانْعَقَدَ أمْرُ عُثْمَانَ لِذلك ، وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ ، وَالْمَلأُ مِنَ الـصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالـثَّانِيَةِ ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ . فَدَلَّ عَلَى

---

(١) أى الذين كانوا باقين على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة .

أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هذَا الْعَهْدِ ، عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيتِهِ . وَالإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ .

ولاَ يُتَّهَمُ الإِمَامُ فى هذَا الأَمْرِ ، وإِنْ عـهِد أَبِيهِ أَوِ ابْنِهِ ، لأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فى حَيَاتِهِ ، فَأَوْلَى أَنْ لاَيَحتَمِل فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ ، خِلاَفًا لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فى الْوَلَدِ والْوَالِدِ . أولِمَنْ خَصَّصَ التُّهَمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوالِدِ ، فَإِنَّهُ بَعِيـدٌ عَنِ الظِّنَّةِ فى ذلِكَ كُلِّهِ ، لاَسِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِيثَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ . فَتَنْتَفِى الظِـنَّةُ فى ذلِكَ رَأْسًا ، كَمَا وَقَعَ فـى عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لابْنِهِ يَزِيـدَ ؛ وَإِنْ كَانَ فِعْلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةً فى الْبَابِ . وَالَّذِى دَعَا مُعَاوِيَةَ لإِيثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ ، إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ الْمَصْلَحَةِ فـى اجْتِمَاعِ النَّاسِ ، وَاتِّفَاقِ أَهْوَائِهِمْ ، بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِى أُمَيَّةَ ، إِذْ بَنـو أُمَيَّةَ يَوْمَئِذ لايَرْضَوْنَ سِوَاهُمْ ، وَهُمْ عِصَابَةُ قُرَيْشٍ ، وَأَهْلُ الْمِلَّةِ أَجْمَعَ ، وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ فَآثَرَهُ بِذلِكَ دُونَ غَيْرِهِ ، مِمَّنْ يُظَنُّ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا ، وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ ، حِرْصًا عَلَى الاتِّفَاقِ وَاجْتِمَاعِ الأَهْوَاءِ الَّذِى شَأْنُهُ أَهَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ . وَإِنْ كَانَ لاَ يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هذَا ، فَعَدَالَتُهُ وَصُحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوى ذلِكَ ، وَحُضورُ أَكَابِرِ الصحَابَةِ لِذلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرِّيَبِ فِيـهِ ، فَلَيْسُوا مِمَّـنْ يَأْخُذُهُمْ فى الْحَقِّ هَوَادَةٌ ،

وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَق ، فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ أَجَلُّ مِنْ ذلِكَ ، وَعَدَالَتَهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ .

وَفِرَارُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ مِنْ ذلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الأُمُورِ مُبَاحًا كَانَ أَوْ مَحْظُورًا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ . وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلاَّ ابنُ الزُّبَيْرِ، وَنُدُورُ الْمُخَالِفِ مَعْرُوفٌ .

ثُمَّ أَنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذلِكَ مِنْ بَعدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ، والسَّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عُرِفَتْ عَدَالَتُهُمْ ، وَحُسْنُ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ .

وَلاَ يُعَابُ عَلَيْهِمْ ، إِيثَارُ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سَنَنِ الْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ ، فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أُولَئِكَ الْخُلَفَاءِ . فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينَ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَكَانَ الْوَازِعُ دِينِيًّا ، فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ ، فَعَهِدُوا إِلَى مَنْ يَرْتَضِيهِ الدِّينُ فَقَطْ ، وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَوَكَلُوا كُلَّ مَنْ يَسْمُوا إِلَى ذلِكَ إِلَى وَازِعِهِ .

وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمِ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ ، فَكَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمُلْكِ وَالْوَازِعُ الدِّينِيُّ قَدْ ضَعُفَ ، وَاحْتِيجَ إِلَى الْوَازِعِ السُّلْطَانِي

وَالْعُصْبَانِي . فَلَوْ عهد إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيه الْعَصَبِيَّةُ لَرَدَّتْ ذلكَ الْعَهْدَ ، وانْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعًا ، وَصَارَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ والاخْتِلاَفِ . سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟ فَقَالَ : لأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالِيَيْنِ عَلَى مِثْلِي ، وَأَنَا الْيَوْمَ وَالٍ عَلَى مِثْلِكَ . يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ الدِّينِ . أَفَلاَ تَرَى إِلَى الْمَأْمُونِ ، لَمَّا عَهِدَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ وَسَمَّاهُ الرِّضَا ، كَيْفَ أَنْكَرَتِ الْعَبَّاسِيَّةُ ذلكَ وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ ، وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ ، وَظَهَرَ مِن الْهَرْجِ وَالْخِلاَفِ وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَّارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ[1] الأَمْرَ ، حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ ، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِه . فَلاَ بُدَّ مِن اعْتِبَارِ ذلكَ فِي الْعَهْدِ . فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الْمَصَالِحِ ، وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ ، لُطْفًا مِنَ اللهِ بِعِبَادِه .

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ التُّرَاثِ عَلَى الأَبْنَاء . فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِّينِيَّةِ ، إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، يَنْبَغِي أَنْ تُحَسَّنَ فِيهِ النِّيَّةُ مَا أَمْكَنَ ، خَوْفًا مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ . وَالْمُلْكُ للهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ .

---

(١) يقطعه ويستأصله .

وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهَا :

فَالأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّام خِلاَفَتِه . فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِم ذلِكَ مِنْ يزِيدَ ، فَإِنَّهُ أَعدَلُ مِنْ ذلكَ وَأَفْضَلُ . بَلْ كَانَ يَعْذِلُه[1] أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ ، وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذلكَ ، وكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً . ولَمَّا حَدَثَ في يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ الْفِسْقِ ، اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ في شَأْنِه : فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْه، وَنَقَضَ بَيْعَتَه مِنْ أَجْلِ ذلكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما وَمَنِ اتَّبَعَهُمَا فِي ذلِكَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاه[2] لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ ، لأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلاَ تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُم ، فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذلِكَ ، وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهِدَايَتِه والرَّاحَةِ مِنْهُ . وَهذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ . وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلاَ يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ . فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحَرِّي الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ . وَفَّقَنَا اللهُ لِلاقْتِدَاءِ بِهِمْ .

---

(١) العذل : الملامة .

(٢) رفض فكرة الخروج عليه .

وَالأَمْرُ الثَّانى هُوَ شَأنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ ، وَمَا تَدَّعِيهِ الشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِىٍّ رضي الله عنه ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِح ، وَلاَ نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ النَّقْلِ . وَالَّذى وَقَعَ فى الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ ، وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذلكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ . وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رضي الله عنه حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فى الْعَهْدِ ، فَقَالَ : إِنْ أَعْهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى، يَعْنِى أَبَا بَكْرٍ ، وَإِنْ أَتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى ، يَعْنِى أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ . وَكَذلكَ قَوْلُ عَلِىٍّ لِلْعَبَّاسِ رضى الله عنهما حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ يَسْأَلاَنِهِ عَنْ شَأنِهِمَا فِى الْعَهْدِ : فَأَبَى عَلِىٌّ مِنْ ذلكَ ، وَقَالَ: إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلاَ نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ . وَهذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلاَ عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ .

وَشُبْهَةُ الإِمَامِيَّةِ فى ذلكَ ، إِنَّمَا هِىَ كَوْنُ الإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، كَمَا يَزْعُمُونَ ، وَلَيْسَ كَذلكَ ، وَإِنَّمَا هِىَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ . وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، لَكَانَ شَأْنُهَا شَأنَ الصَّلاَةِ، وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا ، كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فى الصَّلاَةِ ، وَلَكَانَ يَشْتَهِرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلاَةِ . واحْتِجَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلاَفَةِ أَبِى بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا علَى الصَّلاَةِ فى قَوْلِهِم ارْتَضَاهُ رَسُولُ الله ﷺ لِدِينِنَا أَفَلاَ نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا؟ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ . وَيَدُلُّ ذلكَ أَيْضًا . عَلَى أَنَّ أَمْرَ الإِمَامَةِ وَالْعَهْدِ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا كَمَا هُوَ الْيَوْمَ ، وَشَأنُ الْعَصَبِيَّةِ الْمُرَاعَاةِ فِى

الاجْتِمَاعِ والافْتِرَاقُ فـى مَجَارِى الْعَادَهِ لَمْ يكُنْ يَوْمَئذ بِذلكَ الاعْتبَارِ ، لأنَّ أَمْرَ الـدِّيـنِ وَالإِسْلاَمِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَألـيـفِ الْقُلُوبِ عَلَيْه ، وَاسْتِمَاتَة النَّاسِ دُونَهُ ، وَذلكَ مِنْ أَجَلِّ الأَحْوَالِ الَّتى كَانُوا يشاهـدونها فى حُضُورِ الْمَلائكَة لنَصْرِهِمْ وَتَرَدُّدخَبَرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ ، وتَجَدُّدِ خطابِ الله فى كُل حـادِثَة تُتْلَى عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى مُرَاعَاة الْعَصَبِيَّة لمـا شَمِلَ النَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ الانْقيَادِ وَالإذْعَانِ ، وَمَايَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجزَات الْخَارِقَة ، وَالأَحْوَالِ الإِلـــــهِيَّةِ الْوَاقِعَة ، وَالْمَلائكَة الْمُتَرَدِّدة ، الَّتى وَجَمُوا منْهَا ، وَدُهِشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا . فَكَانَ أَمْرُ الْخلاَفَةِ وَالْمُلْكِ وَالْعَهْدِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَسَائِرِ هَذِهِ الأَنْوَاعِ مُنْدَرِجًا فى ذلِكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ .

فَلَمَّا انْحَسَرَ ذلكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تلْكَ الْمُعْجزَاتِ ثُمَّ بِفَنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا ، فَاسْتَحَالَتْ تلْكَ الصِّبْغَة قَلِيـــلاً قَلِيـــلاً ، وَذَهَبَت الْخَوَارِقُ ، وَصَارَ الْحُكْمُ للْعَادَة كَمَا كَانَ . فَاعْتُبِرَ أَمْرُ الْعَصَبِيَّةِ وَمَجَارِى الْعَوَائِد فِيـــمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ ، وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ وَالْخِلاَفَةُ وَالـعَهْدُ بِهِمَا مُهِمًّا مِنَ الْمُهِمَّاتِ الأَكِيدَة كَمَا زَعَمُوا ، وَلَمْ يكُنْ ذلكَ مِنْ قَبْلِ .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَت الْخلاَفَةُ لعَهْد النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَ مُهِمَّة ، فَلَمْ يَعْهَدْ فيهَا ، ثُمَّ تَدَرَّجَتِ الأَهَمِيَّةُ زَمَانَ الْخلاَفَةِ بَعْضَ الشَّئ ، بِمَا دَعَت الضَّرُورَةُ إِليْه ، فى الْحِمَايَةِ وَالْجِـهَادِ وَشَأنِ الرِّدَّة وَالْفُتُوحَات ، فَكَانُوا بِالْخيَارِ فى الْفعْلِ وَالـتَّرْكِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه ، ثُمَّ صَارَت الْيَوْمَ مِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ

للألْفَة عَلَى الْحِمَايَةِ ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ ، فَاعتُبِرَتْ فِيهَا الْعَصَبِيَّةُ الَّتى هِىَ سِرُّ الوَازِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ ، وَمَنْشَأُ الاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا .

وَالأَمْرُ الثَّالِثُ شَأنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فى الإِسْلاَمِ بينَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ : فَاعْلَمْ أَنَّ اختِلاَفَهمْ إِنَّمَا يَقَعُ فى الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ، وَيَنْشأُ عَنِ الاجْتِهَادِ فى الأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ والْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ . وَالْمُجتَهِدُون إذَا اخْتَلَفُوا، فَإِنْ قُلْنَا : إنَّ الْحَقَّ فى الْمَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِىءٌ ، فَإِنَّ جِهَتَهُ لاَتَتَعَيَّنُ بِإِجْمَاعٍ ، فَيَبْقَى الْكُلُّ عَلَى احْتِمَال الإِصَابَةِ ، ولاَ يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِىءُ مِنْهم ، وَالتَّأثِيمُ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِّ إِجْمَاعًا ؛ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ على حَقٍّ ، وَإِنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ، فَأَحْرَى بِنَفْيِ الْخَطإِ وَالتَّأثِيمِ . وَغَايَةُ الْخِلاَفِ الَّذى بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، أَنَّهُ خِلاَفٌ اجْتِهَادِىٌّ فى مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ ، وَهذَا حُكْمُه .

وَالَّذِى وَقَعَ مِنْ ذلِكَ فى الإِسْلاَمِ إِنَّمَاهُوَ وَاقِعَةُ عَلِىٍّ مَعَ مُعَاوِيَةَ ، وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ ، وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ ، وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِىٍّ ، فَإِنَّ النَّاسِ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ مُفْتَرِقِينَ فى الأَمْصَارِ فَلَمْ يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِىٍّ . وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ ، وَمِنْهُم

مَنْ تَوَقَّفَ ، حتى يَجْتَمِعَ النَّاسُ ، وَيَتَّفِقُوا عَلَى إِمَامٍ كسَعْدٍ وسَعِيدٍ وابن عُمَرَ وأسامة بن زيْدٍ وَالْمُغِيرَةِ بْنِ شعْبَةَ ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ ، وَقُدَامَةَ ابْنِ مَظْعُونٍ ، وَأَبِى سَعِيدِ الْخُدْرِىِّ ، وكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ ، وكَعْب بْنِ مَالِكٍ ، وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، وَحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَمَسْلَمَةَ بْنِ مُخْلد ، وَفُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ ، وَالَّذِينَ كَانُوا فى الأَمْصَارِ ، عَدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضًا إِلَى الطَّلَبِ بَدَمِ عُثْمَانَ ، وَتَرَكُوا الأَمْرَ فَوْضَى ، حتى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمينَ لِمَنْ يُوَلُّونَهُ ، وَظَنُّوا بِعلِىٍّ هَوَادَةً فى السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عُثْمَانَ مَنْ قَاتِلِيه ، لاَ فى الْمُمَالأَةِ عَلَيْهِ ، فَحَاشَ للهِ مِنْ ذلِكَ .

ولَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صَرَّح بِمَلاَمَتِهِ ، إِنَّمَا يُوَجِّهُهَا عَلَيْهِ فى سُكُوتِهِ فَقَطْ . ثُمَّ اختَلَفُوا بَعْد ذلكَ ، فَرَأَى عَلِىٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَد انعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِينَةِ دَارِ النَّبِىِّ ﷺ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ ، وَأَرْجأَ الأَمْرَ فى الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ، وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ ، فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذلِكَ . وَرَأَى الآخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدُ ، لافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بِالآفَاقِ ، وَلَمْ يَحْضُرْ إِلاَّ قَلِيلٌ، وَلاَ تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلاَّ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَلاَ تُلْزِمُ بِعَقْدِ مِنْ تَوَلاَّهَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، أَوْمِنَ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ فَوْضَى ، فَيطَالِبُونَ أَوَّلاً بِدَمِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُونَ عَلَى إِمَامٍ ، وَذَهَبَ إِلَى هَذَا مُعَاوِيَةُ ،

وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ، والـزُّبَيْرُ وَابْنُهُ عَبْدُ الله، وَطَلْحَةُ وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ ، وَسَعْدٌ ، وَسَعِيدٌ ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ خَدِيجٍ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِالْمَدِينَةِ كَمَا ذَكَرْنَا . إِلاَّ أَنَّ أَهْلَ الْعَصْرِ الثَّانِي مِنْ بَعْدِهِمِ اتَّفَقُوا عَلَى انْعِقَادِ بَيْعَةِ عَلِيٍّ ، وَلُزُومِهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، وَتَصْوِيبِ رَأْيِهِ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَتَعْيِينِ الْخَطَإِ مِنْ جِهَةِ مُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْيِهِ ، وَخُصُوصًا طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ ، لانْتِقَاضِهِمَا عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ الْبَيْعَةِ لَهُ فِيمَا نقل مَعَ دَفْعِ التَّأْثِيمِ عَنْ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، كَالشَّأْنِ فِي الْمُجْتَهِدِينَ ، وصَارَ ذلكَ إِجْمَاعًا مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ الثَّانِي ، علَى أَحَدِ قَوْلَى أَهْلِ الْعَصْرِ الأَوَّلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

وَلَقَدْ سُئِلَ عَلِيٌّ ﷺ عَنْ قتلَى الْجَمَلِ وَصِفِّينَ فَقَالَ : وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لاَيَمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْ هؤلاَءِ وقَلْبُهُ نَقِىٌّ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، يُشِيرُ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، نَقَلَهُ الطَّبَرِىُّ وَغَيْرُهُ . فَلاَ يَقَعَنَّ عِنْدَكَ رَيْبٌ فِى عَدَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلاَ قَدْحٌ فِى شَىْءٍ مِنْ ذلك ، فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ ، وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِىَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ ، وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلاَّ قَوْلاً لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عليًا ، لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَلاَ عَرَّجَ عَلَيْهِ .

وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ الإِنْصَافِ ، عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِى شَأْنِ

الاخْتِلاَف فـى عُثْمَانَ ، وَاخْتِلاَف الـصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنـةً ابْتَلَى اللهُ بِهَا الأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَدُوَّهُمْ ، وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهمْ وديَارَهُمْ ، وَنَزَلُوا الأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالـشَّامِ وَمِصْرَ ، وكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هذِهِ الأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلاَ ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيـهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ الْجَفَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالـتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنْ سكِيـنَةِ الإِيمَانِ ، وَإِذَا بِهِـمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ ، قَدْ أَصْبَحُوا فـى مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكِنَانَةَ وَثَقِيف وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِين الأَوَّلِينَ إِلَى الإِيمَانِ ، فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذلِكَ ، وَغَصُّوا بِهِ ، لِمَا يرَوْنَ لأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ ، مِثْلِ قَبَـائِلِ بكْرِ بْنِ وَائِلَ ، وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ وَالأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ ، وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ مِنْ مُضَرَ ، فَصَارُوا إِلَى الْغَضِّ مِنْ قُرَيْشٍ وَالأَنَفَةِ عَلَيْهِمْ ، والتَّمـرِيضِ فى طَاعَتِهِمْ ، وَالتَّعَلُّلِ فـى ذلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ ، وَالاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَالطَّعْنِ فِيـهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السَّوِيَّةِ ، وَالْعَدْلِ فـى الْقَسْمِ عَنِ السَّوِيَّةِ ، وَفَشَتِ الْمَـقَالَةُ بـذلِكَ، وَانْتَهَـتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ ، وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الأَمْصَارِ مَـنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ ، بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ، وَأُسَامَةَ بْن زَيْد وَأَمْثَالَهمْ ، فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الأُمَرَاءِ شَـيْئًا ، وَلاَ رَأَوا عَلَيْهِـمْ طَـعْنـا ، وَأَدَّوا ذلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِـعِ الـطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ

الأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو ، وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عقبَةَ وَهوَ علَى الكُوفة بِشُربِ الْخَمرِ ، وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعةٌ مِنهُمْ ، وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ . ثُمْ جَاءَ إلى الْمدينَة مِنْ أَهلِ الأَمْصَارِ يَسأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَّالِ وَشَكَوا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالـزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعزَلَ لَهُمْ عُثْمَانَ بَعضَ العُمَّالِ ، فَلَمْ تَنْقَطِـعْ بِذلكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ ، فَلَمَّا رَجَع اعتَرَضُوهُ بِالـطَّرِيـقِ ، وَرَدُّوهُ مَعْزُولاً . ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلاَفُ بَيْنَ عُثْمَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الـصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ ، وَنَقَمُوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ ، فَأَبَى إلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى جُرْحَةٍ[1] ، ثُمَّ نَقَلُوا النَّكِيـرَ إِلَى غَيْرِ ذلكَ مِنْ أَفْعَاله ، وَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِالاجْتِهَادِ ، وَهُمْ أَيضًا كَذلكَ ، ثُمَّ تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنَ الْغَوْغَاءِ ، وَجَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ طَلَبَ الـنَّصَفَةِ مِنْ عُثْمَانَ وَهُمْ يُضْمِرُونَ خِلاَفَ ذلكَ مِنْ قَتْله ، وَفِيـهِمْ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَمِصْرَ ، وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذلكَ عَلِيٌّ وَعَائِشَةُ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَغَيْرُهُمْ ، يُحَاوِلُونَ تَسْكِينَ الأُمُورِ ، وَرُجُوعَ عُثْمَانَ إِلَى رَأْيِهِمْ . وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصْرَ ، فَانْصَرَفُوا قليـلا ثُم رَجَعُوا ، وَقَدْ لَبَّسُوا بِكِتَابٍ مُدَلَّسٍ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ لَقُوهُ فِـي يَدِ حَامِله إِلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ، وَحَلَفَ عُثْمَانُ عَلَى ذلكَ ، فَقَالُوا مَكِّنَّا مِنْ مَرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ . فَحَلَفَ مَرْوَانُ ، فَقَالَ : لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هذَا ، فَحَاصَرُوهُ بِدَارِهِ ، ثُمَّ بَيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتَلُوهُ وَانْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ .

---

(١) ما يجرح به ويسقط عدالته .

فَلِكُلٍّ مِنْ هؤلاءَ عُذْرٌ فِيمَا وَقَعَ ، وَكُلُّهم كَانُوا مُهتَمِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ ، وَلاَيُضيعُونَ شَيئًا مِنْ تَعَلُّقَاته ، ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هذَا الْوَاقِعِ وَاجتَهَدُوا ، وَاللهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ ، وَعَالِمٌ بِهِمْ . وَنَحْنُ لاَ نَظُنُّ بِهِمْ إِلاَّ خَيرًا ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ ، وَمَقَالاَتُ الصَّادِقِ .

وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإِنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ يَزِيدَ عِنْدَ الْكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ ، بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُم فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ ، فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيِّنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ ، لاَ سِيَّمَا مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذلِكَ، وظَنَّهَا مِنْ نَفْسِه بِأَهْلِيَّتِه وَشَوْكَتِه، فَأَمَّا الأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةَ. وَأَمَّا الشَّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ اللهُ فِيهَا، لأَنَّ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ، وَعَصَبِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ، تَعْرِفُ ذلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ، وَلاَيُنْكِرُونَهُ. وَإِنَّمَا نُسِيَ ذلك أَوَّلَ الإِسْلاَمِ، لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الذُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرِ الْوَحْيِ ، وَتَرَدُّدِ الْمَلاَئِكَةِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ ، وذَهَبَتْ عَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الْعَصَبِيَّةُ الطَبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالدِّفَاعِ ، يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالدِّينُ فِيهَا مُحكَّمٌ، وَالْعَادَةُ مَعْزُولَةٌ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبوةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهُولَةِ، تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضَ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ فَعَادَتِ الْعَصَبِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلِمَنْ كَانَتْ ، وَأَصْبَحَتْ مُضَرُ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِنْ سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذلِكَ قَبْلُ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ ، إلا أَنَّهُ فى أَمْرٍ دُنْيَوِىٍّ لاَ يضـرُّهُ الْغَلَطُ فيـه ، وأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِىُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فيـه لأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّه ، وكَانَ ظَنُّهُ القـدرة عَلَى ذلكَ ، ولَقَدْ عَذَلَهُ ابْنُ الْعَبَّاسِ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُ فى مَسِيـرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فى ذلكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هو بِسَبِيلِه ، لِمَا أَرَادَهُ اللهُ .

وأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِيـنَ كَانُوا بِالْحِجَازِ ، وَمَعَ يَزِيـدَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ ، فَرَأَوا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيـدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَجُوزُ ، لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرْجِ[1] وَالدِّمَاء ، فَأَقْصَرُوا عَنْ ذلكَ ، وَلَمْ يُتَابِعُوا الْحُسَيْنَ ، وَلاَ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ ، وَلاَ أَثَّمُوهُ ، لأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ، وَهُوَ أُسْوَةُ الْمُجْتَهِدِينَ .

وَلاَ يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْثِيـمَ هؤلاء بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحَـابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَرَوْا الْخُرُوجَ عَلَيـه ، وكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهِدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبِلاَءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّه، وَيَقُولُ : سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله . وَأَبَا سَعِيـد الخُـدْرِيَّ وأَنَسَ بن مالكَ وسَهْلَ بن سعيد وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُمْ ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ ، وَلاَ تَعَرَّضَ لِذلكَ لِعِلْمِه أَنَّهُ عَنِ اجْتِهَاد منهم ، كما كان فعله

---

(١) الفتنة والاضطراب .

عن اجتهـاد منه . وكذلك لايذهب بك الغلط أن تقول بتصـويب قتله لما كـان عَنِ اجْتِهَادٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَاد، وَيَكُونُ ذلِكَ كَمَا يَحُدُّ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ الْحَنَفِيَّ عَلَى شُرْبِ النَّبِيذِ[1] .

وَاعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ كَذلِكَ ، وَقِتَالَهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ اجْتِهَادِ هـؤُلاءِ ، وَإِنْ كَانَ خِلافُهُ عَنِ اجْتِهَادِهِمْ ، وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيـدُ وَأَصْحَابُهُ . وَلاَ تَقُولَنَّ إِنَّ يَزِيدَ وإِنْ كَانَ فَاسِقًا وَلَمْ يُجِزْ هؤلاَءِ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَأَفْعَالُهُ عِنْدَهُمْ صَحِيحَةٌ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْفُذُ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِ مَا كَانَ مَشْرُوعًا ، وَقِتَالُ الْبُغَاةِ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الإِمَامِ الْعَادِلِ ، وَهُوَ مَفْقُودٌ فـي مَسْأَلَتِنَا ، فَلاَ يَجُوزُ قِتَالُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيـدَ وَلاَ لِيَزِيـدَ بَلْ هِيَ مِنْ فَعَلاَتِهِ الْمُؤَكِّدَةِ لِفِسْقِهِ ، وَالْحُسَيْنُ فِيـهَا شَهِيـدٌ مُثَابٌ ، وَهُوَ عَلَى حَقٍّ وَاجْتِهَادٍ ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ يَزِيدَ عَلَى حَقٍّ أَيْضًا وَاجْتِهَادٍ .

وَقَدْ غَلِطَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي هَذَا فَقَالَ فـي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ « بِالْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ » مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ الْحُسَيْنَ قُتِلَ بِشَرْعِ جَدِّهِ؛ وَهُوَ غَلَـطٌ حَمَلَتْهُ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ عَنِ اشْتِرَاطِ الإِمَامِ الْعَادِلِ ؛ وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ الْحُسَيْنِ فِي زَمَانِهِ فِي إِمَامَتِهِ وَعَدَالَتِهِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الآرَاءِ ؟!

---

(١) أى كما يقيم القاضى الشافعى أو المالكى الحد على حنفى شرب النبيذ ، مع أن الحنفى يرى جواز شربه ، لأن القاضى لا يرى ذلك فيعمل برأيه واجتهاده .

وأَمَّا ابنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رأى في قِيَامه ما رآهُ الْحُسَيْنُ ، وَظَنَّ كَمَا ظَنَّ ، وَغَلَطُهُ في أَمْرِ الشَّوْكَةِ أَعْظَمُ . لأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لاَيُقَاوِمُونَ بَنِي أُمَيَّةَ في جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إِسْلاَمٍ . وَالْقَوْلُ بِتَعَيُّنِ الْخَطَأ في جِهَةِ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لاَ سَبِيلَ إِلَيْه ، لأَنَّ الإِجْمَاعَ هُنَالِكَ قَضَى لَنَا بِهِ ، وَلَمْ نَجِدْهُ هَا هُنا . وَأَمَّا يَزِيدُ فَعَيَّنَ خَطَأَهُ فِسْقُهُ . وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً ، وَنَاهِيكَ بِعَدَالَتِه احْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفِعْلِه . وَعُدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ إِلَى بَيْعَتِهِ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ وهم معه بالحجاز ؛ مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعة ابن الزبير لَمْ تَنْعَقِدْ لأَنَّهُ لَمْ يَحْضرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ . وَابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلاَفِ ذلكَ ، والْكُلُّ مُجْتَهِدٌ مَحْمُولٌ عَلَى الْحَقِ في الظَّاهِرِ وَإِنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ في جِهَةٍ مِنْهُمَا ، وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يَجِيءُ عَلَى قَوَاعِدِ الْفِقْهِ وَقَوَانِينِهِ ، مَعَ أَنَّهُ شهيد مُثَابٌ بِاعْتِبَارِ قَصْدِه وتحرِّيه الْحَقَّ .

هذا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابعين ، فَهمْ خِيَارُ الأُمَّةِ . وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقَدْحِ فَمَنِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْعَدالَةِ ؟ والنبي ﷺ يقولُ « خَيْرُ النَّاسِ قرْني . ثُمَّ الَّذين يلونهمْ مرتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ، ثُمَّ يفْشُوا الْكَذِبُ » فَجعل الْخيرةَ وهي الْعدالَةُ مُخْتَصَّةً بالْقَرْنِ الأَوَّل ، والَّذي يليه . فَإِيَّاكَ أَنْ تُعوِّد نَفْسك أَوْ لسانك التَّعرُّض لأَحدٍ منهمْ ، ولاَ يُشَوِّشْ قَلْبُكَ بِالرِّيَبِ في شَيْءٍ مِمَّا وقَع مِنْهمْ والْتمِسْ

لَهُمْ مـذَاهِب الْحقِّ وطُرُقَهُ مـا استَطَعْتَ ، فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِذلكَ ، ومـا اختَلَفُوا إلاَّ عنْ بيِّنَة . ومـا قَاتَلُوا أَوْ قُتلوا إلاَّ فى سبِيلِ جـهاد ، أَوْ إظْهَارِ حق ، واعْتَقِدْ مـع ذلكَ ، أَنَّ اختِلاَفَهم رحْمـــةٌ لمـنْ بعْدهُمْ مِن الأُمَّة، ليـــقْتَدى كُلٌّ واحِد بِمنْ يَخْتَارُهُ مِنْهُمْ إِمَامَهُ وَهَادِيَهُ وَدَليلَهُ . فَافْهَمْ ذلكَ ، وتَبـــيَّنْ حِكْمـةَ اللهِ فـى خَلْقِه وأَكْوانِه ، واعْلَمْ أَنَّهُ علَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وإلَيْه الْملْجأُ والمصير . واللهُ تَعالَى أعْلَمُ .

فصل
فى الخطط الدينية الخلافية

لَمَّا تَبيَّن أَنَّ حقيـقَةَ الْخَلافَةِ نيابةٌ عنْ صاحبِ الشَّرْعِ فى حفْظِ الدينِ وسيـاسةِ الدُّنْيـا ، فصـاحِبُ الشَرْعِ مُتصـرِّفٌ فى الأَمْرَيْنِ : أَمَّا فى الدِّينِ فَبِمُقْتَضَى التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّة ، الَّذى هُو مـأْمُورٌ بِتَبْليـغِهَا ، وحـمْلِ النَّاسِ عَلَيْهَا ؛ وأَمَّا سيـاسـةُ الدُّنْيـا فَبِمُقْتَضَى رِعـايتِه لمـصـالحِهِمْ فى الْعُمْرانِ الْبشَرِىِّ. وقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هذَا الْعُمْرانَ ضَرُورِىٌّ لِلْبشَرِ ، وأَنَّ رِعـايةَ مصالحه كَذلكَ ، لِئَلاَّ يفْسُد إنْ أُهْمِلَتْ ، وقدمْنا أن الْمُلْكَ وَسَطْوَتَهُ كان فى حصول هذه الْمصـالِحِ . نَعمْ إنَّما تَكُونُ أَكْمل ، إذَا كَانَت بالأَحْكَامِ الشَّرْعيَّة لأَنَّهُ أَعلَمُ بِهـذِه الْمـصــالِحِ ، فَقَدْ صـار الْمُلْكُ ينْدرِجُ تَحْتَ الْخلاَفَة إذا كَانَ إسْلاَميًّا ، ويكُونُ مِنْ تَوابِعِهـــا . وقَدْ ينْفَرِدُ إذَا كَانَ فى غَيْرِ الْملَّة . ولَهُ

علَى كُلٍّ حال مراتبُ خَادِمةٌ ووظَائفُ تَابعةٌ ، تَتَعيَّنُ خُطَطًا ، وتَتَوزَّعُ علَى رِجالِ الدَّوْلَةِ وظَائفَ ، فَيَقُومُ كُلٌّ واحِد بِوظيفَتِهِ ، حسْبمَا يُعيِّنُهُ الْملكَ الَّذى تكُونُ يدُهُ عاليةً علَيْهِمْ ، فَيَتِمُّ بِذلكَ أَمْرُهُ ويحْسُنُ قيامه بِسُلْطَانه .
وأَمَّا الْمنصِبُ الْخلاَفِيُّ ، وإِنْ كَانَ الْمُلْكُ يندرجُ تَحْتَهُ بِهـذَا الاعْتبارِ الَّذى ذَكَرْنَاهُ ، فَتَصَرُّفُهُ الدِّينى يخْتَصُّ بخطَط ومَراتبَ لا تُعْرفُ إلاَّ لِلْخُلَفَاءِ الإِسْلاَميِّين فَلْنَذْكُر الآن الْخِطَطَ الدِّينِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْخِلاَفَةِ ، ونَرْجعْ إِلى الْخطَطِ الْمُلُوكيَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ .

فَاعْلَمْ أَنَّ الْخُطَطَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ ، مِن الصَّلاَةِ والْفُتْيَا والْقَضَاء والْجهَادِ والْحِسْبَةِ كُلُّهَا مُنْدرِجةَ تَحْتَ الإِمَامة الْكُبْرى الَّتى هِي الْخَلافَةِ . فَكَأَنَّهَا الإِمَامُ الكَبِيرُ ، والأَصْلُ الْجَامعُ ، وهذِهِ كُلُّهَا مُتَفَرِّعَةٌ عنْهَا ، وداخِلَةٌ فِيهَا لِعُمُومِ نَظَرِ الْخلاَفَةِ ، وتَصرُّفِهَا فى سائِرِ أَحْوالِ الْمِلَّة الدِّينيَّةِ والدُّنْيويَّةِ، وتَنْفيذ أَحكَامِ الشَّرْعِ فِيها علَى الْعُمُومِ .

(فَأَمَّا إمامةُ الصَّلاَةِ) فَهِى أَرْفَعُ هذِهِ الْخطَطِ كُلِّهَا ، وأَرْفَعُ مِن الْمُلْك بِخُصوصِهِ الْمُنْدرِجِ معَهَا تَحْتَ الْخلاَفَةِ . ولَقَدْ يشْهَدُ لِذلكَ اسْتِدْلاَلُ الصَّحابة فى شَأْنِ أَبى بكْرٍ ﷺ باسْتِخْلافه فى الصَّلاَةِ علَى اسْتِخْلاَفه فى السِّياسَةِ فى قَوْلِهِمْ : ارْتضَاهُ رسُولُ الله ﷺ لدِينِنَا ، أَفَلاَ نَرْضَاهُ لِدُنْيانَا؟ فَلَوْلاَ أَنَّ الصَّلاَةَ أَرْفَعُ من السِّياسَةِ لَمَا صحَّ الْقِياسُ . وإِذَا ثَبتَ ذلكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْمساجد فى الْمدينَة صِنْفَانِ : مساجد عظِيمة ، كثِيرةُ الْغَاشِيةِ[1]

مُعدَّةٌ للصلوات الْمشْهودة ؛ وأُخرى دُونَهَا مُخْتَصَّةٌ بِقَوْمٍ أَوْ محلة، ولَيْستَ للصلَوات الْعامَّة فَأَمَّا الْمساجدُ الْعظيمةُ ، فَأَمْرُها راجعٌ إِلَى الْخَليفة ، أوْ منْ يُفَوِّضُ إلَيْه ، مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ مِن وزيرٍ أَوْ قَاضٍ ، فَيَنْصِبُ لَهَا الإِمامُ فى الصَّلَوات الْخَمْسِ والْجُمْعة والْعِيدَيْنِ والْخُسُوفَيْنِ والاسْتسْقَاء . وتَعَيُّنُ ذلكَ إِنَّما هُو مِنْ طَرِيقِ الأَوْلَى والاستحْسانِ ، ولئَلاَّ يفتَاتَ الرَّعَايا علَيْه فى شَيْءٍ من النَّظَرِ ، فى الْمصالِح الْعامَّة . وقَدْ يقُولُ بِالْوُجُوبِ فى ذلكَ منْ يقُولُ بِوُجُوب إِقَامة الْجُمْعة ، فَيكُونُ نَصْبُ الإِمام لَهَا عنْدهُ واجبًا . وأَمَّا الْمساجدُ الْمُخْتَصَّةُ بِقَوْمٍ أَوْ محلَّة فَأَمْرُها راجعٌ إِلَى الْجيرانِ ، ولاَ تَحتَاجُ إِلَى نَظَرِ خَليفَةٍ ولاَ سُلْطَانٍ . وأَحْكَامُ هذه الْوِلاَية ، وشُرُوطِهَا وَالْمُوَلَّى فيها مَعْرُوفَةٌ فى كُتُبِ الْفِقْه ومبْسُوطَةٌ فى كُتُبِ الأَحْكَامِ السلطانية لِلْماورْدِيِّ وغَيْرِه ، فَلاَ نُطَوِّلُ بِذِكْرِها .

ولَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ الأولون لاَ يُقَلِّدُونَهَا لِغَيْرِهِمْ من النَّاسِ ، وانْظُرْ منْ طُعِن مِن الْخُلَفَاءِ فى الْمسْجِد عنْد الأَذَانِ بِالصَّلاَة ، وتَرصُّدهُمْ لِذلكَ فى أَوْقَاتِهَا ، يشْهَدُ لَكَ ذلكَ بِمُباشَرَتِهِمْ لَهَا ، وأَنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا مُسْتَخْلِفِين فِيهَا . وكَذَا رِجَالُ الدَّوْلَة الأُمَوِيَّة مِنْ بعْدِهِم اسْتِئْثَارًا بِهَا واسْتِعْظَامًا لِرُتْبتِهَا. يُحْكَى عنْ عبْدِ الْملك أَنَّهُ قَال لِحاجبه ، قَدْ جعلْتُ لَكَ حجابة

(١) من يغشونها من المصلين .

بآبى إلاَّ عنْ ثَلاَثَة : صاحبِ الطَّعامِ فَإِنَّهُ يفْسُدُ بِالتَّأخيرِ ؛ والأَذَانِ بِالصَّلاَةِ فَإِنَّهُ داعٍ إلَى اللهِ ؛ والْبرِيدِ فَإِنَّ فى تَأخيرِهِ فَساد الْقاصيةِ .

فَلَمَّا جاءَت طَبيعـةُ الْمُلْكِ وعوارِضهُ مِن الْغلْظَةِ ، والتَّرفُّعِ عنْ مُساواةِ النَّاسِ فى دِينِهِمْ ودُنْيـاهُمْ استَنَابُوا فى الصَّلاَةِ فَكَانُوا . يستأثِرُونَ بِهـا فى الأحْيَانِ ، وفى الصَّلَواتِ الْعـامَّةِ ، كَالْعـيدينِ والْجُمْعـةِ إشَارةً وتَنْوِيهًا . فَعل ذلِكَ كَثيرٌ مِنْ خُلَفَاءِ بنى الْعبَّاسِ ، والْعُبيْديِّين صدْر دولَتِهِمْ .

(وأمَّا الْفُتْيا) فَلِلْخَلِيفَةِ تَصفُّحُ أَهْلِ الْعِلْمِ والتَّدْرِيسُ ، وردُّ الْفُتْيا إلَى منْ هُو أَهْلٌ لَهَا وإعـانَتُهُ علَى ذلِكَ ومنْعُ منْ لَيْس أَهْلاً لَهَا وزَجْرُهُ لأَنَّهَا مِنْ مـصـالِحِ الْمُسْلمين فى أَدْيانِهِمْ ، فَتَجِبُ علَيْهِ مُراعـاتُهَا لِئَلاَّ يتَعـرَّضَ لِذلِكَ منْ لَيْس لَهُ بِأَهْلٍ فَيُضِلَّ النَّاس ، ولِلْمُدرِّسِ الانْتِصـابُ لِتَعْلِيم الْعِلْمِ وبثِّهِ والْجُلُوسُ لِذلِكَ فى الْمـساجِدِ ، فَإنْ كَانَتْ مِن الْمسـاجِدِ الْعَظَامِ الَّتى لِلسُّلْطَانِ الْوِلايَةُ علَيْهَا والنَّظَرُ فـى أَئِمَّتِهَا كَمـا مـرَّ فَلاَبُدَّ مِنِ اسْتِئْذَانِه فى ذلِكَ؛ وإِنْ كَانَتْ مِنْ مـساجِدِ الْعـامَّةِ ، فَلاَ يتَوقَّفُ ذلِكَ علَى إِذْنٍ . علَى أَنَّهُ ينْبغِى أَنْ لِكُلٍّ أَحد مِن الْمُفْتِين والْمُدرِّسين زَاجِرٌ مِنْ نَفْسِهِ ، يمْنَعُهُ عنِ التَّصـدِّى لِمَا لَيْس لَهُ بِأَهْلٍ فَيُدِلُّ بِهِ الْمُسْتَهْدِى ويضِلُّ بِهِ الْمُسْتَرْشِدُ . وفى الأَثَرِ : « أَجْرأُكُمْ علَى الْفُتْيا ، أَجْرأُكُمْ علَى جراثِيمِ جهَنَّم » . فَلِلسُّلْطَانِ فِيهِمْ لِذلِكَ مِن النَّظَرِ ما تُوجِبُهُ الْمصلَحةُ مِنْ إجازَةٍ أَوْردّ .

(وأمَّا القَضَاء) فَهُو مِن الوظَائف الدَّاخلَة تَحْتَ الْخلافَة لأنَّهُ منْصبُ الْفَصْلِ بيْن النَّاسِ فى الْخُصُومات حسْمًا للتَّداعِى وقَطْعًا للتَّنازُعِ . إلاَّ أنَّه بالأحْكَام الشَّرْعيَّة الْمُتَلَقَّاة مِن الْكِتَاب والسُّنَّة . فَكَانَ لِذلِكَ مِنْ وظَائف الْخلافَة ، ومُنْدرِجًا فى عُمُومِهَا .

وكَانَ الْخُلَفَاءُ فى صدْرِ الإسْلاَم يُباشِرُونَهُ بأنْفسِهِمْ ، ولا يجعلونَ الْقَضَاءَ إلَى منْ سواهُمْ . وأوَّلُ منْ دفَعهُ إلَى غَيْرِه وفَوَّضَهُ فيه عُمرُ * فَولَّى أبا الدَّرْداء معهُ بِالْمدِينَة ، وولَّى شُرَيْحًا بِالْبصْرة ، وولَّى أبَا مُوسى الأشْعرِىَّ بِالْكُوفَة وكَتَب لَهُ فى ذلكَ الْكِتَاب الْمشْهور الَّذى تَدُورُ علَيْه أحْكَامُ الْقُضَاة ، وهِى مُسْتَوفَاةٌ فيه يقُولُ : « أمَّا بعْدُ ، فَإنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمةٌ ، وسُنَّةٌ متَّبعةٌ ، فَافْهَمْ إذَا أُدْلِىَ إلَيْكَ (وأنْفذْ إذا تَبيَّن لَكَ)[1] فَإنَّهُ لاَ ينْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحقٍّ لاَنَفَاذ لَهُ . وآسِ[2] بيْن النَّاسِ فى وجْهكَ ومجْلِسِكَ وعدْلِكَ حتَّى لاَ يطْمعَ شَرِيفٌ فى حيْفِكَ ، ولاَ ييْأس ضَعيفٌ منْ عدْلِكَ . الْبيِّنَةُ علَى منِ ادعى ، والْيمِينُ علَى منْ أنْكَر . والصُّلْحُ جائِزٌ بيْن الْمُسْلمِينَ إلاَّ صُلْحًا أحلَّ حرامًا أوْ حرَّم حلاَلاً . ولاَ يمْنَعْكَ

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من رواية ابن القيم فى « اعلام الموقعين » عن منشورة د. على عبد الواحد وافى . انظر هامش ص ٧٣٨ ففيه تعليق له أهميته حول كتاب عمر وهل هو صحيح أم موضوع » .

(٢) سو بينهم فى وجهك ؟ بمعنى لا تهش لأحد الخصمين وتعبس فى وجه الآخر فليس هذا من العدل .

قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ أَمْسِ فَراجعْتَ الْيَوْمَ فِيهِ عقلَكَ ، وهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، أنْ تَرْجعَ إِلَى الْحقِّ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ومُراجعةَ الْحق خيرٌ من التَّمادى فى الْباطِلِ . الْفَهْمَ الفَهْمَ فِيما يتلَجْلَجُ فى صدْرِك مِمَّا لَيْس فى كِتَابٍ ولاَ سُنَّة ثُمَّ اعْرِفِ الأَمْثَال والأَشْباه وَقِسِ الأُمُور بِنَظَائِرِها . واجْعلْ لِمنِ ادَّعى حقا غائبًا أَوْ بينةً أَمَدًا ينْتَهِى إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَحْضرَ بيِّنَتَهُ ، أَخَذْتَ لَهُ بحقِّه ، وإِلاَّ استَحْلَلْتَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ ، فَإِن ذلكَ أَنْفَى لِلشَّكِّ ، وأَجْلَى لِلْعَمَى . اَلْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بعْضُهُمْ علَى بعْض إلاَّ مجْلُودًا فى حدٍّ أَوْ مُجرَّبًا علَيْهِ شَهَادةُ زُورٍ ، أَوْ ظَنِّينا فى نَسبٍ أَوْ ولاَء ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ عفَا عنِ الأَيْمان[1] ودرأَ بِالْبيِّنَاتِ . وإِيَّاكَ والْقَلَقَ وَالضَّجَرَ وَالتَّأَفُّفَ بِالْخُصُومِ ، فَإِنَّ استِقْرَارَ الْحَقِّ فى مَوَاطِنِ الْحَقِّ ، يُعَظِّمُ اللهُ بِهِ الأَجْرَ ، ويُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ وَالسَّلاَمُ » . انْتَهى كتَابُ عُمَر .

وَإِنَّمَا كَانُوا يُقَلِّدُونَ الْقَضَاءَ لِغَيْرِهِمْ وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ لِقِيَامِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ ، وَكَثْرَةِ أَشْغَالِهَا مِنَ الْجِهَادِ وَالْفُتُوحَاتِ وَسَدِّ الثُّغُورِ وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ[2] وَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ غَيْرهُمْ لِعِظَمِ الْعِنَايَةِ فَاسْتَخفُّوا الْقَضَاءَ فى الْوَاقِعَاتِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَخْلَفُوا فِيهِ مَنْ يَقُومُ بِهِ

(١) « فى رواية ابن القيم : « فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان » .

(٢) حماية أرض البلاد وما تشتمل عليه .

تَخْفِيفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ . وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُقَلِّدُونَهَ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالنَّسَبِ أَوِ الْوَلاَءِ ، وَلاَ يُقَلِّدُونَهُ لِمنَ بعُدَ عَنْهُمْ فِى ذلِكَ .

وأَمَّا أَحكَامُ هـذَا الْمَنْصِبِ وشُرُوطُه ، فَمــعـــرُوفَةٌ فى كُتُب الْفِقْه وخُصُوصًا كُتُبَ الأَحكَامِ السُّلْطَانِيَّة . إلاَّ أَنَّ الْقَاضَى إِنَّمـا كَانَ فى عصـرِ الْخُلَفَاءِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فَقَطْ . ثُمَّ دُفِع لَهُم بعـــد ذلكَ أُمُورٌ أُخْرى علَى التَّدرِيجِ ، بِحـســب اشْتِغَالِ الْخُلَفَاء والْمُلُوكِ بالسِّيَاسـةِ الْكُبـرى . وَاسـتَقَرَّ منْصِبُ الْقَضَاءِ آخرَ الأَمـرِ علَى أَنَّهُ يَجْمعُ مع الْفَصْلِ بينَ الْخُصُومِ اسْتِيْفَاءَ بعضِ الْحقُوقِ الْعَامَّة لِلْمُسلِمين بِالنَّظَرِ فى أَمـوالِ الْمحـجُورِ علَيهِم من الْمـجـانين والْيـتَامَى والْمُفْلِسِين وأَهلِ السَّفَه وفـى وصـايا الْمُسْلمينَ وأَوقَافِهِم وتَزْوِيجِ الأَيامَى عِنْد فَقْدِ الأَوليـاء علَى رأْيِ من رآهُ ، والنَّظَرِ فى مـصالحِ الطُّرُقَاتِ والأَبنِيـةِ ، وتَصـفُّحِ الشُّهُودِ والأُمنَاء والنُّوَّابِ واستيـفَاء الْعِلْمِ والْخبرةِ فيهِم بِالْعدالَةِ والْجرْحِ[1] لِيَحْصُلَ لَهُ الْوُثُوقُ بِهِم . وصارَتْ هذِهِ كُلُّهَا مِن تَعلُّقَاتِ وظِيفته ، وتَوابِعِ وِلاَيته .

وقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ مِن قَبلُ يجـعلُونَ لِلْقَاضِى النَّظَر فى الْمظَالِمِ ، وهِى وظِيـفَةٌ مُمتَزِجـةٌ مِن سطْوةِ السَّلْطَنَة ونَصفَه الْقَضَاء ، وتَحـتَاجُ إِلَى عُلُوِّ يد وعظِيمِ رهبة تَقْمَعُ الظَّالِم مِن الْخصمينِ ، وتَزْجُرُ الْمُتَعدِّى . وكَأَنَّهُ يُمضِى

(١) ما يؤثر فى عدامة الشاهد ويسقط شهادته .

ما عجزَ الْقُضَاةُ أَو غَيرُهُم عن إمضَائه . ويكُونُ نَظَرُهُ فى الْبيِّنَاتِ والتَّعْزِيرِ، واعتمادِ الأمارات والْقَرائنِ ، وتَأخِيرِ الْحُكْم إلَى استجلاَءِ الْحقِّ، وحملِ الْخَصمينِ علَى الصُّلْحِ ، واستِحلاَفِ الشُّهُودِ . وذلِكَ أوسعُ مِن نَظَر الْقَاضِى .

وكَانَ الْخُلَفَاءُ الأوَّلُونَ يُباشِرُونَهَا بأنْفُسِهِم إلَى أيَّامِ الْمُهْتَدى مِن بنِى الْعبَّاسِ . وربُّما كَانُوا يجعلُونَهَا لقُضَاتِهِم ، كما فَعل عُمرُ * مع قَاضِيه أَبِى أدرِيس الْخولاَنِىِّ ، وكَما فَعلَهُ الْمأمُونُ ليحيى بنِ أَكْثَمَ ، والْمُعتَصِمُ لأحمد بْنِ أَبِى دؤاد . وربَّما كَانُوا يجعلُونَ لِلْقَاضِى قيادة الْجِهَادِ فى عساكِرِ الطَّوائفِ[1] . وكَانَ يحيى بنُ أكْثَمَ يخْرُجُ أيَّام الْمأمُونِ بِالطَّائفَةِ[2] إلَى أَرض الرُّومِ ، وكذَا مُنذِرُ بنُ سعيدٍ قَاضِى عبدِ الرَّحمنِ النَّاصِرِ مِن بنِى أُميَّةَ بالأنْدلُسِ . فكَانَتْ تَولِيةُ هذِهِ الْوظَائفِ ، إنَّما تكُونُ لِلْخُلَفَاءِ ، أو من يجعلُونَ ذلِكَ لَهُ مِن وزِيرٍ مُفَوَّضٍ أو سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ .

وكَان أَيضًا النَّظَرُ فى الْجرائِمِ ، وإقَامةِ الْحُدُودِ فى الدَّولَةِ الْعبَّاسيَّةِ والأمويَّةِ بِالأنْدلُسِ والْعُبيديِّين بِمصر والْمغْرِبِ ، راجعًا إلَى صاحِبِ الشُّرطَةِ . وهِى وظِيفَةٌ أُخْرى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِن الْوظَائفِ الشَّرعيَّةِ فى تِلْكَ

(١) يرجح د. وافى أنها محرفة عن الصوائف جمع صائفة وهى الغزوة فى الصيف .

(٢) انظر التعليق السابق .

الدُّولِ ، تَوسَّعَ النَّظَرُ فِيهَا عن أحكَامِ الْقَضَاءِ قَلِيلاً فَيجعلُ لِلتُّهْمَةِ فى الْحُكْمِ مجالاً ، ويفرِض الْعُقُوباتِ الزَّاجِرَةَ قَبل ثُبُوتِ الْجرائِمِ ، ويُقيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فى محالِّهَا ويحكُمُ فى الْقَوَدِ والْقِصاصِ ويُقِيمُ التَّعزِير[1] والتَّأديبَ فى حقِّ من لَم ينتَهِ عنِ الْجرِيمةِ .

ثُمَّ تُنُوسِى شَأْنُ هاتَيْنِ الْوظِيفتَيْنِ فى الدُّولِ الَّتى تُنُوسِيَ فِيهَا أَمرُ الْخِلافَةِ فَصار أمرُ الْمظَالِمِ رَاجِعًا إِلَى السُّلْطَانِ ، كَانَ لَهُ تَفْوِيضٌ مِن الْخَلِيفَةِ أَو لَم يكُن . وانْقَسمتْ وظِيفةُ الشُّرطَةِ قِسْمينِ : مِنْهَا وظِيفَةُ التُّهْمةِ علَى الْجرائِمِ وإِقَامةُ حُدُودها ومُباشَرَةُ الْقَطْعِ والْقِصاصِ حيثُ يَتعيَّنُ ، ونصِب لِذلكَ فى هذِهِ الدُّولِ حاكِم يحكُمُ فِيهَا بِمُوجِبِ السِّياسة دُونَ مُراجعةِ الأَحكَامِ الشَّرعِيَّةِ ، ويُسمَّى تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِى ، وتَارَةً بِاسْمِ الشُّرطَةِ؛ وبَقِىَ قِسمُ التَّعازِيرِ وإِقَامةِ الْحُدُودِ فى الْجرائِمِ الثَّابِتَةِ شَرعًا ، فَجُمع ذلكَ لِلْقَاضِى معَ مَا تَقَدَّمَ وَصَارَ ذلكَ مِن تَوَابِعِ وَظِيفَةِ وِلايَتِه ، وَاستَقَرَّ الأَمرُ لِهذَا الْعَهْدِ عَلَى ذلكَ ، وَخَرَجَتْ هذِه الْوَظِيفَةُ عَن أَهلِ عَصَبِيَّةِ الدَّولَةِ ، لأَنَّ الأَمرَ لَمَّا كَانَ خِلافَةً دِينِيَّةً ، وَهذِه الْخُطَّةُ مِن مَرَاسِمِ الدِّينِ فَكَانُوا لاَيُوَلُّونَ فِيهَا إِلاَّ مِن أَهلِ عَصَبِيَّتِهِم مِنَ الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِم بِالحِلْفِ أَو بِالرِّقِّ أَو بِالاصطِنَاعِ ، مِمَّن يُوثَقُ بِكِفَايَتِه أَو غَنَائِه ، فِيمَا يُدفَعُ إِلَيهِ . ولَمَّا انْقَرض شَأْنُ الْخِلاَفَةِ وطَورُهَا وَصَارَ الأَمرُ كُلُّهُ مُلْكًا أَو

(١) عقوبة يترك القاضى تقديرها حسب حجم الجريمة وظروفها .

سُلْطَانًا ، صارَتْ هذهِ الْخطط الدِّينيَّةُ بعيدَةً عَنْهُ بعَضَ الشَّيْءِ لأنَّهَا لَيْسَتْ مِن أَلقَابِ الْمُلْكِ ولاَ مراسِمِهِ . ثُمَّ خَرج الأَمرُ جُملَةً مِن الْعَرَبِ ، وصار الْمُلْكُ لِسواهُم مِن أُمَمَ التُّركِ والْبربَرِ ، فازْدادتْ هذه الْخُططُ الْخلاَفيَّةُ بُعْدًا عَنْهُمْ ، بِمنْحاها وعَصَبِيَّتِهَا . وذلكَ أنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يرونَ أنَّ الشَّرِيعَةَ دِينُهُم ، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُم وأَحْكَامَهُ وشَرَائِعَهُ نِحلَتُهُم بينَ الأُممِ وطَرِيقُهم ، وغَيرَهُم لاَ يَرَونَ ذَلكَ ، إنَّما يُولُّونَها جانبًا مِن التَّعْظِيمِ ، لِمَا دَانُوا بِالْمِلَّةِ فَقَطْ . فَصَارُوا يُقَلِّدُونها مِن غَيرِ عِصَابَتِهِم مِمَّن كَانَ تَأَهَّلَ لَها فِى دُوَلِ الْخُلَفَاءِ السَّالِفَةِ .

وكَانَ أُولئكَ الْمُتَأَهِّلُونَ بِمَا أَخَذَهُم تَرفُ الدُّول منذُ مِئتينَ مِن السِّنِين قَدْ نَسُوا عَهْدَ الْبِدَاوةِ وخُشُونَتَها والْتَبَسُوا بِالْحضَارةِ فِى عَوَائدِ تَرفِهِم ودعَتِهِمْ، وقِلَّةِ الْمُمَانعَةِ عَنْ أَنفُسِهِم ، وصارتْ هذه الْخُطَطُ فِى الدُّولِ الْمُلُوكِيَّةِ مِن بَعْدِ الْخُلَفَاءِ مختَصَّةً بهذَا الصِّنفِ مِن الْمُستضْعَفِين فِى أَهلِ الأَمصار ، ونزل أَهلُها عَنْ مراتِبِ الْعِزِّ ، لِفَقْدِ الأَهليَّةِ بِأَنسابِهِم ، وما هُم عَلَيْهِ مِن الْحضَارةِ ، فَلَحِقَهُم مِن الاحتِقَار ما لَحِقَ الْحَضَرَ الْمُنغَمِسين فِى التَّرفِ والدَّعَةِ الْبُعَداءَ عن عَصَبِيَّةِ الْمُلْكِ الَّذين هُم عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ ، وصار اعتِبارُهم فِى الدَّولَةِ مِن أجلِ قِيامِها بِالْمِلَّةِ ، وأَخْذِها بِأَحكَامِ الشَّرِيعةِ لِما أَنَّهُم الحامِلُونَ لِلأَحكَامِ الْمُقْتدُونَ بِها . ولَم يكُن إيثَارُهُم فِى الدَّولَةِ حِينَئذٍ إِكرامًا لِذَواتِهِم ، وإنَّما هُو لِما يُتَلَمَّحُ مِن التَّجمُّلِ بِمكَانِهِم

فِى مجـالسِ الْمُلْك لِتَعْظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرعيَّةِ ، ولَم يكُن لَهُم فِيهَا مِن الْحلِّ والْعَقْد شَىْءٌ ، وإنْ حضرُوهُ فَحضُورٌ رسمِىٌّ ، لاَحقـيقَةَ وراءَهُ . إذْ حقيقَةُ الْحلِّ والْعَقْد إنَّما هِى لأَهلِ الْقُدرةِ عَلَيْهِ . فَمـن لاَ قُدرةَ لَهُ عَلَيهِ فَلاَ حلَّ لَهُ ولاَ عَقْدَ لَديه ، اللَّهُمَّ إلاَّ أَخذُ الأَحكَامِ الـشَّرعـيَّةِ عنْهُم ، وتَلَقِّى الْفَتَاوى منْهُم ، فَنَعَمْ واللهُ الْمُوَفِّقُ ، وربَّما يظُنُّ بـعضُ النَّاسِ أنَّ الْحقَّ فيـما وراءَ ذلكَ ، وأنَّ فعْلَ الْمُلُوكِ فيــــمـــــا فَعَلُوهُ مِن إخْراجِ الْفُقَهَاءِ والْقُضَاةِ مِن الشُّورَى مـرجُوحٌ ، وَقَدْ قَال ﷺ الْعُلَمـاءُ ورثَةُ الأَنْبيـاءِ . فَاعلَمْ أنَّ ذلكَ لَيس كَما ظَنَّهُ . وحُكْمُ الْملِكِ والسُّلطَانِ إنَّما يجرِى علَى ما تَقْتَضِيه طَبِيعَةُ الْعُمرانِ وإلاَّ كَانَ بعِيدًا عنِ السِّياسةِ . فَطَبِيعةُ الْعُمرانِ فى هؤُلاَءِ لا تَقْتَضى لَهُم شَيـئًا مِن ذلِكَ ، لأَنَّ الشّورى والْحـلَّ والْعَقْد لاَ تَكُونُ إلاَّ لِصـاحِبِ عصبيَّةٍ يقْتدِرُ بِهَا علَى حلٍّ أَو عقْدٍ أو فِعْلٍ أو تَركٍ . وأَمَّا من لاَ عصبيَّةَ لَهُ ولاَ يملِكُ مِن أَمرِ نَفْسِهِ شَيـئًا ولاَ من حِمايتِهَا إنَّما هُو عِيالٌ عَلَى غـيرِهِ ، فَأَىُّ مدخَلٍ لَهُ فى الشّورى أو أَىُّ مَعْنًى يدعُو إلَى اعـتبارِهِ فِيهَا . اللَّهُمَّ إلاَّ شُوراهُ فيمـا يعْلَمُهُ مِن الأَحكَامِ الشَّرعِيَّةِ ، فَموجُودةٌ فى الاستِفْتَاءِ خَاصَّةً ؛ وأَمَّا شُوراهُ فِى السِّيـاسـةِ ، فَهُو بعيدٌ عنْهَا لِفُقْدانِهِ الْعَصـبِيَّةَ وَالْقـيام علَى مَعرِفَةِ أَحوالِهَا وأَحكَامِهَا . وإنَّما إكْرامُهُم مِن تبَرعـاتِ الْمُلوكِ والأُمراءِ ، الشَّاهِدةِ لَهُم بِجميلِ الاعـتِقَادِ فى الدِّينِ وتَعْظِيمِ من ينْتَسِبُ إلَيهِ بِأَىِّ جـهةٍ انْتَسب .

وأمَّا قَولُهُ ﷺ الْعُلَماءُ ورثَةُ الأنبيـاءِ فَاعلَم أنَّ الْفُقَهَاءَ فى الأغلَبِ لِهذَا الْعَهْدِ ومـا احتَفَّ بِهِ إنَّمـا حمَّلُوا الشَّرِيعـةَ أقْوالاً فى كَيـفِيَّةِ الأعمـالِ فى الْعِباداتِ وكَيفِيَّةِ الْقَضَاءِ فى الْمُعاملاَتِ يَنُصُّونَهَا علَى من يحتَاجُ إلَى الْعملِ بِهَا . هَذهُ غَايَةُ أكـــابِرهِم ، ولاَ يـتَّصِفُونَ إلاَّ بالأَقَلِّ مِنْهَا وفى بـعضِ الأحْوالِ . والسَّلَفُ رُضْوانُ الله علَيـهِم وأهـلُ الدِّينِ والْورعِ مِن الْمُـسلِمين حملُوا الشَّرِيعـةَ اتِّصافًا بِهَا وتحقُّقًا بِمذَاهِبِهَا . فَمن حـملَهَا اتِّصافًا وتَحقُّقًا دُونَ نَقْلٍ فَهُو مِن الْوارِثِين مِثْلِ أهلِ رِســالَة الْقُشَيْرِى . ومنِ اجــتَمَع لَهُ الأمرانِ فَهُو الْعالِمِ ، وهُو الْوارِثُ علَى الْحقيقَة مِثْل فُقَهَاءِ التَّابِعِين والسَّلَفِ والأئمَّةِ الأربعةِ ومنِ اقْتَفَى طَرِيقَهُم وجاءَ علىَ أثَرِهِم .

وإذَا انفَرد واحِدٌ مِن الأُمَّةِ بِأحـدِ الأمـرِيـنِ فَالْعَابِدُ أحقُّ بِالْوِراثَةِ من الْفقِيهِ الَّذى لَيس بِعابِدٍ لأنَّ الْعابِدَ ورثَ بِصِفَة والْفَقِيهَ الَّذى لَيس بِعابِدٍ لَم يرِثْ شَيـئًا ، إنَّما هُو صـاحِبُ أقْوالٍ يَنُصُّهَا علَيْنَا فى كَيـفِيَّاتِ الْعـملِ . وهـؤُلاَءِ أكْـثَرُ فـقَـهَاءِ عصـرِنَا ﴿ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الـصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[1] .

(العدالة) :

وهِى وظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ تَابِعـةٌ لِلْقَضَاءِ ، ومِنْ موادِّ تَصرِيفِهِ . وحـقِيقَةُ هذِهِ

---

(١) من الآية : ٢٤ من سورة ص

الْوظِيفَةِ الْقِيامُ عن إذْنِ الْقَاضِى بِالشَّهَادةِ بيْن النَّاسِ فِيما لهُمْ وعلَيْهِمْ تَحمُّلاً عِنْد الإِشْهَادِ وأداءً عِنْد التَّنَازُعِ وكَتْبًا فِى السِّجِلاَّتِ تُحْفَظُ بِهِ حُقُوقُ النَّاسِ وأَمْلاكُهُمْ ودُيُونُهُمْ وسائِرُ مُعامَلاَتِهِمْ . وَشَرْطُ هذه الْوَظِيفَةِ الاتِّصَافُ بِالْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْجَرْحِ ثُمَّ الْقِيَامُ بِكَتْبِ السِّجِلاَّتِ ، وَالْعُقُودِ مِنْ جِهَةِ إِحْكَامِ شُرُوطِهَا الشَّرْعِيَّةِ وعُقُودِها فَيحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى ما يَتعلَّقُ بِذلِكَ ، مِن الْفِقْهِ ، ولأَجْلِ هذه الشُّرُوطِ ، وما يحْتَاجُ إِلَيْهِ مِن الْمِرانِ[1] علَى ذلِكَ ، والْمُمارسَةِ لَهُ اخْتَصَّ ذلِكَ بِبعْضِ الْعُدُولِ ، وصار الصِّنْفُ الْقَائِمُونَ بِهِ كَأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْعدالَةِ ولَيْسَ كَذلك . وإِنَّما الْعدالَةُ مِنْ شُرُوطِ اخْتِصاصِهِمْ بِالْوظِيفَةِ .

ويجِبُ علَى الْقَاضِى تَصفّحُ أَحْوالِهِمْ ، والْكَشْفُ عنْ سِيرِهِمْ ، رِعايَةً لِشَرْطِ الْعدالَةِ فِيهِمْ ، وأَنْ لاَيُهْمِل ذلِكَ لِما يتَعيَّنُ علَيْهِ مِنْ حِفْظِ حُقُوقِ النَّاسِ . فَالْعُهْدةُ علَيْهِ فى ذلِكَ كُلِّهِ ، وهُو ضَامِنٌ دَرَكَهُ[2] .

إِذَا تَعيَّن هؤُلاَءِ لِهذِهِ الوَظِيفَةِ عمَّتِ الْفَائدة فى تَعْيِينِ منْ تَخفى عدالَتُهُ علَى الْقُضَاةِ بِسببِ اتِّساعِ الأَمْصارِ واشْتِباه الأَحْوالِ ، واضْطِرارِ الْقُضَاةِ إِلَى الْفَصْلِ بيْن الْمُتَنَازِعِين بِالْبيِّنَاتِ الْموثُوقَةِ ، فَيُعوِّلُونَ غَالبًا فى الْوُثُوقِ بِهَا

(١) المران بكسر الميم التمرن والاعتياد على الشى .
(٢) ضامن تبعته .

علَى هذَا الصِّنْفِ . ولَهُمْ فى سائِرِ الأَمْصارِ دكَاكِينُ ومصاطِبُ يختصون بِالْجُلُوسِ علَيْهَا ، فَيتَعاهدُهُمْ أَصْحابُ الْمُعامِلاَتِ لِلإِشْهَادِ وتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ. وصار مدْلُولُ هذِهِ اللَّفْظَةِ مُشْتَرِكًا بيْنَ هذِهِ الْوظِيفةِ ، الَّتى تَبَيْنَ مدْلُولُها ، وبيْنَ الْعدالَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتى هِى أخْتُ الْجرْحِ .

وقَدْ يتَوارَدانِ ويفْتَرِقَانِ . واللهُ تَعالَى أعْلَمُ .

الحسبة والسكة

(أمَّا الْحِسْبَةُ) فهِى وظِيفَةٌ دينِيَّةٌ ، مِنْ بابِ الأمْرِ بِالْمعْرُوفِ والنَّهْيِ عنِ الْمُنْكَرِ ، الَّذى هُو فَرْضٌ علَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِين ، يُعيِّنُ لِذلِكَ منْ يراهُ أهْلاً لَهُ ، فَيتَعيَّنُ فَرْضُهُ علَيْهِ ، ويتَّخِذُ الأَعْوانَ علَى ذلِكَ ، ويَبْحث عنِ الْمُنْكَراتِ ويُعزِّرُ ، ويُؤَدِّبُ علَى قَدرِها ويحْمِلُ النَّاسَ علَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فى الْمَدِينَةِ مِثْلِ الْمَنْعِ مِنَ الْمُضَايَقَةِ فى الطُّرُقَاتِ ، ومَنْعِ الْحَمَّالِينَ وأَهلِ السُّفُنِ مِنَ الإِكْثَارِ فى الْحَمْلِ ، وَالْحُكْمِ عَلَى هلِ الْمَبَانِى الْمُتَدَاعِيَةِ لِلسُّقُوطِ بِهَدْمِها وإِزَالَةِ ما يتَوقَّعُ مِنْ ضَرَرِها علَى السَّابِلَةِ ، والضَّرْبِ علَى أَيْدى الْمُعلِّمِين فى الْمكَاتِبِ وغَيْرِها فى الإِبْلاغِ[1] فى ضرْبِهِمْ لِلصِّبْيانِ الْمُتَعلِّمِين . ولاَ يتَوقَّفُ حُكْمُهُ علَى تَنَازُعٍ أَوِ اسْتِعْداءٍ ، بلْ لَهُ النَّظَرُ والْحُكْمُ فيما يصِلُ إِلَى عِلْمِهِ مِنْ ذلِكَ ويُرْفَعُ إِلَيْهِ ، ولَيْس لَهُ

---

(١) المبالغة فيه بما يفقد العقوبة غايتها .

إمْضَاءُ الْحُكْمِ فى الدَّعَـاوى مُطْلَقًا ، بلْ فِيمـا يتَعلَّقُ بِالْغِشِّ والتَّدْلِيسِ فى المعايِشِ وَغَيْرِها فى الْمكَايِيلِ والْمـوازِينِ ، ولَهُ أَيْضًا حمْلُ الْمُماطلِين علَى الإنْصـافِ ، وأمْثَالُ ذلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيـهِ سـمـاعُ بيِّنَةٍ ، ولاَ إنْفَاذُ حُكْمٍ . وكَأَنَّهَا أَحْكَامٌ يُنَزَّهُ الْقَاضِى عنْهَا لِعُمُومِهَا وسُهُولَةِ أَغْراضِـــهَا ، فَتُدْفَعُ إلَى صـاحِبِ هذهِ الْوظِيـفَةِ لِيـقُوم بهَا ، فَوضْعُهَا علَى ذلكَ أَنْ تكُونَ خَادمـةً لِمنْصِبِ الْقَضَاءِ ، وقَدْ كَانَتْ فـى كَثـــــيرٍ من الدُّولِ الإسْلاَمِيَّةِ ، مِثْلِ الْعُبَيْدِيين بِمصْرَ والْمـغْربِ ، والأُمويِّين بِالأَنْدلُسِ ، داخِلَةً فى عُمُومِ ولاَيَةِ الْقَاضِى ، يُولِّى فيـهَا باخْتِيـارِهِ . ثُمَّ لَمَّا انْفَردتْ وظِيـفَةُ السـلطان عنِ الْخلاَفَةِ ، وصار نَظَرُهُ عامًّا فى أُمُورِ السِّياسةِ ، انْدرجتْ فى وظائفِ الْمَلِكِ وأُفْرِدتْ بِالْوِلاَيَةِ .

(وَأَمَّا السكَّةُ) فَهِىَ الـنَّظَرُ فى الـنُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بهَا بَيْنَ الـنَّاسِ ، وَحِفْظُهَا ممَّا يُدَاخِـلُهَا منَ الْغِشِّ أَو الـنَّقْص إنْ كَانَ يَتَعَامَلُ بهَا عَدَدًا ، أَوْ مَا يَتَعلَّقُ بذلكَ ، ويُوصَلُ إلَيْهِ منْ جَمِيعِ الاعْتِبَارَاتِ ، ثُمَّ فى وَضْعِ عَلاَمَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالاسْتِجَادَةِ وَالْخُلُوصِ[1] برَسْمِ تلْكَ الْعَلاَمَةِ فيهَا مِنْ خَاتَمٍ حـدِيـدٍ اتُّخِذَ لذلكَ ، ونُقِشَ فِيـهِ نُقُوشٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَيُوضَعُ عَلَى الدِّينَارِ ، بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمطْرَقَةِ ، حَتَّى تُرْسَمَ فــيــه تلْكَ

---

(١) من التزييف والغش .

النُّقُوش ، وَتَكُونُ عَلاَمَةً عَلَى جَوْدَتِهِ بِحَسَبِ الْغَايَةِ الَّتِى وَقَفَ عِنْدَهَا السَّبْكُ وَالتَّخْلِيصُ فِى مُتَعَارِفِ أهل الْقُطْرِ ، وَمَذَاهِبِ الدَّوْلَةِ الْحَاكِمَةِ .

فَإِنَّ السَّبْكَ وَالتَّخْلِيص فِى النُّقُودِ لايَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ ، وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الاجْتِهاد. فإذا وَقَفَ أَهْلُ أُفُقٍ، أَوْ قُطْرٍ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيصِ، وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا يَعْتَبِرُونَ بِهِ نُقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمُمَاثَلَتِه. فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذلكَ كَانَ زَيْفًا .

وَالنَّظَرُ فِى ذلكَ كُلِّه لِصَاحِبِ هذِهِ الْوَظِيفَةِ ، وَهِىَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا الاعْتِبَار، فَتَنْدَرِجُ تَحْتُ الْخِلاَفَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِى عُمُومِ وِلاَيَةِ الْقَاضِى ، ثُمَّ أُفْرِدَتْ لهذَا الْعَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِى الْحِسْبَةِ .

هذَا آخِرُ الْكَلاَمِ فِى الْوَظَائِفِ الْخِلاَفِيَّةِ ، وَبَقِيَتْ مِنْهَا وَظَائِفُ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ مَا يُنْظَرُ فِيهِ ، وَأُخْرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً .

فَوَظِيفَةُ الإِمَارَةِ وَالْوِزارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخَرَاجِ ، صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً تَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِى أَمَاكِنِهَا بَعْدَ وَظِيفَةِ الْجِهَادِ .

وَوَظِيفَةُ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلاَنِه ، إلاَّ فِى قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يُمَارِسُونَهُ ، وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِى السُّلْطَانِيَّاتِ .

وَكَذَا نِقَابَةُ الأنْسَابِ ، الَّتِى يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلاَفَة أَوِ الْحَقِّ فِى بَيْتِ

الْمَالِ ، قَدْ بَطَلَتْ لِدُثُورِ الخـلافة ورسُومِهـا ، وبالْجُمْلَةِ قَدِ انْدَرَجَتْ رُسُومُ الخِلاَفَةِ وَوَظَائِفُهَا فِى رُسُومِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِى سَائِرِ الدُّوَلِ ، لِهَذَا الْعَهْدِ. وَاللهُ مُصَرِّفُ الأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

فصل
فى اللقب بأمير المؤمنين . وأنه من سمات الخلافة . وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وَذلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بُويِـعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ الصـحَابَةِ رضى الله عنهم وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ يُسَمونَه خَلِيفَةَ رسُولِ الله ﷺ ، ولَمْ يَزَلِ الأَمْرُ عَلَى ذلِكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ . فَلَمَّا بُويِع لِعُمَرَ بِعَهْدِهِ إِلَيْهِ ، كـانُوا يَدْعُونَهُ خليفَةَ خَلِيـفَةِ رسُولِ الله ﷺ . وكَأَنَّهُمْ اسْتَثْقَلُوا هذَا اللَّقَبَ بِكَثْرَتِهِ وَطُولِ إِضَافَتِهِ ، وأَنَّهُ يَتَزَايَدُ فِيما بَعْدُ دَائِمًا ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِى إِلَى الْهُجْنَةِ[1] ، ويَذْهَبَ مِنْهُ التَّمْيِيزُ بِتَعَدُّدِ الإِضَافَاتِ وكَثْرَتِهَا فَلاَ يُعْرَفُ فَكَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْ هذَا الـلَّقَبِ إِلَى مَا سِوَاه ، ممَّا يُنَاسِبُهُ ويُدْعَى بِهِ مِثْلُهُ ، وكَانُوا يُسَمُّونَ قُوَّادَ بِاسْمِ الأَمِيـرِ ، وَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الإِمَارَةِ ، وقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيَّةُ يَدْعُونَ النَّبِـىَّ ﷺ أَمِيـرَ مـكَّةَ ، وأَمِيـرَ الْحِجَازِ ، وكَانَ الصَّحَابَةُ أَيْضًا يَدْعُونَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وقـاص أمـيـر المؤمنين لولايته على جَيْشِ الْقَادِسيَّةِ ، وَهُمْ مَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ .

---

(١) الهجنة فى الكلام ما يعيبه .

واتَّفَقَ أَنْ دَعَا بعضُ الصَّحَابَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَحْسَنَهُ النَّاسُ ، وَاسْتَصْوَبُوهُ وَدَعَوْهُ بِهِ . يُقَالُ إِنَّ مَنْ دَعَاهُ بِذلكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَقِيلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، والْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، وَقِيلَ : بَرِيدٌ جاءَ بِالْفَتْحِ مِنْ بعضِ الْبُعُوثِ ، وَدَخَلَ الْمدِينَةَ ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ عُمَرَ ، وَيَقُولُ أَين أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَسَمِعَهَا أَصْحَابُهُ فَاسْتَحْسَنُوهُ ، وقَالُوا : أَصَبْتُ واللهِ اسْمَهُ ، إِنَّهُ وَاللهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا . فَدَعَوْهُ بِذلكَ ، وَذَهَبَ لَقَبًا لَهُ فى النَّاسِ ، وَتَوَارَثَهُ الْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ ، سِمَةٌ لاَ يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُمْ سَائِرَ دَوْلَةِ بَنِى أُمَيَّةَ .

فصل
فى مراتب الملك والسلطان وألقابها

إِعْلَمْ أَنَّ السُّلْطَانَ فى نَفْسِهِ ضَعِيفٌ ، يُحَمَّلُ أَمْرًا ثَقِيلاً ، فَلاَبُدَّ لَهُ مِنَ الاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، وَإِذَا كَانَ يَسْتَعِين بِهِمْ فِى ضَرُورَةِ مَعَاشِهِ وَسَائِرِ مِهنَتِه[1] ، فَمَا ظَنُّكَ بِسِيَاسَةِ نَوْعِهِ ، وَمَنِ اسْتَرْعَاهُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ . وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى حِمَايَةِ الكَافَّةِ مِنْ عَدُوهِمْ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَإِلَى كَفِّ عُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فى أَنْفُسِهِمْ ، بِإِمْضَاءِ الأَحْكَامِ الْوَازِعَةِ فِيهِمْ ، وَكَفِّ الْعُدْوَان عَلَيْهِمْ فى أَمْوَالِهِمْ ، بِإِصْلاَحِ سَابِلَتِهِمْ ، وَإِلَى حَمْلِهِمْ عَلَى

---

(١) المهنة الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم .

مَصَالِحِهِمْ ، وَمَا تَعُمُّهُمْ بِهِ الْبَلْوَى فِـــى مَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلاَتِهِمْ ، مِنْ تَفَقُّدِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِين حَذَرًا مِنَ التَّطْفِيـفِ ، وَإِلَى النَّظَرِ فِى السِّكَّة بِحِفْظِ الـنُّقُود الَّتِـى يَتَعَامـلُونَ بِهَا مِنَ الْغِشِّ ، وَإِلَى سِيَاسَتِهِمْ بِمَا يُرِيـدُهُ مِنْهُمْ مِنَ الانْقِيَادِ لَهُ ، وَالرِّضَى بِمَقَاصِدِهِ مِنْهُمْ ، وَانْفِرَادِهِ بِالْمَجْدِ دُونَهُمْ، فَيَتَحَمَّلُ مِنْ ذلِكَ فَوْقَ الْغَايَةِ مِنْ مُعَانَاةِ الْقُلُوبِ .

قَالَ بَعْضُ الأَشْرَافِ مِنَ الْحُكَمَاءِ : « لَمُعَانَـاةُ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِنِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَاةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ » .

ثُمَّ إِنَّ الاسْتِعَانَةَ إِذَا كَانَتْ بِـــأُولِى الْقُرْبَى ، مِنْ أَهْلِ الـنَّسَبِ ، أَوِ التَّرْبِيَةِ ، أَوِ الاصْطِنَاعِ الْقَدِيمِ لِلدَّوْلـةِ كَانَتْ أَكْمَلَ ، لِمَا يَقَعُ فِى ذلِكَ مِنْ مُجَانَسَةِ خُلُقِهِمْ لِخُلُقِهِ ، فَتَتِمُّ الْمُشَاكَلَةُ فِى الاسْتِعَانَةِ ، قَـــالَ تَعَالَى : ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيــراً مِّنْ أَهْلِي ، هَــارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (١) .

وَهَو إِمَّا أَنْ يَسْتَعِينَ فِـــى ذلِكَ بِسَيْفِهِ أَوْ قَلَمِهِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعَارِفِهِ أَوْ بِحُجَّابِهِ عَنِ النَّاسِ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ فَيَشْغَلُوهُ عَنِ الـنَّظَرِ فِى مُهِمَّاتِهِمْ ، أَوْ يَدْفَعَ النَّظَرَ فِى الْمُلْكِ كُلِّهِ [إليـه](٢) ، وَيُعَوِّلَ عَلَى كِفَايَتِهِ فِـى ذلِكَ ،

(١) الآيات رقم : ٢٩ - ٣٢ من سورة طه .

(٢) فى هامش هذه الـعبارة ص ٧٧٢ ج ٢ من منشورة د. وافى إضافة كلمـة « إليه » كى يستقيم السياق .

وَاضْطلاعه . فَلذلكَ قَدْ تُوجَدُ فى رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ تَفْتَرِقُ فى أَشْخَاصٍ . وَقَدْ يَتَفَرَّعُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنهَا إِلَى فُرُوعٍ كَثِيــــرَةٍ . كَالْقَلَمِ يَتَفَرَّعُ ، إِلَى قَلَمِ الــــرَّسَائِلِ وَالْمُخَاطَبَاتِ ، وَقَلَمِ الـــصُّكُوكِ وَالإِقْطَاعَاتِ ، وَإِلَى قَلَمْ الْمُحَاسَبَاتِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْجِبَايَةِ وَالْعَطَاءِ وَدِيوَانِ الْجَيْشِ . وَكَالسَّيْفِ ، يَتَفَرَّعُ إِلَى : صَاحِبِ الْحَرْبِ ؛ وَصَاحِبِ الشُّرْطَةِ ؛ وَصَاحِبِ الْبَرِيـدِ ؛ وَوِلاَيَةِ الثُّغُورِ .

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ الْوَظَائِفَ السُّلْطَانِيَّةَ فى هذهِ الْمِلَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ مُنْدَرِجَةٌ تَحْتَ الْخِلاَفَةِ ، لاشْـــتِمَالِ مَنْصِبِ الْخِلاَفَةِ عَلَى الدِّيـنِ وَالدُّنْيَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَالأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيـــعِهَا وَمَوْجُودَةٌ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فى سَائِرِ وُجُوهِهَا ، لِعُمُومِ تَعَلُّقِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ ، بِجَمِيعِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ . وَالْفَقِيـهُ يَنْظُرُ فى مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ وَشُرُوطِ تَقْلِيـدِهَا اسْتِبْدَادًا عَلَى الْخِلاَفَةِ ، وَهُوَ مَعْنَى الــسُّلْطَانِ ، أَوْ تَعْوِيــضًا مِنْهَا ، وَهُوَ مَعْنَى الْوِزَارَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَأْتِى ، وَفى نَظَرِهِ فـى الأَحْكَامِ وَالأَمْوَالِ وَســـائِرِ السِّيَاسَاتِ ، مُطْلَقًا أَوْ مُقَيَّدًا، وَفـى مُوجِبَاتِ الْعَزْلِ، إِنْ عَرَضَتْ ، وَغَيْرِ ذلكَ مِنْ مَعَانِى الْمَلِكِ والسلـطان ، وَكَذَا فـى سَائِرِ الْوَظَائِفِ الَّتى تَحْتَ الْمَلِكِ وَالــسُّلْطَانِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ جِبَايَةٍ أَوْ وِلاَيَةٍ ، لاَبُدَّ لِلْفَقِيـــهِ مِنَ النَّظَرِ فـى جَمِيعِ ذلكَ لِمَا قَدَّمْنَاهُ، مِنِ انسِحَابِ حُكْمِ الْخِلاَفَةِ الشَّرْعِيَّةِ فـى الْمِلَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ عَلَى رُتْبَةِ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ .

إلاَّ أنَّ كَلاَمَنَا فِى وَظَائِفِ الْمُلْكِ والسُّلْطَانِ وَرُتَبِه إنَّمَا هُوَ بِمُقْتَضى طَبِيعَةِ الْعمْرَانِ وَوُجُودِ الْبَشَرِ ، لاَ بِمَا يَخُصُّهَا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ ؛ فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا كَمَا عَلِمْتَ ، فَلاَ نَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، مَعَ أَنَّهَا مُسْتَوْفَاةٌ فِى كُتُبِ الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ ، مِثْلِ كِتَابِ الْقَاضِى أَبِى الْحَسَنِ الْمَاوَرْدِىِّ وَغَيْرِهِ من أعْلاَمِ الْفُقَهَاءِ . فَإِنْ أَرَدتَّ اسْتِيفَاءَهَا فَعَلَيْكَ بِمُطَالَعَتِهَا هُنَالِكَ . وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِى الْوَظَائِفِ الْخِلاَفِيَّةِ، وَأَفْرَدْنَاهَا لِنُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوَظَائِفِ السُّلْطَانِيَّةِ فَقَطْ ، لاَ لِتَحْقِيقِ أَحْكَامِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، فَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا . وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِى ذلِكَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ فِى الْوُجُودِ الإِنْسَانِىِّ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ .

(الوزارة) وَهِىَ أُمُّ الْخُطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالرُّتَبِ الْمُلُوكِيَّةِ ، لأَنَّ اسْمَهَا يَدُلُّ عَلَى مُطْلَقِ الإعَانَةِ . فَإِنَّ الْوِزَارَةَ مَأْخُوذَةٌ : إِمَّا مِنَ الْمُؤَازَرَةِ ، وَهِىَ الْمُعَاوَنَةُ ؛ أَوْ مِنَ الْوِزْرِ ، وَهُوَ الثِّقْلُ ، كَأَنَّهُ يَحْمِلُ ، مَعَ مَفَاعِلِه ، أَوْزَارَهُ وَأَثْقَالَهُ ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمُعَاوَنَةِ الْمُطْلَقَةِ .

وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا فِى أَوَّلِ الْفَصْلِ أَنَّ أَحْوَالَ السُّلْطَانِ وَتَصَرُّفَاتِه لاَ تَعْدُو أَرْبَعَةً . لأَنَّهَا :

إِمَّا أَنْ تَكُونَ فِى أُمُورِ حِمَايَةِ الْكَافَّةِ وَأَسْبَابِهَا مِنَ النَّظَرِ فِى الْجُنْدِ وَالسِّلاَحِ وَالْحُرُوبِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَةِ وَالْمُطَالَبَةِ . وَصَاحِبُ هذَا هُوَ الْوَزِيرُ الْمُتَعَارَفُ فِى الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ ، بِالْمَشْرِقِ ، وَلِهذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ .

وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ فى أُمُور مُخَاطَبَاته لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ فِـى أُمُورِ جِبَايَةِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ ، وَضَبْطُ ذلكَ مِنْ جَمِيـعِ وُجُوهِهِ أَنْ يَكُونَ بِمَضْبَطَة . وَصَاحِبُ هذَا هُوَ صَاحِبُ الْمَالِ وَالْجِبَايَةِ ، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالـوزِيرِ ، لِهـــذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِق .

وَإِمَّا أَنْ يـكُونَ فـــى مُدَافَعَةِ الـنَّاسِ ذَوِى الْحَاجَاتِ عَنْهُ أَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَيْهِ، فَيُشْغِلُوهُ عَنْ فَهْمِهِ . وَهذَا رَاجِع لِصَاحِبِ الْبَابِ الَّذِى يَحْجُبُهُ .

فَلاَ تَعْدُو أَحْوَالُهُ هذه الأَرْبَعَةَ[1] بِوَجـه . وَكُلُّ خِطَّة أَوْ رُتْبَة مِنْ رُتَبِ الْمَلكِ وَالسلْطَانِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ . إلاَّ أَنَّ الأَرْفَعَ مِنْهَا مَا كَانَتِ الإِعَانَةُ فِيـــه عَامَّةً فِـيمَا تَحْتَ يد السلْطَانِ ، مِنْ ذلكَ الصِّنْف ، إِذْ هُوَ يَقْتَضِى مُبَاشَـرَةَ السّـــلْطَانِ دَائمًا ، ومُشَارَكَتَهُ فى كُل صِنْف مِنْ أَحْوَالِ مُلْكِه . وَأَمَّا مَا كَانَ خَاصًا بِبَعْضِ الـنَّاسِ ، أَوْ بِبَعْضِ الْجِهَاتِ ، فَيَكُونُ دُونَ الـرُّتْبَةِ الأُخْرَى كَقِيَادَةِ ثَغْرٍ ، أَوْ وِلاَيَة جِبَايَة خَاصَّة ، أَوْ الـــنَّظَرِ فـــى أَمْرٍ خَاصٍّ كَحِسْبَةِ الطَّعَامِ ، أَوِ الـنَّظَرِ فى الـسكَّة ، فَإِنَّ هذه كُلَّهَا نَظَرٌ فـى أَحْوَالٍ خَاصَّة ، فَيَكُونُ صَاحِبُهَا تَبَعًا لأَهْلِ النَّظَرِ الْعَامِّ ، وَتَكُونُ رُتْبَتُهُ مَرْؤُوسَةً لأُولئكَ .

ومَازَالَ الأَمْرُ فـى الـدُّوَلِ قَبْلَ الإِسْلاَمِ هـكَذَا ، حَتَّى جَاءَ الإِسْلاَمُ ، وَصَارَ الأَمْرُ خِلاَفَةً ، فَذَهَبَتْ تِلْكَ الْخُطَطُ كُلُّهَا بِذَهَابِ رَسْمِ الْمُلْكِ إلا[2]

(١) هكذا في الأصل .

(٢) في جميع النسخ « إلى » وهو تحريف لايستقيم معه المعنى

مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ ، مِنَ الْمُعَاوَنَةِ بِالـرَّأى ، وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهِ ، فَلَمْ يُمْكِنْ زَوَالُهُ إِذْ هُوَ أَمْرٌ لاَبُدَّ مِنْهُ . فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ ، وَيُفَاوِضُهُمْ فِـى مُهِمَّاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَيَخُصُّ مَعَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ بِخُصُوصِيَّاتٍ أُخْرَى ، حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ الَّذِيـنَ عَرَفُوا الدُّوَلَ وَأَحْوَالَهَا فِـى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالـنَّجَاشِيِّ، يُسَمُّونَ أَبَا بَكْرٍ وَزِيرَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَفْظُ الْوَزِيرِ يُعْرَفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، لِذَهَابِ رُتْبَةِ الْمُلْكِ بِسَذَاجَةِ الإِسْلاَمِ . وَكَذَا عُمَرُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ ، وَعَلِيٌّ وَعُثْمَانُ مَعَ عُمَرَ .

وَأَمَّا حَالُ الْجِبَايَةِ وَالإِنْفَاقِ ، وَالْحُسْبَانِ فلمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بِرُتْبَةٍ ، لأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَرَبًا أُمِّيِّينَ ، لاَ يُحْسِنُونَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ، فَكَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ فِى الْحِسَابِ أَهْلَ الْكِتَابِ ، أَوْ أَفْرَادًا مِنْ مَوَالِى الْعَجَمِ ، مِمَّنْ يُجِيـــدُهُ ، وَكَانَ قَلِيلاً فِيهِمْ . وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُجِيدُونَهُ ، لأَنَّ الأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِى امْتَازُوا بِهَا . وَكَذَا حَالُ الْمُخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيـــذِ الأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتْبَةً خَاصَّةً لِلأُمِّيَّةِ الَّتِى كَانَتْ فِيــــهِمْ ، والأَمَانَةِ الْعَامَّةِ فِى كِتْمَانِ الْقَوْلِ وَتَأْدِيتِهِ ، وَلَمْ تُحْوِجِ[1] الـسِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ لأَنَّ الْخِلاَفَةَ إِنَّمَا هِى دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمُلْكِيَّةِ فِى شَيْءٍ وَأَيْضًا فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً ، فَـيُسْتَجَادَ لِلْخَلِيـــفَةِ أَحْسَنُهَا لأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ ، بِأَبْلَغِ

(١) فى أكثر النسخ « تخرج » ويأباه السياق .

الْعِبَارَاتِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الْخطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يَسْتَنِيبُ فِى كِتَابَتِهِ ، مَتَى عَنَّ لَهُ مَن يُحسِنُهُ .

وَأَمَّا مُدَافَعَةُ ذَوِى الْحَاجَاتِ عَنْ أَبْوابِهِمْ ، فَكَانَ مَحْظُوراً بِالشَّرِيعَةِ ، فَلَمْ يَفْعَلُوهُ .

فَلَمَّا انقَلَبَتِ الْخِلاَفَةُ إِلَى الْمُلْكِ ، وَجَاءَتْ رُسُومُ السُّلْطَانِ وَأَلْقَابُهُ ، كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بُدِىءَ بِهِ فِى الدَّوْلَةِ شَأنَ الْبَابِ ، وسَدَّهُ دُونَ الْجُمْهُورِ ، بِمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنِ اغْتِيَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِىٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاص وَغَيْرِهِمْ . مَعَ مَا فِى فَتْحِهِ مِنِ ازْدِحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمُهِمَّاتِ ، فَاتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمَّوْهُ الْحَاجِبَ .

وَقَدْ جَاءَ : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلَّى حَاجِبَهُ ، قَالَ لَهُ قَدْ وَلَّيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِى إِلاَّ عَنْ ثَلاثَةٍ : الْمُؤَذِّنِ لِلصَّلاَةِ ، فَإِنَّهُ دَاعِى اللهُ ، وَصَاحِبِ الْبَرِيد ، فَأَمْرٌ مَا جَاءَ بِهِ ، وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِئَلاَّ يَفْسُدَ .

ثُمَّ اسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَظَهَرَ الْمُشَاوِرُ وَالْمُعِينُ فِى أُمُورِ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَاسْتِئْلاَفِهِمْ ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَزِيرِ . وَبَقِىَ أَمْرُ الْحُسْبَان فِى الْمَوَالِى وَالذِّمِّيِّينَ . واتُّخِذَ لِلسِّجِلاَّتِ كَاتِبٌ مَخْصُوصٌ حَوْطَةً عَلَى أَسْرَار السُّلْطَانِ أَنْ تَشْتَهِرَ فَتَفْسُدَ سِيَاسَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَثَابَةِ

الْوَزِيرِ ، لأَنَّهُ إِذَا احْتِيجَ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْخَطُّ وَالْكِتَاب ، لاَ مِنْ حَيْثُ اللِّسَانِ الَّذِى هُوَ الْكَلاَمُ ، إِذِ اللِّسَانُ لِذلكَ الْعَهْدِ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَفْسُدْ . فَكَانَتِ الْوِزَارَةُ لِذلكَ أَرْفَعَ رُتَبِهِم يَوْمَئِذ فِى سَائِرِ دَوْلَةِ بَنِى أُمَيَّةَ . فَكَانَ النَّظَرُ لِلوَزِيرِ عَامًّا فِى أَحْوَالِ التَّدْبِيرِ وَالْمُفَاوَضَاتِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْحِمَايَاتِ ، والْمُطَالَبَاتِ ، وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّظَرِ فِى دِيوَانِ الْجُنْدِ ، وَفَرْضِ الْعَطَاءِ بِالأَهْلِيَّةِ وغَيْرِ ذلكَ .

فَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ بَنِى الْعَبَّاسِ ، وَاسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ وَعَظُمَتْ مَرَاتِبُهُ ، وَارْتَفَعَتْ ، وَعَظُمَ شَأْنُ الْوَزِيرِ وَصَارَتْ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ فِى إِنْفَاذِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، تَعَيَّنَتْ مَرْتَبَتُهُ فِى الدَّوْلَةِ وَعَنَتْ لَهَا الْوُجُوهُ وَخَضَعَتْ لَهَا الرِّقَابُ ، وَجُعِلَ لَهَا النَّظَرُ فِى دِيوَانِ الْحُسْبَانِ لِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ خُطَّتُهُ مِنْ قَسْمِ الأَعْطِيَاتِ فِى الْجُنْدِ ، فَاحْتَاجَ إِلَى النَّظَرِ فِى جَمْعِهِ وَتَفْرِيقِهِ ، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ ، ثُمَّ جُعِلَ لَهُ النَّظَرُ فِى الْقَلَمِ وَالتَّرْسِيلِ لِصَوْنِ أَسْرَارِ السُّلْطَانِ ، وَلِحِفْظِ الْبَلاَغَةِ لِمَا كَانَ السُّلْطَانِ قَدْ فَسَدَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ، وَجُعِلَ الْخَاتَمُ لِسِجِلاَّتِ السُّلْطَانِ لِيَحْفَظَهَا مِنَ الذِّيَاعِ وَالشِّيَاعِ ، وَدُفِعَ إِلَيْهِ . فَصَارَ اسْمُ الْوَزِيرِ جَامِعًا لِخُطَّتَى السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَسَائِرِ مَعَانِى الْوِزَارَةِ وَالْمُعَاوَنَةِ ، حَتى لَقَدْ دُعِىَ جَعْفَرُ ابْنُ يَحْيَى بِالسُّلْطَانِ أَيَّامَ الرَّشِيدِ ، إِشَارَةً إِلَى عُمُومِ نَظَرِهِ وَقِيَامِهِ بِالدَّوْلَةِ . وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ مِنَ الرُّتَبِ السُّلْطَانِيَّةِ كُلِّهَا ، إلاَّ الْحِجَابَةُ الَّتِى هِىَ الْقِيَامُ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ لاسْتِنْكَافِهِ عَنْ مِثْلِ ذلكَ .

ثُمَّ جَاءَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ شَأْنُ الاسْتِبْدَادِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَعَاوَرَ فِيهَا اسْتِبْدَادُ الْوِزَارَةِ مَرَّةً ، وَالسُّلْطَانِ أُخْرَى ، وَصَارَ الْوَزِيرُ إِذَا اسْتَبَدَّ مُحْتَاجًا إِلَى اسْتِنَابَةِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ لِذَلِكَ لِتَصِحَّ الأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ ، وَتَجِيءَ عَلَى حَالِهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ .

فَانْقَسَمَتِ الْوِزَارَةُ حِينَئِذٍ إِلَى وِزَارَةِ تَنْفِيذٍ ، وَهِيَ حَالُ مَايَكُونُ السُّلْطَانُ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَإِلَى وِزَارَةِ تَفْوِيضٍ ، وَهِيَ حَالُ مَا يَكُونُ الْوَزِيرُ مُسْتَبِدًّا عَلَيْهِ . ثُمَّ اسْتَمَرَّ الاسْتِبْدَادُ وَصَارَ الأَمْرُ لِمُلُوكِ الْعَجَمِ ، وَتَعَطَّلَ رَسْمُ الْخِلاَفَةِ . وَلَمْ يَكُنْ لأُولَئِكَ الْمُتَغَلِّبِينَ أَنْ يَنْتَحِلُوا أَلْقَابَ الْخِلاَفَةِ ، وَاسْتَنْكَفُوا مِنْ مُشَارَكَةِ الْوُزَرَاءِ فِي اللَّقَبِ لأَنَّهُمْ خَوَلٌ لَهُمْ فَتَسَمَّوْا بِالإِمَارَةِ وَالسُّلْطَانِ . وَكَانَ الْمُسْتَبِدُّ عَلَى الدَّوْلَةِ ، يُسَمَّى أَمِيرَ الأُمَرَاءِ ، أَوْ بِالسُّلْطَانِ إِلَى مَا يُحَلِّيهِ بِهِ الْخَلِيفَةُ مِنْ أَلْقَابِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي أَلْقَابِهِمْ ، وَتَرَكُوا اسْمَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْ يَتَوَلاَّهَا لِلْخَلِيفَةِ فِي خَاصَّتِهِ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّأْنُ عِنْدَهُمْ إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ . وَفَسَدَ اللِّسَانُ خِلاَلَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَصَارَتْ صِنَاعَةً يَنْتَحِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ ، فَامْتُهِنَتْ وَتَرَفَّعَ الْوُزَرَاءُ عَنْهَا لِذَلِكَ ، وَلأَنَّهُمْ عَجَمٌ ، وَلَيْسَتْ تِلْكَ الْبَلاَغَةُ هِيَ الْمَقْصُودَةَ مِنْ لِسَانِهِمْ ، فَتُخُيِّرَ لَهَا مِنْ سَائِرِ الطَّبَقَاتِ ، وَاخْتُصَّتْ بِهِ ، وَصَارَتْ خَادِمَةً لِلْوَزِيرِ . وَاخْتَصَّ اسْمُ الأَمِيرِ بِصَاحِبِ الْحُرُوبِ وَالْجُنْدِ ، وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا ، وَيَدُهُ مَعَ ذَلِكَ عَالِيَةٌ عَلَى أَهْلِ الرُّتَبِ وَأَمْرُهُ نَافِذٌ فِي الْكُلِّ : إِمَّا نِيَابَةً أَوِ اسْتِبْدَادًا ، وَاسْتَمَرَّ الأَمْرُ عَلَى هَذَا .

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ التُّرْكِ آخِراً بِمِصْرَ ، فَرَأَوا أَنَّ الْوِزَارَةَ قَد ابْتُذِلَتْ بِتَرَفُّعِ أولئك عَنْهَا ، وَدَفْعِهَا لِمَنْ يَقُومُ بِهَا لِلْخَلِيفَةِ الْمَحْجُورِ ، وَنَظَرُهُ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَقَّبٌ بِنَظَرِ الأَمِيرِ فَصَارَتْ مَرْءُوسَةً نَاقِصَةً ، فَاسْتَنْكَفَ أَهْلُ هذه الرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ فى الدَّوْلَةِ عَنِ اسْمِ الْوِزَارَةِ ، وَصَارَ صَاحِبُ الأَحْكَامِ وَالنَّظَرِ فى الْجُنْدِ ، يُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِالنَّائِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، وَبَقِىَ اسْمُ الْحَاجِبِ فى مَدْلُولِهِ وَاخْتُصَّ اسْمُ الْوَزِيرِ عِنْدَهُمْ بِالنَّظَرِ فى الْجِبَايَةِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِى أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ فَأَنِفُوا اسْمَ الْوَزِيرِ فى مَدْلُولِهِ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ قَسَمُوا خُطَّتَهُ أَصْنَافًا ، وَأَفْرَدُوا لِكُلِّ صِنْفٍ وَزِيراً ، فَجَعَلُوا لِحُسْبَانِ الْمَالِ وَزِيرا ، وَلِلتَّرْسِيلِ وَزِيراً ، وَلِلنَّظَرِ فى حَوَائِجِ الْمُتَظَلِّمِينَ وَزِيراً ، وَلِلنَّظَرِ فى أَحْوَالِ أَهْلِ الثُّغُورِ وَزِيراً ، وَجُعِلَ لَهُمْ بَيْتٌ يَجْلِسُونَ فِيهِ عَلَى فُرُشٍ مُنَضَّدَةٍ لَهُمْ ، وَيُنَفِّذُونَ أَمْرَ السُّلْطَانِ هُنَاكَ كُلٌّ فِيمَا جُعِلَ لَهُ، وَأُفْرِدَ لِلتَّرَدُّدِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ارْتَفَعَ عَنْهُمْ بِمُبَاشَرَةِ السُّلْطَانِ فى كُلِّ وَقْتٍ ، فَارْتَفَعَ مَجْلِسُهُ عَنْ مَجَالِسِهِمْ ، وَخَصُّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ . وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ هَذَا إِلَى آخِرِ دَوْلَتِهِمْ ، فَارْتَفَعَتْ خُطَّةُ الْحَاجِبِ وَمَرْتَبَتُهُ عَلَى سَائِرِ الرُّتَبِ حَتى صَارَ مُلُوكُ الطَّوَائِفِ يَنْتَحِلُونَ لَقَبَهَا فَأَكْثَرُهُمْ يَوْمَئِذ يُسَمَّى الْحَاجِبَ كَمَا نَذْكُرُهُ .

ثُمَّ جَاءَتْ دَوْلَةُ الشِّيعَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَالْقَيْرَوَانِ وَكَانَ لِلْقَائِمِينَ بِهَا رُسُوخٌ فى الْبِدَاوَةِ فَاغْفَلُوا أَمْرَ هذه الْخُطَطِ أَوَّلاً وَتَنْقِيحِ أَسْمَائِهَا كَمَا تَرَاهُ فى أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ .

وَلَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ أَغْفَلَتِ الأَمْرَ أَوَّلاً لِلْبِدَاوَةِ ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى انْتِحَالِ الأَسْمَاءِ وَالأَلْقَابِ ، وَكَانَ اسْمُ الْوَزِيرِ فِى مَدْلُولِهِ ، ثُمَّ اتَّبَعُوا دَوْلَةَ الأُمَوِيِّينَ وَقَلَّدُوهَا فِى مَذَاهِبِ السُّلْطَانِ وَاخْتَارُوا اسْمَ الْوَزِيرِ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ فِى مَجْلِسِهِ وَيَقِفُ بِالْوُفُودِ وَالدَّاخِلِينَ عَلَى السُّلْطَانِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِى تَحِيَّتِهِمْ وَخِطَابِهِمْ وَالآدَابِ الَّتِى تَلْزَمُ فِى الْكَوْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرَفَعُوا خُطَّةَ الْحِجَابَةِ عَنْهُ مَا شَاءُوا ، وَلَمْ يَزَلِ الشَّأْنُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ.

وَأَمَّا فِى دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَيُسَمُّونَ هَذَا الَّذِى يَقِفُ بِالنَّاسِ عَلَى حُدُودِ الآدَابِ فِى اللِّقَاءِ وَالتَّحِيَّةِ فِى مَجَالِسِ السُّلْطَانِ وَالتَّقَدُّمِ بِالْوُفُودِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، الدَّوِيدَارَ ، وَيُضِيفُونَ إِلَيْهِ اسْتِتْبَاعَ كَاتِبِ السِّرِّ وَأَصْحَابِ الْبَرِيدِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِى حَاجَاتِ السُّلْطَانِ بِالْقَاصِيَةِ وَبِالْحَاضِرَةِ ، وَحَالُهُم عَلَى ذَلِكَ لِهَذَا الْعَهْدِ . وَاللهُ مُوَلِّى الأُمُورِ لِمَنْ يشَاءُ .

(الحجـابة) قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ هذَا اللَّقَبَ كَانَ مَخْصُوصًا فِى الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ بِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْعَامَّةِ ، وَيُغْلِقُ بَابَهُ دُونَهُمْ أَوْ يَفْتَحُهُ لَهمْ عَلَى قَدَرِهِ فِى مَوَاقِيتِهِ . وَكَانَتْ هذه مَنْزِلَةً يَوْمًا عَنِ الْخُطَطِ مَرْءُوسَةً لَهَا ؛ إِذِ الْوَزِيرُ مُتَصَرِّفٌ فِيهَا بِمَا يَرَاهُ . وَهَكَذَا كَانَتْ سَائِرَ أَيَّامِ بَنِى الْعَبَّاسِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ ، فَهِىَ بِمَصْرَ مَرْءُوسَةٌ لِصَاحِبِ الْخُطَّةِ الْعُلْيَا الْمُسَمَّى بِالنَّائِبِ .

وأمَّا فـي الـدَّولَة الأُمَويّة بالأنْدلُس فكَانَت الْحِجَابَةُ لِمَنْ يَحْجُبُ السُّلْطَانَ عَنِ الْخَاصَّة وَالْعَامَّة ، ويَكُونُ واسِطَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ الْوُزَرَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ . فَكَانَتْ فى دَولَتِهِمْ رَفِيعَةً غَايَةً كَمَا تَرَاهُ فى أَخْبَارِهِمْ ، كَابْنِ حَدِيد وَغَيْرِهِ مِنْ حُجَابِهِمْ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الاسْتِبْدَادُ عَلَى الـدَّوْلَة اخْتُصَّ الْمُسْتَبِدُّ بِاسْمِ الْحِجَابَةِ لِشَرَفِهَا ، فَكَانَ الْمَنْصُورُ بْنُ أَبِـي عَامِرٍ وَأَبْنَاؤُهُ كَذلك . ولَمَّا بَدَاوا فى مَظَاهِرِ الْمُلْكِ وَأَطْوَارِهِ ، جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ، فَلَمْ يَتْرُكُوا لَقَبَهَا ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ شَرَفًا لَهُمْ . وكَانَ أَعْظَمُهُمْ مُلْكًا بَعْدَ انْتِحَالِ أَلْقَابِ الْمُلْكِ وأَسْمَائِهِ ، لابُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الْحَاجِبِ وَذِى الْوِزَارَتَيْنِ ، يَعْنُونَ بِهِ السَّيْفَ وَالْقَلَمَ .

وَيَدُلُّونَ بِالْحِجَابَةِ عَلَى حِجَابَةِ السُّلْطَانِ عَنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَبِذِى الْوِزَارَتَيْنِ عَنْ جَمْعِهِ لِخُطَّتَي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فى دُوَلِ الْمَغْرِبِ وأَفْرِيقِيَّةَ ذِكْرٌ لِهذَا الاسْمِ لِلْبَدَاوَةِ الَّتِى كَانَتْ فِيهِمْ ، وَرُبَّمَا يُوجَدُ فى دَوْلَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهَا وَحَضَارَتِهَا إِلاَّ أَنَّهُ قَلِيلٌ .

ولَمَّا جَاءَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لَمْ تَسْتَمْكِنْ فِيهَا الْحَضَارَةُ الدَّاعِيَةُ إِلى انْتِحَالِ الأَلْقَابِ ، وتَمْيِيزِ الْخطط ، وتَعْيِينِهَا بِالأَسْمَاءِ ، إِلاَّ آخِرًا . فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الرُّتَبِ إِلاَّ الْوَزِيرُ . فَكَانُوا أَوَّلاً يَخُصُّونَ بِهَـذَا الاسْمِ الكَاتِبَ الْمُتَصَرِّفَ الْمُشَارِكَ لِلسُّلْطَانِ ، فـى خَاص أَمْرِهِ كَـابْنِ عَطِيَّةَ وَعَبْدِ السَّلاَمِ الْكُومِىِّ ، وكَانَ لَهُ مَعَ ذلكَ النَّظَرُ فى الْحِسَابِ ، والأَشْغَالِ الْمَالِيَّةِ.

ثُمَّ صَارَ بَعْد ذلِكَ اسْمُ الْوَزِيرِ ، لأهْلِ نَسَبِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، كَابْنِ جَامِعٍ وَغَيْرِهِ . ولَمْ يكنِ اسْمُ الْحَاجِبِ مَعْرُوفًا فى دَوْلَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ .

وأَمَّا بَنو أَبى حَفْص بِأفْرِيقِيَّةَ ، فَكَانَتِ الرِّيَاسَةَ فى دَوْلَتِهِمْ أوَّلاً ، وَالتَّقَدُّمُ لِوَزِيرِ الرَّأىُ وَالْمَشُورَةِ ؛ وكَانَ يُخَصُّ بِاسْمِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ ، وكَانَ لَهُ النَّظَرُ فى الْوِلاَيَاتِ وَالْعَزْلِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ وَالْحُرُوبِ ، واخْتَصَّ الْحُسْبَانُ وَالدِّيوَانُ بِرُتْبَةٍ أُخْرَى ، ويُسَمَّى مُتَوَلِّيهَا بِصاحِبِ الأَشْغَالِ ، يَنْظُرُ فِيهَا النَّظَرَ الْمُطْلَقَ فى الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ، ويُحَاسِبُ ويَسْتَخْلِصُ الأمْوَالَ ، ويُعَاقِبُ عَلَى التَّفْرِيطِ . وكَانَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يكُونَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ .

وَاخْتُصَّ عِنْدَهُمْ الْقَلَمُ أَيْضًا بِمَنْ يُجِيدُ التَّرْسِيلَ ، ويُؤْتَمَنُ عَلَى الأَسْرَارِ ، لأنَّ الْكِتَابَةَ لَمْ تكُنْ مِنْ مُنْتَحَلِ الْقَوْمِ ، ولاَ التَّرْسِيل بِلِسَانِهِمْ ، فَلَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِ النَّسَبُ .

وَاحْتَاجَ السُّلْطَانَ لاتِّسَاعِ مُلْكِهِ وَكَثْرَةِ المرْتَزقِينَ بِدَارِهِ إلى قَهْرَمَان خاصٌ بِدَارِهِ ، فى أَحْوَالِهِ يُجْرِيهَا عَلَى قَدَرِهَا وتَرْتِيبِهَا مِنْ رِزْقٍ وَعَطَاءٍ وكُسْوَةٍ ونَفَقَةٍ فى الْمَطَابِخِ وَالاصْطَبْلاَتِ وغَيْرِهِمَا ، وَحَصْرِ الذَّخِيرةِ ، وتَنْفِيذ مَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ فى ذلِكَ علَى أَهْلِ الْجِبَايَةِ ، فَخَصُّوهُ بِاسْمِ الْحَاجِبِ ، وَرُبَّمَا أَضَافُوا إلَيْهِ كِتَابَةَ الْعَلاَمَةِ عَلَى السِّجِلاَّتِ ، إِذَا اتَّفَقَ أَنَّهُ يُحْسِنُ صِنَاعَةَ الْكِتَابَةِ ، وَرُبَّمَا جَعَلُوهُ لِغَيْرِهِ .

وَاسْتَمَرَّ الأَمْرُ عَلَى ذلِكَ ، وَحَجَبَ السُّلْطَانُ نَفْسَهُ عَنِ النَّاسِ فَصَارَ هذَا الْحَاجِبُ وَاسِطَةً بَيْنَ النَّاسِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الرُّتَبِ كُلِّهِمْ ، ثُمَّ جُمِعَ لَهُ آخِرَ الدَّوْلَةِ السَّيْفُ وَالْحَرْبُ ، ثُمَّ الرَّأْىُ وَالْمَشُورَةُ ، فَصَارَتِ الْخُطَّةُ أَرْفَعَ الرُّتَبِ وَأَوْعَبَهَا لِلْخِطَطِ .

ثُمَّ جَاءَ الاسْتِبْدَادُ وَالْحَجْرُ مُدَّةً مِنْ بَعْدِ السُّلْطَانِ الثَّانِى عَشَرَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ اسْتَبَدَّ بَعْدَ ذلِكَ حَفِيدُهُ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَذْهَبَ آثَارَ الْحَجْرِ وَالاسْتِبْدَادِ بِإِذْهَابِ خُطَّةِ الْحِجَابَةِ الَّتِى كَانَتْ سُلَّمًا إِلَيْهِ ، وَبَاشَرَ أُمُورَهُ كُلَّهَا بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِأَحَدٍ . وَالأَمْرُ عَلَى ذلِكَ لِهذَا الْعَهْدِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ وَأَعْظَمُهَا دَوْلَةُ بَنِى مَرِينَ ، فَلاَ أَثَرَ لاِسْمِ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا رِيَاسَةُ الْحَرْبِ وَالْعَسَاكِرِ فَهِىَ لِلْوَزِيرِ ، وَرُتْبَةُ الْقَلَمِ فِى الْحُسْبَانِ وَالرَّسَائِلِ رَاجِعَةٌ إِلَى مَنْ يُحْسِنُهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِنِ اخْتَصَّتْ بِبَعْضِ الْبُيُوتِ الْمُصْطَنَعِينَ فِى دَوْلَتِهِم ، وَقَدْ تَجْمَعُ عِنْدَهُمْ ، وَقَدْ تُفَرَّقُ .

وَأَمَّا بَابُ السُّلْطَانِ وَحَجْبُهُ عَنِ الْعَامَّةِ ، فَهِىَ رُتْبَةٌ عِنْدَهُمْ ، فَيُسَمَّى صَاحِبُهَا عِنْدَهُمْ بِالْمِزْوَارِ ، وَمَعْنَاهُ ، الْمُقَدَّمُ عَلَى الْجَنَادِرَةِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ السُّلْطَانِ فِى تَنْفِيذِ أَوَامِرِهِ ، وَتَصْرِيفِ عُقُوبَاتِهِ ، وَإِنْزَالِ سَطَوَاتِهِ ، وَحِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِى سُجُونِهِ ، وَالْعَرِيفُ عَلَيْهِمْ فِى ذلِكَ . فَالْبَابُ لَهُ وَأَخْذُ النَّاسِ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ الْحُدُودِ فِى دَارِ الْعَامَّةِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ، فَكَأَنَّهَا وِزَارَةٌ صُغْرَى .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِى عَبْدِ الْوَادِ ، فَلاَ أَثَرَ عِنْدَهُمْ لِشَىْءٍ مِنْ هذِهِ الأَلْقَابِ وَلاَ تَمْيِيزِ الْخُطَطِ ، لِبِدَاوَةِ دَوْلَتِهِمْ وَقُصُورِهَا ، وَإِنَّمَا يَخُصُّونَ بِاسْمِ الْحَاجِبِ فِى بَعْضِ الأَحْوَالِ مُنَفِّذَ الْخَاصِ بِالسُّلْطَانِ فِى دَارِهِ ، كَمَا كَانَ فِى دَوْلَةِ بَنِى أَبِى حَفْصٍ ، وَقَدْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْحُسْبَانَ وَالسِّجِلَّ كَمَا كَانَ فِيهَا . حَمَلَهُمْ عَلَى ذلِكَ تَقْلِيدُ الدَّوْلَةِ بِمَا كَانُوا فِى تَبَعِهَا وَقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهَا مُنْذ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ.

وَأَمَّا أَهْلُ الأَنْدَلُسِ لِهذَا الْعَهْدِ ، فَالْمَخْصُوصُ عِنْدَهُمْ بِالْحُسْبَانِ وَتَنْفِيذِ حَالِ السُّلْطَانِ وَسَائِرِ الأُمُورِ الْمَالِيَّةِ يُسَمُّونَهُ بِالْوَكِيلِ . وَأَمَّا الْوَزِيرُ فَكَالْوَزِيرِ إِلاَّ أَنَّهُ يُجْمَعُ لَهُ التَّرْسِيلُ . وَالسُّلْطَانُ عِنْدَهُمْ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السِّجِلاَّتِ كُلِّهَا فَلَيْسَ هُنَاكَ خُطَّةُ الْعَلاَمَةِ كَمَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ التُّرْكِ بِمِصْرَ ، فَاسْمُ الْحَاجِبِ عِنْدَهُمْ مَوْضُوعٌ لِحَاكِمٍ مِنْ أَهْلِ الشَّوْكَةِ ، وَهُمُ التُّرْكُ يُنَفِّذُ الأَحْكَامَ بَيْنَ النَّاسِ فِى الْمَدِينَةِ ، وَهُمْ مُتَعَدِّدُونَ وَهذِهِ الْوَظِيفَةُ عِنْدَهُمْ تَحْتَ وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ الَّتِى لَهَا الْحُكْمُ فِى أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَفِى الْعَامَّةِ عَلَى الإِطْلاَقِ . وَلِلنَّائِبِ التَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِى بَعْضِ الْوَظَائِفِ عَلَى الأَحْيَانِ ، وَيَقْطَعُ الْقَلِيلَ مِنَ الأَرْزَاقِ وَيُثْبِتُهَا وَتُنْفَذُ أَوَامِرُهُ كَمَا تُنَفَّذُ الْمَرَاسِمُ السُّلْطَانِيَّةُ ، وَكَانَ لَهُ النِّيَابَةُ الْمُطْلَقَةُ عَنِ السُّلْطَانِ . وَلِلْحُجَّابِ الْحُكْمُ فَقَطْ فِى طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ وَالْجُنْدِ عِنْدَ التَّرَافُعِ إِلَيْهِمْ ، وَإِجْبَارِ مَنْ أَبَى الانْقِيَادَ لِلْحُكْمِ ، وَطَوْرُهُمْ تَحْتَ طَوْرِ النِّيَابَةِ . وَالْوَزِيرُ فِى

دَوْلَةِ التُّرْكِ هُوَ صَاحِبُ جِبَايَةِ الأَمْوَالِ فِـى الدَّوْلَةِ عَلَى اخْتِلاَفِ أَصْنَافِهَا مِنْ خَرَاجٍ أَوْ مَكْسٍ أَوْ جِزْيَةٍ ، ثُمَّ فِـى تَصْرِيفِهَا فِـى الإِنْفَاقَاتِ الـسُّلْطَانِيَّةِ أَوِ الْجِرَايَاتِ الْمُقَدَّرَةِ ، وَلَهُ مَعَ ذَلِكَ الـتَّوْلِيَةُ وَالْعَزْلُ فِـى سَائِرِ الْعُمَّالِ الْمُبَاشِرِينَ لِهَذِهِ الْجِبَايَةِ وَالتَّنْفِيذُ عَلَى اخْتِلاَفِ مَرَاتِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ أَصْنَافِهِمْ.

وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَكُونَ هَـذَا الْوَزِيـرُ مِنْ صِنْفِ الْقِبْطِ الْقَائِمِينَ عَلَى دِيـوَانِ الْحُسْبَانِ وَالْجِبَايَةِ لاَخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ فِى مِصْرَ مُنْذُ عُصُورٍ قَدِيمَـةٍ . وَقَدْ يُوَلِّيـهَا الـسُّلْطَانُ بَعْضَ الأَحْيَانِ لأَهْلِ الشَّوْكَةِ مِنْ رِجَالاَتِ التُّرْكِ أَوْ أَبْنَائِهِمْ عَلَى حَسَبِ الدَّاعِيَةِ لِذَلِكَ . وَاللهُ مُدَبِّرُ الأُمُورِ ، وَمُصَرِّفُهَا بِحِكْمَتِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو رَبُّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ .

(ديوان الأعمال والجبايات)

إِعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْوَظِيـفَةَ مِنَ الْوَظَائِفِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْمُلْكِ ، وَهِيَ الْقِيَامُ عَلَى أَعْمَالِ الْجِبَايَاتِ وَحِفْظُ حُقُوقِ الـدَّوْلَةِ فِـى الـدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَإِحْصَاءُ الْعَسَاكِرِ بِأَسْمَائِهِمْ وَتَقْدِيـرُ أَرْزَاقِهِمْ وَصَرْفُ أَعْطِيَاتِهِمْ فِـى إِبَّانَاتِهَا[1] وَالـرُّجُوعُ فِـى ذَلِكَ إِلَى الْقَوَانِينِ الَّتِـى يُرَتِّبُهَا[2] قَوَمَةُ تِلْكَ الأَعْمَالِ ،

---

(١) فى مواعيدها .

(٢) يسنها .

وَقَهَارِمَةُ[1] الدَّوْلَةِ ، وَهِيَ كُلُّهَا مَسْطُورَةٌ ، فِي كِتَابٍ شَاهِدٍ بِتَفَاصِيلِ ذَلِكَ فِي الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ، مَبنِيّ عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْحِسَابِ لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْمَهَرَةُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الأَعْمَالِ ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ الْكِتَابُ بِالدِّيوَانِ ، وَكَذَلِكَ مَكَانُ جُلُوسِ الْعُمَّالِ الْمُبَاشِرِينَ لَهَا .

وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَ هذه التَّسْمِيَةِ أَنَّ كِسْرَى نَظَرَ يَوْمًا إِلَى كُتَّابِ دِيوَانِهِ ، وَهُمْ يَحْسُبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّهُمْ يُحَادِثُونَ ، فَقَالَ : دِيوَانَهْ أَيْ مَجَانِينُ بِلُغَةِ الْفُرْسِ ، فَسُمِّيَ مَوْضِعُهُمْ بِذَلِكَ ، وَحُذِفَتِ الْهَاءُ لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ تَخْفِيفًا فَقِيلَ دِيوَانٌ ، ثُمَّ نُقِلَ هَذَا الإِسْمُ إِلَى كِتَابِ هذه الأَعْمَالِ الْمُتَضَمِّنِ لِلْقَوَانِينِ وَالْحُسْبَانَاتِ .

وَقِيلَ إِنَّهُ اسْمٌ لِلشَّيَاطِينِ بِالْفَارِسِيَّةِ ، سُمِّيَ الْكُتَّابُ بِذَلِكَ لِسُرْعَةِ نُفُوذِهِمْ فِي فَهْمِ الأُمُورِ ، وَوُقُوفِهِمْ عَلَى الْجَلِيِّ مِنْهَا وَالْخَفِيِّ ، وَجَمْعِهِمْ لِمَا شَذَّ وَتَفَرَّقَ ، ثُمَّ نُقِلَ إِلَى مَكَانِ جُلُوسِهِمْ لِتِلْكَ الأَعْمَالِ . وَعَلَى هَذَا فَيَتَنَاوَلُ اسْمُ الدِّيوَانِ كُتَّابَ الرَّسَائِلِ ، وَمَكَانَ جُلُوسِهِم بِبَابِ السُّلْطَانِ عَلَى مَا يَأْتِي بَعْدُ .

وَقَدْ تُفْرَدُ هذه الْوَظِيفَةُ بِنَاظِرٍ وَاحِدٍ ، يَنْظُرُ فِي سَائِرِ هذه الأَعْمَالِ ،

---

(١) جمع قهرمان .. وهو الخادم الخاص . ويفيد السياق أن هؤلاء القهارمة كانوا بمثابة الخبراء في ترتيب تلك القوانين .

وَقَد يُفْرَدُ كُلُّ صِنفٍ مِنهَا بِناظِرٍ ، كَمَا يُفـــرَدُ فِى بَعضِ الدُّوَلِ الـنَّظرُ فِى الْعَسَاكِرِ وَإِقطَاعَاتِهِمْ وَحُسْبانِ أعْطِياتِهِمْ ، أوْ غَيْرِ ذلِكَ عَلَى حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدَّولَةِ وَمَا قَرَّرَهُ أوَلُّوهَا .

وَاعْلَمْ أنَّ هذِهِ الْوَظِيـــفَةَ ، إنَّمَا تَحْدُثُ فـى الدُّوَلِ عِنْدَ تَمكُّنِ الْغَلَبِ وَالاسْتِيلاَءِ ، وَالنَّظَرِ فِى أعْطَافِ الْمُلْكِ وَفُنُونِ التَّمْهِيدِ .

وَأوَّلُ مَنْ وَضَعَ الدِّيوَانَ فِى الدَّوْلَةِ الإسْلاَمِيَّةِ عُمَرُ رضي الله عنه ، يُقَالُ لِسَبَبِ مَالٍ أتَى بِهِ أبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فَاستَكْثَرُوهُ وَتَعِبُوا فـِى قَسْمِهِ ، فَسَمَوْا إلَى إحْصَاءِ الأمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ والْحُقُوقِ فَأشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيـــدِ بِالدِّيوَانِ وَقَالَ رَأيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يُدَوِّنُونَ ، فَقَبِلَ مِنْهُ عُمَرُ .

وَقِيلَ بَلْ أشَارَ عَلَيْهِ بِهِ الْهُرْمُزَانُ[1] لَمَّا رَآهُ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ بِغَيْرِ دِيوَانٍ، فَقِيلَ لَهُ ، وَمَنْ يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ يَغِيبُ مِنْهُمْ ؟ فَإنَّ مَنْ تَخَلَّفَ أخَلَّ بِمكَانِهِ. وَإنَّمَا يَضبُطُ ذلِكَ الْكِتَابُ . فَأثْبَتَ لـهـــم دِيـوَانًا . وَسَألَ عُمَرُ عَنِ اسْمِ الـدِّيوَانِ فَعبَّرَ لَهُ ، وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذلِكَ أمَرَ عَقِيـلَ بْنَ أبِى طَالِبٍ ، وَمَخْرَمَةَ ابْنَ نَوْفَلٍ وَجُبَيْرُ بْنَ مَطْعِمٍ ، وَكَانُوا مِنْ كُتَّابِ قُرَيْشٍ ، فَكَتَبُوا دِيـــــوَانَ الْعَسَاكِرِ الإسْلاَمِيَّةِ ، عَلَى تَرْتِيبِ الأنْسَابِ مُبْتَدأً مِــنْ قَرَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ

(١) يلقب به الكبير من ملوك العجم .

، وَمَا بَعْدَهَا الأَقْرَبُ ، فَالأَقْرَبُ . هكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ دِيوَانِ الْجَيْشِ . وَرَوَى الزُّهرِىُّ عنْ سعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، أَنَّ ذلِكَ كَانَ فِى الْمُحَرَّمِ سَنَةَ عِشْرِينَ .

وَأَمَّا دِيوانُ الْخَرَاجِ وَالْجِبَايَاتِ فَبَقِىَ بَعْدَ الإِسْلاَمِ ، عَلَى مَا كَان عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ : دِيوَان الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ ؛ وَدِيوَان الشَّامِ بِالرُّومِيَّةِ ؛ وَكُتَّابِ الدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .

وَلَمَّا جَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الأَمْرُ مُلْكًا ، وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ الْحَضَارَةِ ، وَمِنْ سَذَاجَةِ الأُمِّيَّةِ إِلَى حِذْقِ الْكِتَابَةِ ، وَظَهَرَ فِى الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِى الْكِتَابِ وَالْحِسبَانِ ، فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعْدٍ وَالِى الأُرْدُنِّ لِعَهْدِهِ ، أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَأَكْمَلَهُ لِسَنَةٍ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ سرْجُونُ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لِكُتَّابِ الرُّومِ اطْلُبُوا الْعَيْشَ فِى غَيْرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ ، فَقَدْ قَطَعَهَا اللهُ عَنْكُمْ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ كَاتِبَهُ صَالِحَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمنِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ، وَلُقِّنَ ذلِكَ عَنْ زَادَانَ فَرُّوخَ كَاتِبِ الْحَجَّاجِ قَبْلَهُ ، وَلَمَّا قُتِلَ زادَانُ فِى حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ الأَشْعَث اسْتَخْلَفَ الْحَجَّاجُ صَالِحًا هذَا مَكَانَهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقل الدِيوَانَ من الْفَارِسِيَّةِ إِلى الْعَرَبِيةِ فَفَعَل ، وَرَغِمَ لِذلِكَ كُتَّابَ الْفُرس . وَكَانَ عَبدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحيَى يقُولُ للهِ دَرُّ صَالِحٍ مَا أَعْظَمَ مِنَّتَهُ عَلَى الْكُتَّابِ .

ثُمَّ جُعِلَتْ هذِهِ الْوَظِيفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ ، وَبَنِي سَهْلِ بنِ نُوبَخْتَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ .

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهذِهِ الْوَظِيفَةِ مِنَ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْجَيْشِ، أَوْ بَيْتِ الْمَالِ فِي الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ ، وَتَمْيِيزِ النَّوَاحِي بِالصلْحِ وَالْعَنْوَةِ ، وَفِي تَقْلِيدِ هذِهِ الْوَظِيفَةِ لِمَنْ يَكُونُ ، وَشُرُوطِ النَّاظِرِ فِيهَا وَالْكَاتِبِ ، وَقَوَانِينِ الْحُسْبَانَاتِ ، فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَالِكَ ، وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلاَمِ فِيهِ . وهذِهِ الْوَظِيفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُلْكِ ، بَلْ هِيَ ثَالِثَةُ أَرْكَانِه لأَنَّ الْمُلْكَ لاَبُدَّ لَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ ، فَاحْتَاجَ صَاحِبُ الْمُلْكِ إِلَى الأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السَّيْفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ وَأَمْرِ الْمَال ، فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُهَا لذلك بِجُزْءٍ مِنْ رِيَاسَةِ الْمُلْكِ . وَكَذلِكَ كَانَ الأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ وَالطَّوَائِف بَعْدَهُمْ.

وَأَمَّا فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِين فَكَانَ صاحِبُهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، يَسْتَقِلُّ بِالنَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ الأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَضَبْطِهَا ، وَتَعَقُّبِ نَظَرِ الْوُلاةِ

وَالْعُمَّالِ فِيهَا ، ثُمَّ تَنْفِيذِهَا عَلَى قَدَرِهَا ، وَفِى مَوَاقِيتِهَا ، وَكَانَ يُعْرَفُ بِصَاحِبِ الأَشْغَالِ .

وَكَانَ رُبَّمَا يَلِيهَا فِى الْجِهَاتِ غَيْرُ الْمُوَحِّدِينَ مِمَّنْ يُحْسِنُهَا .

وَلَمَّا اسْتَبَدَّ بَنُوا أَبِى حَفْص بِأَفْرِيقِيَّةَ ، وَكَانَ شَأْنُ الْجَالِيَةِ مِنَ الأَنْدَلُسِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْبُيُوتَاتِ ، وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ يَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِى الأَنْدَلُسِ ، مِثْلَ بَنِى سَعِيد ، أَصْحَابِ الْقَلْعَةِ ، جِوَارَ غِرْنَاطَةَ الْمَعْرُوفِينَ بِبَنِى أَبِى الْحَسَنِ ، فَاسْتَكْفَوا بِهِمْ فِى ذَلِكَ ، وَجَعَلُوا لَهُمْ النَّظَرَ فِى الأَشْغَالِ كَمَا كَانَ لَهُمْ بِالأَنْدَلُس ، وَدَالُوا[1] فِيهَا بَيْنَهم وَبَيْنَ الْمُوحدين ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِهَا أَهْلُ الْحُسْبَانِ وَالْكُتَّابِ ، وَخَرَجَتْ عَنِ الْمُوَحِّدِينَ ثُمَّ لَمَّا اسْتَغْلَظَ أَمْرُ الْحَاجِبِ ، وَنَفَذَ أَمْرُهُ فِى كُلِّ شَأنٍ مِنْ شُئُونِ الدَّوْلَةِ ، تَعَطَّلَ هَذَا الرَّسْمُ وَصَارَ صَاحِبُهُ مَرووسًا لِلْحَاجِبِ ، وَأَصْبَحَ مِنْ جُمْلَةِ الْجُبَاةِ ، وَذَهَبَتْ تِلْكَ الرِّيَاسَةُ الَّتِى كَانَتْ لَهُ فِى الدَّوْلَةِ .

وَأَمَّا دَوْلَةُ بَنِى مَرِيْنَ ، لِهَـذَا الْعَهْدِ فَحُسْبَانُ الْعَطَاءِ وَالْخَرَاجِ مَجْمُوعٌ لِوَاحِدٍ ، وَصَاحِبُ هَذِه الرُّتْبَةِ هُوَ الَّذِى يُصَحِّحُ الْحُسْبَانَاتِ كُلَّهَا ، وَيَرْجِعُ إِلَى دِيوَانِه وَنَظَرُهُ مُعَقَّبٌ بِنَظَرِ السُّلْطَانِ ، أَوِ الْوَزِيرِ ، وَخَطُّهُ مُعْتَبَرٌ فِى صِحَّةِ الْحُسْبَانِ فِى الْخَارِجِ وَالْعَطَاءِ .

---

(١) تداولوها فيما بينهم .

وَأَمَّا هذِه الـرُّتْبَةُ فِى دَوْلَةِ التُّرْكِ ، فَمُتَنَوِّعَةٌ . وَصَاحِبُ دِيوَانِ الْعَطَاءِ يُعْرَفُ بِنَاظِرِ الْجَيْشِ وَصَاحِبُ الْمَالِ مَخْصُوصٌ بِاسْمِ الْوَزِيرِ ، وَهُوَ النَّاظِرُ فِى دِيوَانِ الْجِبَايَةِ الْعَامَّةِ للـدَّوْلَةِ ، وَهُوَ أَعْلَى رُتَبِ النَّاظِرِينَ فِى الأَمْوَالِ ، لأَنَّ النَّظَرَ فِى الأَمْوَالِ عِنْدَهُمْ يَتَنَوَّعُ إِلَى رُتَبٍ كَثِيـرَةٍ ، لانْفِسَاحِ دَوْلَتِهِمْ ، وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ الأَمْوَالِ وَالْجِبَايَاتِ عَنْ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِضَبْطِهَا الْوَاحِدُ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَوْ بَلَغَ فِـى الْكِفَايَةِ مَبَالِغَهُ . فَتَعَيَّنَ لِلنَّظَرِ الْعَامِّ مِنْهَا هذَا الْمَخْصُوصَ بِاسْمِ الْوَزِيرِ .

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَدِيفٌ لِمَوْلَى مِنْ مَوَالِى الـسُّلْطَانِ وَأَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَأَرْبَابِ السيـوفِ فِى الدَّوْلَةِ يَرْجِعُ نَظَرُ الْوَزِيرِ إِلَى نَظَرِهِ وَيَجْتَهِدُ جُهْدَهُ فِى مُتَابَعَتِهِ، وَيُسَمَّـى عِنْدَهُمْ أُسْتَاذَ الـدَّوْلَةِ ، وَهُوَ أَحَدُ الأُمَرَاءِ الأَكَابِرِ فـى الـدَّوْلَةِ مِنَ الْجُنْدِ ، وَأَرْبَابِ الـسُّيُوفِ . وَيَتْبَعُ هـذِهِ الْخُطَّةَ خُطَطٌ عِنْدَهُمْ أُخْرَى كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الأَمْوَالِ وَالْحُسْبَانِ ، مَقْصُورَةُ النَّظَرِ إِلَى أُمُورٍ خَاصَّةٍ مِثْـلِ نَاظِرِ الْخَاصِّ وَهُوَ الْمُبَاشِرُ لأَمْوَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصَّةِ بِهِ مِنْ إِقْطَاعَاتِهِ أَوْ سُهْمَانِهِ[1] مِنْ أَمْوَالِ الْخَرَاجِ وَبِلاَدِ الْجِبَايَةِ ، مِمَّا لَيْسَ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ ، وَهُوَ تَحْتَ يَدِ الأَمِيرِ أُسْتَاذِ الدَّارِ .

وَإِنْ كَانَ الْوَزِيرُ مِنَ الْجُنْدِ فَلاَ يَكُونُ لأُسْتَاذِ الـدَّارِ نَظَرٌ عَلَيْهِ . وَنَاظِرُ

---

(١) جمع سهم .

الْخَاصُ تَحْتَ يَدِ الْخَازِنِ لأَمْوَالِ السُّلْطَانِ مِنْ مَمَالِيكِهِ الْمُسَمَّى خـازِنَ الدَّارِ لاخْتِصَاصِ وَظِيفَتِهِمَا بِمَالِ السُّلْطَانِ الْخَاصِّ .

هـذَا بَيَانُ هذهِ الْخـطَّةِ ، بِدَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ ، بَعْدَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَمْرِهَا بَالْمَغْرِبِ . وَاللهُ مُصَرِّفُ الأُمُورَ لاَرَبَّ غَيْرُهُ .

ديوان الرسائل والكتابة

هَذِهِ الوَظِيـفَةِ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ فِى الْمُلْكِ لاسْتِغْنَاءِ كَثِيـرٍ مِنَ الدُّوَلِ عَنْهَا رَأسًا كَمَا فِى الدول الْعَرِيقَةِ فِى الْبِدَاوَةِ الَّتـى لم يَأخُذْهَا تَهْذِيبُ الْحِضـارَةِ وَلاَ اسْتِحْكَامُ الصَّنَائِعِ .

وَإِنَّمَا أَكَّدَ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِى الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ ، شَأنُ اللِّسَانِ الْعَرَبِى ، وَالْبَلاَغَةُ فِى الْعِبَارَةِ عنِ الْمَقَاصِدِ ، فَصَارَ الْكِتَابُ يُؤَدِّى كُنْهَ الْحَاجَةِ بِأبْلَغَ مِنَ الْعِبَارَةِ اللِّسَانِيَّةِ فِى الأَكْثَرِ . وَكَانَ الكَاتِبُ لِلأَمِيرِ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ نَسَبِهِ، وَمِنْ عُظَمَاءِ قَبِيلِهِ ، كَمَا كَانَ لِلْخُلَفَاءِ وَأُمَرَاءِ الصَّحَابَةِ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ لِعِظَمِ أَمَانَتِهِمْ وَخُلُوصِ أَسْرَارِهِمْ .

فَلَمَّا فَسَدَ اللِّسَانُ وَصَارَ صِنَاعَةً اخْتُصَّ بِمَنْ يُحْسِنُهُ . وَكَانَتْ عِنْدَ بَنِى الْعَبَّاسِ رَفِيـعَةً وَكَانَ الْكَاتِب يُصْدِرُ السِّجِلاَّت مُطْلَقَةً ، وَيُكْتَبُ فِى آخـرِهَا اسـمُهُ وَيَخْتِمُ عَلَيـهَا بِخَاتَمِ الـسُّلْطَانِ وهُوَ طَابِعٌ مَنْقُوشٌ فِيـهِ اسْمُ السُّلْطَانِ

أوشَارَتُهُ يُغْمَسُ فِى طِينٍ أَحْمَرَ مُذَابٍ بِالْمَاءِ ويُسَمَّى طِينَ الْخَتْمِ ، ويُطْبَعُ بِهِ عَلَى طَرَفِى السِّجِلِّ عِنْدَ طَيِّهِ وإِلْصَاقِه .

ثُمَّ صَارَتِ السِّجِلاَّتُ مِنْ بَعْدِهِمْ تُصَدَّرُ بِاسْمِ السُّلْطَانِ ، وَيَضَعُ الْكَاتِبُ فِيهَا عَلاَمَتَهُ أَوَّلا أَوْ آخِراً ، عَلَى حَسَبِ الاخْتِيَارِ فِى مَحَلِّهَا وفِى لَفْظِهَا . ثُمَّ قَدْ تَنْزِلُ هذِهِ الْخِطَّةُ بِارْتِفَاعِ الْمَكَانِ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِغَيْرِ صَاحِبِهَا، مِنْ أَهْلِ الْمَرَاتِبِ فِى الدَّوْلَةِ ، أَوِ اسْتِبْدَادِ وَزِيرٍ عَلَيْهِ ، فَتَصِيرُ عَلاَمَةُ هذَا الْكِتَابِ مُلْغَاةَ الْحُكْمِ بِعَلاَمَةِ الرَّئِيسِ عَلَيْهِ ، يَسْتَدِلُّ بِهَا فَيَكْتُبُ صُورَةَ عَلاَمَتِهِ الْمَعْهُودَةِ ، وَالْحُكْمُ لِعَلاَمَةِ ذلِكَ الرَّئِيسِ ، كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ ، لَمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُ الْحِجَابَةِ ، وَصَارَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيضِ ثُمَّ الاسْتِبْدَادِ صَارَ حُكْمُ الْعَلاَمَةِ الَّتِى لِلْكَاتِبِ مُلْغًى وَصُورَتُهَا ثَابِتَةً ، إِتْبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا . فَصَارَ الْحَاجِبُ يَرْسِمُ لِلْكَاتِبِ إِمْضَاءَ كِتَابِهِ ذلِكَ بِخَطٍّ يَصْنَعُهُ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صِيَغِ الإِنْفَاذِ مَا شَاءَ ، فَيَأْتَمِرُ الْكَاتِبُ لَهُ ، وَيَضَعُ الْعَلاَمَةَ الْمُعْتَادَةَ ، وَقَدْ يَخْتَصُّ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ ذلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبِدًّا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَيَرْسِمُ الأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عَلاَمَتَهُ .

وَمِنْ خُطَطِ الْكِتَابَةِ التَّوْقِيعُ ، وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِى مَجَالِسِ حُكْمِهِ وَفَصْلِهِ ، وَيُوَقِّعَ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالْفَصْلُ فِيهَا مُتَلَقَّاةً مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ . فَإِمَّا أَنْ

تَصْدُرَ كَذلكَ ، وَإِمَّا أَنْ يَحْذُوَ الـكَاتِبِ عَلَى مِثَالِهَا فـى سِجِلٍّ يَكُونُ بِيَدِ صَاحِبِ الْقِصَّةِ . وَيَحْتَاجُ الْمُوَقِّعُ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبِلاَغَةِ يَسْتَقِيـم بِهَا تَوْقِيعُهُ .

وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بنُ يَحْيَى يُوَقِّعُ فى الْقَصَصِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ، وَيَرْمِى بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلَغَاءُ فى تَحْصِيلِهَا لِلوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِيبِ الْبَلاغَةِ وَفُنُونِهَا ، حَتَّى قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تُبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ ، وَهكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هـذِهِ الْخُطَّةِ لاَبُدَّ مِنْ أَنْ يُتَخَيَّرَ مِـن أَرْفَعِ طَبَقَاتِ الـنَّاسِ وَأَهْلِ الْمُرُوءَةِ وَالْحِشْمَةِ مِنْهُمْ وَزِيَادَةِ الْعِلْمِ وَعَارِضَةِ الْبَلاَغَةِ ، فَإِنَّهُ مُعَـرَّضٌ لِلنَّظَرِ فى أُصُولِ الْعِلْمِ لِما يَعْرِضُ فى مَـجَالِسِ الْمُلُوكِ ومَقَاصِدِ أَحْكَامِهِمْ مِنْ أَمْثَالِ ذلك ما تَدْعُو إِلَيْهِ عِشْرَةُ الْمُلُوكِ مِن الْقِيامِ علَى الآدابِ والتَّخَلُّقِ بِالْفَضَائِلِ مع مـا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ فى التَّرْسِيلِ وتَطْبِيقِ مَـقَاصِدِ الْكَلاَمِ مِن الْبلاَغَةِ وأسرارِها .

وَقَد تَكُونُ الرُّتْبَةُ فـى بَعضِ الدُّوَلِ مُسْـتَنِدَةً إِلَى أَربَابِ السُّيُوفِ لِمَا يَقْتَضِيـهِ طَبعُ الـدَّوْلَةِ مِنَ الْبُعـدِعَن مُعَانَاة الْعُلُومِ لأَجلِ سَذَاجَةِ الْعَصَبِيَّةِ ، فَيَخْتَصُّ الـسُّلْطَانُ أَهـلَ عَصَبِيَّتِه بِخُطَطِ دَولَتِه ، وَسَائِرِ رُتَبِهِ ، فَيُقَلِّدُ الْمَالَ وَالسَّيفَ وَالْكِتَابَةَ مِنْهُمْ . فَأَمَّا رُتْبَةُ السَّيفِ فَتَستَغْنِى عَن مُعَانَاةِ الْعِلْمِ . وَأَمَّا

الْمَالُ والكتابة فيضطر إلَى ذلكَ لـلبلاغة فى هذه وَالْحُسبَانُ فى الأُخْرَى ، فَيَخْتَارُونَ لَهَا من هذه الطَّبَقَة مَا دَعَتْ إِلَيـه الضَّرُورَةُ ، وَيُقَلِّدُونَهُ . إلاَّ أَنَّهُ تكُونُ[1] يَدٌ آخَرَ من أهلِ الْعَصَبِيَّةِ غَالِـبَةٌ عَلَى يَدِهِ ويَكُونُ نَظَرُهُ مُتَصَرِّفًا عَن نَظَرِهِ كَمَا هُوَ فى دَوْلَة التُّرْكِ لِهذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ . فَإِنَّ الْكتَابَةَ عِنْدَهُم وَإِنْ كَانَتْ لصَاحِبِ الإِنْشَاء ، إلاَّ أَنَّهُ تَحتَ يَدِ أميرٍ من أهلِ عَصَبِيَّةِ السُّلْطَانِ ، يُعـرَفُ بِالدَّوِيدَارِ . وَتَعـوِيلُ السُّلْطَانِ وَوُثُوقُهُ بِهِ وَاسـتِنَامَتُهُ[2] فـى غَالِبِ أَحوَالِهِ إِلَيـهِ ، وَتَعوِيلُهُ عَلَى الأخرِ فى أحـوَالِ الْبَلاَغَةِ ، وتَطْبِيقِ الْمَقَاصِدِ وَكِتْمَانِ الأَسرَارِ وَغَيرِ ذلكَ مِن تَوَابِعِهَا .

وَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُعْتَبَرَةُ فى صَاحِبِ هذه الـرُّتْبَةِ الَّتى يُلاَحِظُهَا السُّلْطَانُ فى اخْتِيَارِهِ وَانْتِقَائِهِ مِن أَصنَافِ النَّاس فَهِىَ كَثِـيرَةٌ وَأَحسَنُ مَنِ اسـتوعَبَـها عَبدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فى رِسَالَتِهِ إِلَى الْكُتَّاب وَهِىَ :

« أَمَّا بَعـــدُ حَفِظَكُمُ اللهُ يَا أَهْـلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطَكُم وَوَفَّقَكم وَأَرشَدَكُم . فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعدَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمرسَلِينَ صَلَوَات اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيـهِم أجمَعِينَ ، وَمِن بَعـدِ الْمُلُوكِ الْمُكَرَّمِينَ أَصنَافًا . وَإِنْ كَانُوا فى الْحَقِيــقَةِ سَوَاءً . وَصَرَّفَهُم فى صُنُـوفِ الصِّنَاعَاتِ ، وَضُرُوب

---

(١) فى الأصل (لا تكون) بزيادة لا . وفيـه مناقضة للمعنى . وقـد حذفه د. وافى فى منشورته وهو الصواب .

(٢) اطمئنانه إليه .

الْمُحَاوَلاتِ ، إِلَى أَسبَابِ مَعَاشِهِم ، وَأَبوَابِ أَرزاقِهِم . فَجَعَلَكُم مَعشَرَ الْكُتَّابِ فِى أَشرَفِ الْجِهَاتِ أَهلَ الأَدَبِ وَالْمُرُوءَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرَّزَانَةِ . بِكُم يَنْتَظِمُ لِلْخِلاَفَةِ مَحَاسِنُهَا ، وَتَستَقِيمُ أُمُورُهَا . وَبِنُصَحَائِكُم يُصلِحُ اللهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُم ، وَتَعمُرُ بُلْدَانُهُم . وَلاَ يَستَغْنِى الْمُلْكُ عَنكُم ، وَلاَ يُوجَدُ كَافٍ إِلاَّ مِنكُم . فَمَوقِعُكُم مِنَ الْمُلُوكِ مَوقِعَ أَسمَاعِهِم الَّتِى بِهَا يَسمَعُونَ ، وأبصارِهم التى بِهَا يُبصِرُونَ ، وَأَلْسِنَتِهِم الَّتِى بِهَا يَنْطِقُونَ ، وَأَيدِيهِم الَّتِى بِهَا يَبطُشُونَ . فَأَمتَعَكُمُ اللهُ بِمَا خَصَّكُم مِن فَضْلِ صِنَاعَتِكم، وَلاَ نَزَعَ عَنْكُم مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعمَةِ عَلَيكُم . وَلَيسَ أَحَدٌ من أَهلِ الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحوَجَ إِلَى اجتِمَاعِ خِلاَلِ الْخَيرِ الْمَحمُودَةِ وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعدُودَةِ مِنكُم » .

« أَيُّهَا الْكُتَّابُ : إِذَا كُنتُم عَلَى مَا يَأتِى فِى هذَا الْكِتَابِ مِن صِفَتِكُم فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَحتَاجُ فِى نَفْسِهِ ، وَيَحتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِى يَثِقُ بِهِ فِى مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِى مَوضِعِ الْحِلْمِ ، فَهِيمًا فِى مَوضِعِ الْحُكْمِ ، مِقْدَامًا فِى مَوضِعِ الإِقْدَامِ ، مُحجِمًا فِى مَوضِعِ الإِحجَامِ ، مُؤْثِرًا لِلْعَفَافِ وَالْعَدلِ وَالإِنْصَافِ ، كَتُومًا لِلأَسرَارِ ، وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، عَالِمًا بِمَا يَأتِى مِنَ النَّوَازِلِ ، يَضَعُ الأُمُورَ مَوَاضِعَهَا ، وَالطَّوَارِقَ فِى أَمَاكِنِهَا . قَد نَظَرَ فِى كُلِّ فَنٍّ مِن فُنُونِ الْعِلْمِ فَأَحكَمَهُ ، وَإِنْ لَم يُحكِمهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا يَكْتَفِى بِهِ . يَعرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحُسنِ أَدَبِهِ وَفَضْلِ تَجرِبَتِهِ مَا يَرِدُ

عَلَيـهِ قبلَ وُرُودِه وَعَاقِبَة مَا يَصـدُرُ عَنْهُ قَبلَ صُدُورِه ؛ فَيُعِدُّ لِكُلِّ أمـرٍ عِدَّتَهُ وَعَتَادَهُ وَيُهَيِّىءُ لِكُلِّ وَجهٍ هَيئَتَهُ ، وَعَادَتَهُ » .

« فَتَنَافَسُوا يَا مَعـشَرَ الْكُتَّابِ فـى صُنُوفِ الآدَابِ . وَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ وَابدأُوا بعِلْمِ كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْفَرَائـضِ ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا ثِقَافُ[1] أَلْسِنَتِكُم ، ثُمَّ أَجِيـدُوا الْخَطَّ ؛ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُم ، وَارووُا الأَشْعَارَ ، وَاعرِفوا غَرِيبَهَا وَمَعَانيـهَا ، وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ؛ فَإِنَّ ذلكَ مُعَينٌ لَكُم عَلَى مَا تَسـمُو إِلَيـهِ هِمـمُكُم ؛ وَلاَ تَضيـعُوا النَّظَرَ فى الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قِوَامُ كُتَّابِ الْخَرَاجِ » .

« وَارغَبُوا بِأَنْفُسِكُم عَنِ الْمَطَامـعِ سَنِـيِّهَا وَدَنِـيِّهَا وَسَفْسَافِ الأُمُورِ وَمَحَاقِرِها فَإِنَّهَا مُذِلَّةٌ لِلرِّقَابِ مُفْسِدَةٌ لِلْكُتَّابِ . وَنَزِّهُوا صِنَاعَتَكُم عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبَأُوا بِأَنْفُسِكُم عَنِ السِّعَايَةِ وَالنَّمِيمَةِ ، وَمَا فِيهِ أَهلُ الْجِهَالاَتِ » .

« وَإِيَّاكُم وَالْكِبـرَ وَالسُّخْفَ وَالْعَظَمَةَ ، فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجـتَلَبَةٌ مِن غَيـرِ إِحنَةٍ ، وَتَحَابُّوا فى الله عَزَّ وَجَلَّ فى صِنَاعَتِكُم وَتَوَاصَوا عَلَيـهَا بِالَّذى هُوَ أَلْيَق لأَهلِ الْفَضْلِ وَالْعَدلِ وَالنُّبلِ مِن سَلَفِكُم » .

« وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُم فَاعطِفُوا عَلَيـهِ وَآسُوهُ حَتَّى يَرجِعَ إِلَيـهِ حَالُهُ ، وَيَثُوبَ إِلَيـهِ أَمـرُهُ . وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنكُم الْكِبَرُ عَن مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ

---

(١) وسيلة تقويمها . والثقاف فى الأصل الآلة التى تسوى بها الرماح .

إخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته » .

« وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه . فإن عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال . فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى القراء ، وهو لكم أفسد منه لهم » .

« فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه . فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء ؛ فنعمت السمة هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة » .

« وإذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم

لِيكن بِالْعَدلِ حَاكِمًا وَلِـلأَشْرَافِ مُكْرِمًا ، وَلِلفىْءِ مُوَفِّرًا ، وَلِلْبِلاَدِ عَامِرًا ، وَلِلرَّعِيَّةِ مُتَأَلِّفًا ، وَعَن أَذَاهُم مُتَخَلِّفًا ، وَلْيَكُن فى مَجلِسِهِ مُتَوَاضِعًا حَلِيمًا ، وَفى سِجِلاتِ خَرَاجِهِ وَاستِقْصَاءِ حُقُوقِهِ رَفِيقًا » .

« وَإِذَا صَحِبَ أَحَدُكُم رَجُلاً فَلْيَخْتَبِر خَلاَئِقَهُ ، فَإِذَا عَرَفَ حُسنَهَا وَقُبحَهَا ، أَعَانَهُ عَلَى مَا يُوَافِقُهُ مِنَ الْحُسنِ ، وَاحتَالَ عَلَى صَرفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقُبحِ بِأَلْطَفِ حِيلَةٍ وَأَجمَلِ وَسِيلَةٍ » .

وَقَد عَلِمتُم أَنَّ سَائِسَ الْبَهِيمَةِ ، إِذَا كَانَ بَصِيرًا بِسِيَاسَتِهَا الْتَمَسَ مَعرِفَةَ أَخلاقِهَا ، فَإِنْ كَانَتْ رَمُوحًا[1] لَم يَهِجْهَا ، إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا[2] اتَّقَاهَا مِن بَين يَدَيهَا وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شُرُودًا تَوَقَّاهَا مِن نَاحِيَةِ رَأسِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرُونًا[3] قَمَعَ بِرِفْقٍ هَوَاهَا فى طَرْقِهَا[4] ، فَإِن استَمَرَّتْ عَطَفَهَا يسيرًا فَيَسلُس[5] لَهُ قِيَادُهَا . وَفى هذَا الْوَصفِ مِنَ السِّيَاسَةِ دَلائِلُ لِمَن سَاسَ النَّاس وعامَلَهُم وجرَّبَهُمْ وداخَلَهُم » .

« والْكَاتِبُ بفَضْلِ أَدَبِهِ وَشَرِيفِ صَنْعَتِهِ ولطيفِ حِيلَتَهَ ومُعَامَلَتِهِ لِمن

(١) كثيرة الرفس .

(٢) كثيرة رفع اليدين .

(٣) التى إذا استدر جريها وقفت ولم تستجب .

(٤) فى ضربه لها .

(٥) يلين .

يُحـــاورُهُ مِن النَّاسِ ويُنَاظِرُهُ ويُفْهَمُ عنهُ أو يَخَافُ سَطْوَتَهُ أولى بِالرِّفْقِ لِصَاحِبِهِ وَمُدَارَاتِهِ وتَقْوِيمِ أوَدِه مِن سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتى لا تُحِير[1] جَوَابًا وَلاَتَعرِفُ صَوَابًا وَلاَ تَفْهَمُ خِطَابًا إلاَّ بِقَدرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّاكِبُ عَلَيها » .

« ألاَ فَارفَقُوا رَحِمكُمُ اللهُ فى النَّظَرِ وَاعمَلُوا مَا أمكَنَكم فِيهِ مِنَ الرَّوِيَّةِ وَالْفِكْرِ ، تَأمَنُوا بِإِذْنِ الله ، مِمَّن صَحِبتُمُوهُ النَّبوَةَ وَالاستِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ ، ويَصِيرُ مِنكُم إلَى الْمُوَافَقَةِ ، وتَصِيرُوا مِنْهُ إلَى الْمُؤَاخَاةِ وَالشَّفَقَةِ إنْ شَاءَ اللهُ » .

« وَلاَيُجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنكُم فى هَيئَةِ مجلِسِهِ وَمَلْبَسِهِ ومَرْكَبِهِ وَمَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وبِنَائِهِ وَخَدَمِهِ وَغَيرِ ذلكَ مِن فنُونِ أمرِهِ قَدرَ حقِّهِ ؛ فَإنَّكُم مَعَ مَا فَضَّلَكُمُ اللهُ بِهِ من شَرَفِ صَنْعَتِكُم خَدَمَةٌ لاتُحمَلُونَ فى خِدمَتِكُم عَلَى التَّقصِيرِ وَحَفَظَةٌ لاَ تُحتَمَلُ مِنكُم أفعَالُ التَّضْييعِ وَالتَّبذِيرِ . وَاستعِينوا عَلَى عَفَافِكُم بِالْقَصْدِ فى كُلِّ مَا ذَكَرْتُه لكُمْ وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ . وَاحذَرُوا مَتَالِفَ السَّرفِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ فَإنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ وَيُذِلاَّنِ الرِّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا وَسِيَّمَا الْكُتَّابِ وَأرْبَابِ الآدَابِ » .

---

(١) لا ترد جوابًا .

« وَلِلأُمُورِ أَشْبَاهٌ وَبَعْضُهَا دَلِيـلٌ عَلَى بَعْضٍ فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ[1] أَعْمَالِكُمْ بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتُكُمْ ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْبِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً . وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّدْبِيـرِ آفَةً مُتْلِفَةً ، وَهُوَ الْوَصْفُ الـشَّاغِلُ لِصَاحِبِهِ عَـنْ إِنْفَاذِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ . فَلْيَقْصِدِ الـرَّجُلُ مِنْكُمْ فِى مَـجْلِسِهِ قَصْدَ الْكَافِى مِنْ مَنْطِقِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِى ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَـأْخُذْ بِمَجَامِـعِ حُجَجِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفِعْلِهِ وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاغِلِ عَنْ إِكْثَارِهِ . وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللهِ فِى صِلَةِ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ مَخَافَةَ وُقُوعِهِ فِى الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِبَدَنِهِ وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ » .

« فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانٌّ أَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ الَّذِى بَرَزَ مِنْ جَمِيـلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ تَدْبِيـرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بِظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ فَيَصِيـرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ؛ وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ » .

« وَلاَ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالأُمُورِ وَأَحْمَلُ لِعِبْءِ التَّدْبِيـرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِى صِنَاعَتِهِ وَمُصَاحِبِـهِ فِى خِدْمَتِهِ . فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِى الأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَدُ فِـى طَرِيقَتِهِ . وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيـقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللهِ جَلَّ

(١) ما لم تجربوه .

ثَنَاؤُهُ مِنْ غَيْـرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ وَلاَ تَزْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ . وَلاَ يُكَاثِرُ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيـرِهِ وَصَاحِبِهِ وَعَشِيـرِهِ . وَحَمْدُ اللهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ » .

« وَأَنَا أَقُولُ فِى كِتَابِى هذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : مَنْ تَلْزَمُهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمُهُ الْعَمَلُ وَهُوَ جَوْهَرُ هَـذَا الْكِتَابِ ، وَغُرَّةُ[1] كَلاَمِهِ بَعْدَ الَّذِى فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلِذلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ ، وَتَمَّمْتُهُ بِهِ . تَوَلاَّنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ؛ فَإِنَّ ذلِكَ إِلَيهِ وَبِيَدِهِ . وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » .

(الشُّرْطة) : وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهَـذَا الْعَهْدِ بِأَفْرِيقِيَّةَ الْحَاكِمَ ، وَفِى دَوْلَةِ أَهلِ الأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ ، وَفِى دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِى . وَهِىَ وَظِيفَةٌ مَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ فِى الدَّوْلَةِ ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِى صَاحِبِهَا فِى بَعْضِ الأَحْيَانِ .

وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِى الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِى حَالَ اسْتِبْدَادِهَا أَوَّلاً ، ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا ، فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِى تَعْرِضُ فِى الْجَرَائِمِ لاَنَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلاَّ فِى اسْتِيـفَاءِ حُدُودِهَا وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِى اسْـتِيـفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِإِقْرَارٍ يُكْرِهُهُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا احْتَفَّتْ بِهِ الْقَرَائِنُ لِمَا

---

(١) احسن ما فيه .

تُوجِبُهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِى ذلِكَ . فَكَانَ الَّذِى يَقُومُ بِهَذَا الاسْتِبْدَادِ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِى يُسَمَّى صَاحِبَ الشُّرْطَةِ . وَرُبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِى الْحُدُودِ وَالدِّمَاءِ بِإِطْلاَقٍ وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِى ، وَنَزَّهُوا هذِهِ الْمَرْتَبَةَ وَقَلَّدُوهَا كِبَارَ الْقُوَّادِ وَعُظَمَاءَ الْخَاصَّةِ مِنْ مَوَالِيهِمْ .

وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيذِ فِى طَبَقَاتِ النَّاسِ إِنَّمَا كَانَ حُكْمُهُمْ عَلَى الدَّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرِّيَبِ ، وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِى الرَّعَاعِ وَالْفَجَرَةِ .

ثُمَّ عَظُمَتْ نَبَاهَتُهَا فِى دَوْلَةِ بَنِى أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ وَنُوِّعَتْ إِلَى شُرْطَةٍ كُبْرَى وَشُرْطَةٍ صُغْرَى . وَجُعِلَ حُكْمُ الْكُبْرَى عَلَى الْخَاصَّةِ وَالدَّهْمَاءِ وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْب عَلَى أَيْدِيهِمْ فِى الظُّلاَمَاتِ ، وَعَلَى أَيْدِى أَقَارِبِهِمْ وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِ ؛ وَجُعِلَ صَاحِبُ الصُّغْرَى مَخْصُوصًا بِالْعَامَّةِ . وَنُصِبَ لِصَاحِبِ الْكُبْرَى كُرسِىٌّ بِبَابِ دَارِ السُّلْطَانِ وَرِجَالٌ يَتَبَوَّؤُونَ الْمَقَاعِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَبْرَحُونَ عَنْهَا إِلاَّ فِى تَصْرِيفِهِ ، وَكَانَتْ وِلاَيَتُهَا لِلأَكَابِرِ مِنْ رِجَالاَتِ الدَّوْلَةِ ، حَتَى كَانَتْ تَرْشِيحًا لِلْوِزَارَةِ وَالْحِجَابَةِ .

وَأَمَّا فِى دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ ، فَكَانَ لَهَا حَظٌّ مِنَ التَّنْوِيهِ ، وَإِنْ

لَمْ يَجْعَلُوهَا عَامَّةً ، وَكَانَ لاَ يَلِيـهَا إلا رِجَالاَتُ الْمُوَحِّدِينَ وَكُبَراؤهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ التَّحكُّمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ .

ثُمَّ فَسَدَ الْيَوْمَ مَنْصِبُهَا ، وَخـرَجَتْ عَنْ رِجَالِ الْمُوَحِّدِينَ ، وَصَارَتْ وِلاَيَتُهَا لِمَنْ قَامَ بِهَا مِنَ الْمُصْطَنَعِينَ .

وَأَمَّا فِى دَوْلَةِ بَنِى مَرِينَ ، لِهـذَا الْعَهْدِ بِالْمَشْرِقِ ، فَوِلاَيَتُهَا فِى بُيُوتِ مَوَالِيهِمْ وَأَهْلِ اصْطِنَاعِهِمْ :

وَفِى دَوْلَةِ الـتُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فِى رِجَالاَتِ الـتُّرْكِ أَوْ أَعْقَابِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَبْلَهُمْ مِنَ الـتُّرْكِ يَتَخَيَّرُونَهُمْ لَهَا فِـى الـنَّظَرِ بِمَا يَظْهَرِ مِنْهُمْ مِنَ الـصَّلاَبَةِ وَالْمَضَاءِ فِى الأَحْكَامِ ، لَقَطْعِ مَوَادِّ الْفَسَادِ وَحَسْمِ أَبْوَابِ الـدُّعَارَةِ وَتَخْرِيبِ مَوَاطِنِ الْفُسُوقِ وَتَفْرِيـقِ مَجَامِعِهِ مَعَ إِقَامَةِ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ وَالـسِّيَاسِيَّةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ رِعَايَةُ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِى الْمَدِينَةِ . وَاللهُ مُقَلِّبُ الـلَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ . وَاللهُ تَعَالَى أعلم .

(قـيـادة الأسـاطيـل) : وَهِيَ مِنْ مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَخُطَطِهَا فِى مُلْكِ الْمَغْرِبِ وَأَفْرِيقِيَّةَ ، وَمَرْؤُوسَةٌ لِصَاحِبِ السَّيْفِ وَتحْتَ حُكْمِهِ فِى كـثِيرٍ مِنَ الأَحْوَالِ ، وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا فِى عُرْفِهِمْ : « الملنـد » بِتَفْخِيمِ اللاَّمِ ، مَنْقُولاً مِنْ لُغَةِ الإِفْرَنْجَةِ ، فَإِنَّهُ اسْمهـا فِى اصْطِلاحِ لُغتِهِمْ ، وَإِنَّمَا اخْتَصت هذهِ الْمَرْتَبَةُ بِمُلْكِ أَفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ لأَنَّهُمَا جمـيعًا عَلَى ضِفَّةِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ

جـهَةَ الْجَنُوبِ وَعَلَى عُدْوَتِه الْجَنُوبِيَّةِ بِلاَدُ الْبَرْبَرِ كُلُّهِمْ مِنْ سَبْتَةَ إِلَى الشَّامِ وَعلَىَ عُدْوته الشَّمَالِيَّةِ بِلادُ الأَنْدَلُسِ والإِفْرَنْجَةِ وَالـصَّقَالِبَةِ والرُّومِ إِلَى بِلاَدِ الشَّامِ أَيضًا وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الرُّومِيَّ وَالْبَحْرَ الشَّامِيَّ نِسْبَةً إِلَى أَهْلِ عُدْوَتِهِ .

والساكِنُونَ بِسِيفِ[1] هـــذَا الْبَحْرِ ، وَسَوَاحِلِه مِنْ عُدْوَتَيْهِ يُعَانُونَ مِنْ أَحْوَالِه مَا لاَ تُعَانِيــــه أُمَّةٌ مِنْ أُمَمِ الْبِحَارِ . فَقَدْ كَانَتِ الرُّومُ وَالإِفْرِنْجَةُ وَالْقُوطُ بِالْعُدْوَةِ الـشَّمَالِيَّةِ مِنْ هـذَا الْبَحْرِ الـرُّومِيِّ ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ حُرُوبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ فِى الـسُّفُنِ ، فَكَانُوا مَهَرَةً فِى رُكُوبِهِ ، وَالْحَرْبِ فـى أَسَاطِيلِهِ . وَلَمَّا أَسَفَّ مَنْ أَسَفَّ مِنْهُمْ إِلى مُلْكِ الْعُدْوَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِثْلِ الـــرُّومِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْقُوطِ إِلَى الْمَغْرِبِ أَجَازُوا فِى الأَسَاطِيـلِ وَمَلَكُوهَا ، وَتَغَلَّبُوا عَلَى الْبربرِ بِهـا وَانْتزعُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ أَمْرَهَا ، وكَانَ لَهَم بِهَا الْمُدُنُ الْحـافِلَةُ مِثْل قَرْطَاجَنَّةَ وَسَبِيــطَلَــة وَجَلُولاَءَ وَمرنَاق وَشرشَالَ وَطَنْجة . وكَانَ صَاحِبُ قَرْطَاجَنَّة مِنْ قَبْلِهِم يُحَارِبُ صَاحِبَ رُومَة ، وَيَبْعَث الأَسَاطِيــــلَ بِحَرْبِه مَشْحُونَةً بِالْعَسَاكِرِ وَالْعُدَدِ . فَكَانَتْ هذه عَادَةً لأَهْلِ هذا الْبَحـــرِ السَّاكِنِينَ حَفَافَيهِ مَعْرُوفَةً فِى الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

وَلَمَّا مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مِصْرَ ، كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْعَاصِ ٪ أَنْ صِفْ لِيَ الْبَحْرَ ، فَكَتَبَ إِلَيْه إِنَّ الْبَحْرَ خَلْقٌ عَظِيـمٌ ، يَرْكَبُهُ

---

(١) بساحله .

خلْقٌ ضَعيف ، دُودٌ عَلَى عُودٍ . فَأوعزَ حينَئذٍ بمَنْعِ الْمُسْلمينَ مِنْ رُكوبِهِ ، ولَمْ يَركَبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، إلاَّ مَنِ افتَاتَ عَلَى عُمَرَ فـى رُكُوبِه ، ونَالَ مِنْ عِقَابِه كَمَا فَعلَ بعرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ الأزْدىِّ سَيِّد بَجيلَةَ ، لَمَّا أَغْزَاهُ عمَّانَ فَبَلَغَهُ غَزْوُهُ فِى الْبَحْرِ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ وَعَنَّفَهُ أَنَّهُ ركِبَ الْبَحْرِ لِلْغَزْوِ .

ولَمْ يَزَلِ الشَّأنُ ذلكَ حتى إذَا كَانَ لِعهْدِ مُعَاوِيَةَ أذِنَ لِلْمُسْلمينَ فى رُكُوبِهِ ، وَالْجِهَادِ عَلَى أعْوَادِهِ . وَالسَّبَبُ فـى ذلكَ أنَّ الْعَرَبَ لِبدَاوَتِهِمْ لَمْ يكُونُوا مَهَرَةً فى ثَقَافتِه ورُكوبِهِ ؛ وَالرُّومُ والإفرنْجَةُ لِمُمَارَسَتِهِم أحْوَالَهُ ، وَمَرْبَاهُمْ فى التَّقَلُّبِ عَلَى أعْوَادِهِ ، مَرَنُوا عَلَيْهِ ، وأَحْكَمُوا الدِّرَايَةَ بِثَقَافَتِهِ .

فَلَمَّا استَقَرَّ الْمُلْكُ لِلْعَرَبِ ، وَشَمَخَ سُلْطَانُهُم ، وَصَارَتْ أُمَمُ الْعَجَمِ خَوَلاً لَهُمْ ، وَتَحْتَ أيْدِيهِمْ ، وَتَقَرَّبَ كُلُّ ذِى صَنْعَةٍ إلَيْهِمْ بِمَبْلَغِ صِنَاعَتِهِ، وَاسْتَخْدَمُوا مِنَ النَّوَاتِيَةِ فى حَاجَاتِهِمِ الْبَحْرِيَّةِ أُمَمًا ، وَتَكَرَّرَتْ مُمَارَسَتُهُمْ لِلْبَحْرِ وَثَقَافَتِهِ ، وَاستَحْذَقُوا بُصَرَاءَ بِهَا ، فَشرِهُوا إلَى الْجِهَادِ فِيهِ، وَأَنْشَئُوا السُّفُنَ فِيهِ وَالسَّوَانى[1] ، وَشَحَنُوا الأسَاطِيلَ بِالرِّجَالِ وَالسِّلاَحِ، وَأمْطَوهَا الْعَسَاكِرَ وَالْمُقَاتِلَةَ لِمَنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ أُمَمِ الْكُفْرِ ، وَاخْتَصُّوا بِذلكَ مِنْ مَمَالِكِهِمْ وَثُغُورِهِمْ مَا كَانَ أَقْرَبَ لِهَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى حَافَّتِهِ مِثْلَ الشَّامِ وأفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبِ وَالأنْدَلُس .

(١) المراكب الحربية .

وأوعزَ الخليفةُ عبدُ الملكِ إلى حسَّانَ بنِ النّعمانِ عاملِ أفريقيَّةَ ، باتّخاذِ دارِ صناعةٍ بتونسَ لإنشاءِ الآلاتِ البحريّةِ حرصًا على مراسمِ الجهادِ، ومنها كانَ فتحُ صقليّةَ أيّامَ زيادةِ الله الأوّلِ ابنِ إبراهيمَ بنِ الأغلبِ على يدِ أسدِ بنِ الفراتِ شيخِ الفتيا ، وفتحُ قوصرّةَ أيضًا في أيّامِه بعدَ أنْ كانَ معاويةُ بنُ حديجٍ أغزى صقلّيّةَ أيّامَ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ فلم يفتحِ اللهُ على يديْهِ وفُتحتْ على يدِ ابنِ الأغلبِ وقائدِه أسدِ بنِ الفراتِ . وكانتْ منْ بعدِ ذلكَ أساطيلُ إفريقيّةَ والأندلسِ في دولةِ العُبَيديّينَ والأمويّينَ تتعاقبُ إلى بلادِهِمَا في سبيلِ الفتنةِ فتجوسُ خلالَ السّواحلِ بالإفسادِ والتّخريبِ .

وانتهى أسطولُ الأندلسِ أيّامَ عبدِ الرّحمنِ النّاصرِ إلى مائتَيْ مركبٍ أو نحوِها ، وأسطولُ أفريقيّةَ كذلكَ مثلَهُ أوْ قريبًا منهُ ، وكانَ قائدُ الأساطيلِ بالأندلسِ ، ابنُ دماحس ، ومرفأُها للحطِّ والإقلاعِ بجايةَ والمريّةَ ، وكانتْ أساطيلُها مجتمعةً منْ سائرِ الممالكِ منْ كلِّ بلدٍ تُتّخذُ فيهِ السّفنُ أسطولٌ يرجعُ نظرُهُ إلى قائدٍ منَ النّواتيةِ يدبّرُ أمرَ حربِهِ وسلاحِهِ ومقاتلتِهِ ورئيسٌ يدبّرُ أمرَ جريتِهِ بالرّيحِ أوْ بالمجاديفِ وأمرَ إرسائِهِ في مرفئِهِ . فإذا اجتمعتِ الأساطيلُ لغزوٍ محتفلٍ أوْ غرضٍ سلطانيٍّ مهمٍّ ، عسكرتْ بمرفئِها المعلومِ وشحنَها السّلطانُ برجالِهِ وأنجادِ عساكرِه

وَمَوَالِيهِ ، وَجَعَلَهُمْ لِنَظَرِ أَمِيرٍ وَاحِدٍ مِنْ أَعْلَى طَبَقَاتِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ يَرْجِعُونَ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَرِّحُهُمْ لِوَجْهِهِمْ وَيَنْتَظِرُ إِيَّابَهُمْ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِعَهْدِ الدَّوْلَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ قَدْ غَلَبُوا عَلَى هَذَا الْبَحْرِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، وَعَظُمَتْ صَوْلَتُهُمْ وَسُلْطَانُهُمْ فِيهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلأُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ قِبَلٌ بِأَسَاطِيلِهِمْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَامْتَطَوا ظَهْرَهُ لِلْفَتْحِ سَائِرَ أَيَّامِهِمْ ، فَكَانَتْ لَهُمُ الْمَقَامَاتُ الْمَعْلُومَةُ مِنَ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَمَلَكُوا سَائِرَ الْجَزَائِرِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ السَّوَاحِلِ فِيهِ مِثْلَ مَيُورِقَةَ وَمَنُورِقَةَ وَيَابِسَةَ وَسِرْدَانِيَةَ وَصِقِلِّيَةَ وَقَوْصَرَةَ وَمَالِطَةَ وَأَقْرِيطِشَ وَقُبْرُس ، وَسَائِرِ مَمَالِكِ الرُّومِ وَالإِفْرِنْجِ. وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الشِّيعِيُّ وَأَبْنَاؤُهُ يُغْزُونَ أَسَاطِيلَهُمْ مِنَ الْمَهْدِيَّةِ جَزِيرَةَ جَنَوَةَ فَتَنْقَلِبُ بِالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ . وَافْتَتَحَ مُجَاهِدٌ الْعَامِرِيُّ صَاحِبُ دَانِيَةَ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ جَزِيرَةَ سِرْدَانِيَةَ فِى أَسَاطِيلِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمَائَةٍ، وَارْتَجَعَهَا النَّصَارَى لِوَقْتِهَا . وَالْمُسْلِمُونَ خِلاَلَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ تَغَلَّبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ لُجَّةِ هَذَا الْبَحْرِ ، وَصَارَتْ أَسَاطِيلُهُمْ فِيهِمْ جَائِيَةً وَذَاهِبَةً ، وَالْعَسَاكِرُ الإِسْلاَمِيَّةُ تُجِيزُ الْبَحْرَ فِى الأَسَاطِيلِ مِنْ صِقِلِّيَةَ إِلَى الْبَرِّ الْكَبِيرِ الْمُقَابِلِ لَهَا مِنَ الْعُدْوَةِ الشَّمَالِيَّةِ ، فَتُوقِعُ بِمُلُوكِ الأَفْرَنْجِ ، وَتُثْخِنُ فِى مَمَالِكِهِمْ ، كَمَا وَقَعَ فِى أَيَّامِ بَنِى الْحُسَيْنِ ، مُلُوكِ صِقِلِّيَةَ الْقَائِمِينَ فِيهَا بِدَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ . وَانْحَازَتْ أُمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ مِنْ سَوَاحِلِ الإِفْرَنْجَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَجَزَائِرِ الرُّومَانِيَّةِ لاَ

يَغْدُونَهَا ، وَأَسَاطِيـــلُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ ضَرِيَتْ عَلَيْهِمْ ضِرَاءَ(١) الأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ ، وَقَدْ مَلأَتِ الأَكْثَرَ مِنْ بَسِيـطِ هذَا الْبَحْرِ عُدَّةً وَعَدَدًا وَاخْتَلَفَتْ فِـى طُرُقِهِ سِلْمًا وَحَرْبًا ، فَلَمْ تَظْهَرْ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِيهِ أَلْوَاحٌ .

حَتَّـى إِذَا أَدْرَكَ ، الـدَّوْلَةَ الْعُبَيْدِيَّةَ وَالأُمَوِيَّةَ الْفَشَلُ وَالْوَهَنُ ، وَطَرَقَهَا الاعْتِلاَلُ ، مَدَّ الـنَّصَارَى أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبَحْرِ الـشَّرْقِيَّةِ مِثْلَ صِقِلِّيَّةَ وَإِقْرِيطَش وَمَالِطَةَ فَمَلَكُوهَا ، ثُمَّ أَلَحُّوا عَلَى سَوَاحِلِ الـشَّامِ فِى تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَمَلَكُوا طَرَابُلُسَ وَعَسْقَلاَنَ وَصُورَ وعكَّا ، وَاسْتَوْلَوا عَلَى جَمِيـعِ الـثُّغُور بِسَوَاحِلِ الشَّامِ ، وَغَلَبُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَبَنُوا عَلَيْهِ كَنِيـــسَةً لِمَظْهَرِ دِيـنِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَغَلَبُوا بَنِـى خَزْرُونَ عَلَى طَرَابُلُسَ ، ثُمَّ عَلَى قَابِسَ وَصَفَاقِسَ وَوَضَعُوا عَلَيْهِمِ الْجِزْيَةَ ، ثُمَّ مَلَكُوا الْمَهْدِيَةَ مَقَرَّ مُلوك الْعُبَيْدِيِّينَ، مِنْ يَدِ أَعْقَابِ بُلُكِّينَ بْنِ زِيرِى . وَكَانَتْ لَهُمْ فِى الْمَائَةِ الْخَامِسَةِ الْكَرَّةُ بِهذَا الْبَحْرِ . وَضَعُفَ شَأْنُ الأَسَاطِيلِ فِـى دَوْلَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ ، إِلَى أَنِ انْقَطَعَ ، وَلَمْ يَعْتَنُوا بِشَىْءٍ مِنْ أَمْرِهِ لِهَذَا بَعْدَ أَنْ كَانَ لَهُمْ بِهِ فِـى الـدَّوْلَةِ الْعُبَيْدِيَّةِ عِنَايَةٌ تَجَاوَزَتِ الْحَدَّ ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِـى أَخْبَارِهِمْ . فَبَطَلَ رَسْمُ هـذِهِ الْوَظِيفَةِ هُنَالِكَ ، وَبَقِيَتْ بِأَفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ، فَصَارَتْ مُخْتَصَّةً بِهَا .

وَكَانَ الْجَانِبُ الْغَرْبِىُّ مِنْ هذَا الْبَحْرِ لِهـذَا الْعَهْدِ مَوْفُورَ الأَسَاطِيلِ ،

---

(١) اجتراءه عليها .

ثَابِتَ الْقُوَّةِ لَمْ يَتَحَيَّفْهُ عَدُوٌّ ، وَلاَ كَانَتْ لَهُمْ بِهِ كَرَّةٌ ، فَكَانَ قَائِدُ الأُسْطُولِ بِهِ لِعَهْدِ لِمَتُونَةَ بَنِي مَيْمُونَ ، رُؤَسَاءَ جَزِيرَةِ قَادِسَ ، وَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَخَذَهَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بِتَسْلِيمِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ ، وَانْتَهَى عَدَدُ أَسَاطِيلِهِمْ إِلَى الْمِائَةِ مِنْ بِلاَدِ الْعُدْوَتَيْنِ جَمِيعًا .

وَلَمَّا اسْتَفْحَلَتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْمِائَةِ السَّادِسَةِ ، وَمَلَكُوا الْعُدْوَتَيْنِ، أَقَامُوا خُطَّةَ هذَا الأُسْطُولِ ، عَلَى أَتَمِّ مَا عُرِفَ وَأَعْظَمِ مَا عُهِدَ ، وَكَانَ قَائِدُ أُسْطُولِهِمْ أَحْمَدُ الصِّقِلِّي أَصْلُهُ مَنَ صدْغيَار الْمُوطَّنِينَ بِجَزِيرَةِ جِرْبَةَ مِن سَرْوِيكِشَ ، أَسَرَهُ النَّصَارَى مِنْ سَوَاحِلِهَا ، وَرَبِيَ عِنْدَهُمْ ، وَاسْتَخْلَصَهُ صَاحِبُ صِقِلِّيَّةَ ، وَاسْتَكْفَاهُ ، ثُمَّ هَلَكَ وَوَلِيَ ابْنُهُ ، فَأَسْخَطَهُ بِبَعْضِ النَّزْعَاتِ وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَحِقَ بِتُونِسَ ، وَنَزَلَ عَلَى السَّيِّدِ بِهَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ، وَأَجَازَ مَرَاكِشَ فَتَلَقَّاهُ الْخَلِيفَةُ يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بِالْمَبَرَّةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَأَجْزَلَ الصِّلَةَ وَقَلَّدَهُ أَمْرَ أَسَاطِيلِهِ فَجَلَّى فِي جِهَادِ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَتْ لَهُ آثَارٌ وَأَخْبَارٌ وَمَقَامَاتٌ مَذْكُورَةٌ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ .

وَانْتَهَتْ أَسَاطِيلُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالاسْتِجَادَةِ إِلَى مَا لَمْ تَبْلُغْهُ مِنْ قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ ، فِيمَا عَهِدْنَاهُ .

وَلَمَّا قَامَ صَلاَحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ مَلِكُ مِصْرَ وَالشَّامِ لِعَهْدِهِ

بِاسْتِرْجَاعِ ثُغُورِ الشَّامِ مِنْ يَدِ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ وَتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ من رِجْسِ الكُفْرِ وبِنَائه تَتَابَعَتْ أَسَاطِيلُهُمْ الكُفْرِيَّةِ بِالْمَدَدِ لِتِلْكَ الثُّغُورِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَرِيبَةٍ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، الَّذِى كَانُوا قَدِ اسْتَوْلَوا عَلَيْهِ ، فَأَمَدُّوهُمْ بِالْعَدَدِ وَالأَقْوَاتِ ، وَلَمْ تُقَاوِمْهُمْ أَسَاطِيلُ الإِسْكَنْدَرِيَةِ ، لاسْتِمْرَارِ الْغَلَبِ لَهُمْ فِى ذلكَ الْجَانِبِ الشَّرْقِى مِنَ الْبَحْرِيَةِ ، وَتَعَدُّدِ أَسَاطِيلِهِمْ فِيهِ ، وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيلٍ عَنْ مُمَانَعَتِهِمْ هُنَاكَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلُ . فَأَوْفَدَ صَلاَحُ الدِّينِ عَلَى أَبِى يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ لِعَهْدِهِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ رَسُولَهُ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنَ مُنْقِذٍ مِنْ بَيْتِ بَنِى مُنْقِذٍ مُلُوكِ شَيْزَرَ ، وَكَانَ مَلَكَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَبْقَى عَلَيْهِمْ فِى دَوْلَتِهِ ، فَبَعَثَ عَبْدَ الْكَرِيمِ مِنْهُمْ هَذَا إِلَى مَلِكِ الْمَغْرِبِ طَالِبًا مَدَدَ الأَسَاطِيلِ ، لِتَحُولَ فِى الْبَحْرِ بَيْنَ أَسَاطِيلِ الكفرةِ وَبَيْنَ مَرَامِهِمْ مِنْ إِمْدَادِ النَّصْرَانِيَّةِ بِثُغُورِ الشَّامِ ، وَأَصْحَبَهُ كِتَابَهُ إِلَيْهِ فِى ذلكَ مِنْ إِنْشَاءِ الْفَاضِلِ الْبِيسَانِى يَقُولُ فِى افْتِتَاحِهِ .

« فَتَحَ اللهُ لِسَيِّدِنَا أَبْوَابَ الْمَنَاجِحِ وَالْمَيَامِنِ » حَسْبَمَا نَقَلَهُ الْعِمَادُ الأَصْفَهَانِىُّ فِى كِتَابِ الْفَتْحِ الْقَيْسِي .

فَنَقِمَ عَلَيْهِمْ الْمَنْصُورُ تَجَافِيهِمْ عَنْ خِطَابِهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَسَرَّهَا فِى نَفْسِهِ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَنَاهِجِ الْبِرِّ وَالْكَرَامَةِ وَرَدَّهُمْ إِلَى مُرْسِلِهِمْ ، وَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى حَاجَتِهِ مِنْ ذلكَ . وَفِى هذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِ مَلِكِ الْمَغْرِبِ بِالأَسَاطِيلِ ، وَمَا حَصَلَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ فِى الْجَانِبِ الشَّرْقِىِّ مِنْ هذَا الْبَحْرِ مِنَ

الاسْتِطَالَة . وَعَدَم عِنَايَةِ الدُّوَلِ بِمِصْرَ وَالـشَّامِ لِذلِكَ الْعَهْدِ وَمَا بَعْدَهُ لِشَأْنِ الأَسَاطِيلِ الْبَحَرِيَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ مِنْهَا لِلدَّوْلَةِ .

وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو يَعْقُوبَ الْمَنْصُورُ ، وَاعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِيـــــنَ ، وَاسْتَوْلَتْ أُمَمُ الْجَلاَلِقَةِ عَلَى الأَكْثَرِ مِنْ بِلاَدِ الأَنْدَلُسِ ، وَأَلْجَأُوا الْمُسْلِمِينَ إِلَى سِيفِ[1] الْبَحْرِ ، وَمَلَكُوا الْجَزَائِرَ الَّتِـــي بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِي ، قَوِيَتْ رِيحُهُمْ فِي بَسِيطِ هذَا الْبَحْرِ ، وَاشْتَدَّتْ شَـوكَتُـهُم ، وَكَثُرَتْ فِيهِ أَسَاطِيلُهُم ، وَتَرَاجَعَتْ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ إِلَى الْمُسَاوَاةِ مَعَهُمْ ، كَمَا وَقَعَ لِعَهْدِ الـسُّلْطَانِ أَبِـي الْحَسَنِ مَلِكِ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ ، فَإِنَّ أَسَاطِيـلَهُ كَانَتْ عِنْدَ مَرَامِهِ الْجِهَادَ مِثْلَ عُدَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَعَدِيدِهِمْ .

ثُمَّ تَرَاجَعَتْ عَنْ ذلِكَ قُوَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِـي الأَسَاطِيــلِ لِضَعْفِ الـدَّوْلَةِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِ الْبَحْرِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْبَدَوِيَّةِ وَانْقِطَاعِ الْعَوَائِدِ الأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَرَجَعَ النَّصَارَى فِيــهِ إِلَى دِيـنِهِمِ الْمَعْرُوفِ مِنَ الدُّرْبَةِ فِيــهِ وَالْمِرَانِ عَلَيْهِ ، وَالْبَصَرِ بِأَحْوَالِهِ ، وَغَلَبِ الأُمَمِ فِـــي لُجَّتِهِ عَلَى أَعْوَادِهِ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِيــهِ كَالأَجَانِبِ ، إِلاَّ قَلِيــلاً مِنْ أَهْلِ الْبِلاَدِ السَّاحِلِيـةِ لَهـمُ الْمِرَانُ عَلَيْهِ لَوْ وَجَدُوا كَثْرَةً مِنَ الأَنْصَارِ وَالأَعْوَانِ ، أَوْ قُوَّةً مِنَ الدَّوْلَةِ تَســـــتَجِيشُ لَهُمْ أَعْوَانًا، وَتُوضِحُ لَهُمْ فِي هذَا الْغَرَضِ مَسْلَكًا . وَبَقِيَتِ الرُّتْبَةُ لِهذَا الْعَهْدِ فِي

---

(١) جانبه وساحله .

الدَّوْلَةِ الْغَرْبِيَّةِ مَحْفُوظَةٌ ، وَالرَّسْمُ فِى مُعَانَاةِ الأَسَاطِيلِ بِالإِنْشَاءِ وَالرُّكُوبِ مَعْهُودًا، لِمَا عَسَاهُ أَنْ تَدْعُوَ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الأَعْرَاضِ السُّلْطَانِيَّةِ فِى الْبِلاَدِ الْبَحَرِيَّةِ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَسْتَهِبُّونَ الرِّيحَ عَلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ . فَمِنَ الْمُشْتَهِرِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ عَنْ كُتُبِ الْحِدْثَانِ أَنَّهُ لاَبُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الْكَرَّةِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، وَافْتِتَاحِ مَا وَرَاءَ الْبَحْرِ مِنْ بِلاَدِ الإِفْرَنْجَةِ ، وَأَنَّ ذلِكَ يَكُونُ فِى الأَسَاطِيلِ . وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

فصل
فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها[1]

أعلم أن الحروب وأنواع المُقَاتَلة لم تـزل واقعةٌ فى الخليـقة منذ برأها الله . وأصلها إرادةُ انتقـام بعض البشر من بعض ، ويتعـصّب لكل منها أهلُ عصبيـته فإذا تذامروا[2] لذلك وتواقفت الطـائفتان ، إحـداهُما تطلب الانتقامَ ، والأُخرى تدافع . كانت الحرب . وهو أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمةٌ ولا جيل .

---

(١) ما يقـرره ابن خلدون هنا لاينطبق إلا على الشعوب التى عـاصرها وشهد أحـوالها ، وخاصة العرب والبربر . أما غيرها فلم يستقرئها ، ومن ثم لاتندرج أحكامه عليها . ونقص الاستقراء أكبر ما أخذ على ابن خلدون فى بعض فصول المقدمة .

(٢) تحاضوا على القتال .

وسببُ هذا الانتقــامُ فى الأكثرِ : إما غيرة ومنافـسةٌ ؛ وإما عدوانٌ ؛ وإما غضبٌ لله ولدينه ؛ وإما غضب للمُلْكِ وسعىٌ فى تمهيده .

فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائرِ المتناظرة .

والثّانى وهو العـدوانُ أكـثـر مـا يكون من الأُمم الوحْشـيّة السَّاكنينَ بالقفر كالعرب[1] والترك والتركـمان والأكراد وأشبـاههم ؛ لأنهم جعلوا أرزاقَهُم فى رِماحـهم : ومعاشَهم فيـما بأيدى غيرهم : ومن دافـعهم عن متاعه آذنوهُ بالحرب : ولا بُغْيَةَ لهم فـيما وراءَ ذلك من رتبةولا ملك وإنما همهم ونُصبُ أعينهم غَلَبُ الناس على ما فى أيديهم .

والثّالث هو المسمَّى فى الشَّريعة بالجهاد .

والرَّابع هو حروب الـدّول مع الخارجِين عليهـا والمانعين لطاعتـها . فهذه أربعة أصناف من الحروب الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة ؛ والصنفان الأخيرَان حروب جهاد وعدْل .

وصفةُ الحـروب الواقعةِ بين الخليـقَةِ منذُ أول وجودِهم على نوعين : نوعٍ بالزَّحف صفـوفًا ؛ ونوعٍ بالكَرِّ والفَرِّ . أما الذى بالزحف فهـو قتال

---

(١) يعنى الأعراب .

العجم كلهم على تعاقب أجيَالهم . وأما الذى بِالْكَرّ والفَرّ فهو قتال العرَب والبرْبر من أهل المغربِ .

وقتالُ الزحف أوثقُ وأشدّ من قتال الكَرّ والفر . وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القِدَاح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قُدُما . فلذلك تكون أثبتَ عند المصَارِع وأصدقَ فى القتال وأرهب للعدو ؛ لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع فى إزالته . وفى التنزيل ، ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1] .

أى يشد بعضهم بعضًا بالثبات . وفى الحديث الكريم ، « المؤْمنُ للمؤْمِن كالبُنْيانِ يشُدُّ بعضُه بعضًا » . ومن هنا يظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف[2] ؛ فإن المقصود من الصفّ فى القتال حفظُ النظام كما قلناه : فمن ولَّى العدوَّ ظهرَه فقد أخل بالمصاف : وباءَ بإثم الهزيمة إنْ وقَعت : وصار كأنه جرَّها على المسلمين : وأمْكَنَ منهم عدوَّهم ؛ فَعظُم الذنب لعموم المفسدة وتعدِّيها إلى الدين يخرْق

(١) آية ٤ من سورة الصف .

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (آيتى ١٥ ، ١٦ من سورة الأنفال).

سِيَاجه ؛ فعُدَّ مـن الكبائر . ويظهر من هذه الأدلة أن قتـالَ الزحف أشدُّ عند الشارع.

وأما قتـال الكرِّ والفر فليس فيه من الشـدَّة والأمنِ من الهزيمة ما فى قتال الزحف . إلا أنهم قد يتخذون وراءَهم فى القتال مصافًا ثابتًا يلجأُون إليه فى الكرِّ والفر ، ويقوم لهم مقام قتال كما نذكره بعد .

ثم إن الدُّول القديمة الـكثيرة الجنودَ المتَّسعة الممالـك كانوا يقسـمون الجيوش والعسـاكر أقساما يسمونهـا كراديس ، ويسوُّن فى كل كردوس[1] صفوفة . وسـبب ذلك أنه لما كثرت جنُودُهم الكثرة البالغـة وحشدوا من قاصـية النواحى اسـتدْعى ذلك أن يجهلَ بعـضهم بعـضًا إذا اختلطوا فى مجال الحربِ واعْتَورُوا مع عدوهم الطعنَ والضـربَ ، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النُّكْرَاءِ[2] وجَهْلِ بعضهم ببعض . فلذلك كانوا يقسمون العساكرُ جـموعًا ويضـمون المتعـارفين بعضهم لبعض ويرتِّبـونها قريبًا من الترتيب الطبـيعى فى الجهاتِ الأربع ورئيسُ العسـاكِر كلّها من سلطان أو قائد فى القلب . ويسـمون هذا الترتيب التَّعْبِئَةَ ، وهو وصـدْر الإسلام .

(١) « الكردوسة بالضم قـطعة عظيمـة من الخيل ، وكردس الخـيل جعلها كـتيبـة كتيـبة » (القاموس) .

(٢) النكراء المنكر والأمر الشـديد وقد استعملهـا ابن خلدون هنا بمعنى الجهل بالشيء وهو استعمال للكلمة فى غير معانيها الحقيقية .

فيجعلون بين يدَى الملك عسكرًا منفردًا بصفوفه متميزًا بقائده ورأيته وشعاره، ويسمُّونه المقدِّمَة ؛ ثم عسكرًا آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمته يسمونه الْمَيْمَنَةَ ؛ ثم عسكرًا آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميْسَرَة ؛ ثم عسكرًا آخر من وراءَ العسكر يسمونه السَّاقَةَ[1]؛ ويقف الملك وأصحَابه فى الوسط بين هذه الأربع ، ويسمُّون موقفَه القلْبَ. فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم ، إما فى مدًى واحدٍ للبصر أو على مسافةٍ بعيدة ، أكثرها اليومُ واليومَان بين كل عسكرين منها أو كيفَما أعطاهُ حال العساكر فى القلة والكثرة ، فحينئذ يكون الزَّحف من بعد هذه التعبئة.

وانظر ذلك فى أخبار الفتوحات وأخبار الدَّولَتين بالمشرق ، وكيف كانت العَساكرُ لعهد عبد الملك تتخلَّف عن رَحيله لبُعدِ المدَى فى التعبئة ، فَاحتيجَ لمن يَسُوقها من خلْفه وعينِ لذلك الحجَّاجَ بنَ يوسَفَ كما أشرنا إليه[2] هو معروف فى أخباره . وكان فى الدولة الأموية بالأندلس أيضًا كثيرٌ منه . وهو مجهولٌ فيما لدينا ، لأنَا إنما أدركنا دولاً قليلة العساكر لا تنتهى فى مَجالِ الحرب إلى التَّنَاكُر ، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معًا يجمعهم لدينا حِلَّةٌ أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قِرنَه[3] ويناديه فى حومة الحرب باسمة ولقبه ، فاستُغْنى عن تلك التعبئة .

---

(١) ساقة الجيش مؤخرته . وكأنها تسوقه سوقا .

(٢) فى الفصل السابق عند حديثه عن القساطيط والسياج » .

(٣) قرينه ونظيره .

(فصل) ومن مذاهب الكَرّ والفرّ فى الحروب ضربُ المصَافّ وراءَ عسكرهم من الجمادات والحيوانات العُجْم ، فيتخذونها ملجأ للخيالة فى كرِّهم وفرهم ، يطلبون به ثبات المُقَاتِلَة ليكون أدوم للحرب وأقرب إلى الغلب . وقد يفعله أهل الزحف أيضًا ليزيدَهم ثباتًا وشدة .

فقد كان الفرس ، وهم أهْل الزحف ، يتخذون الفيلة فى الحروب ويحمِّلون عليها أبراجهًا من الخشب أمثال الصرُوح ، مشحونةً بالمقاتلة والسلاح والرَّايات ، ويصفونها وراءَهم فى حومة الحرب كأنها حصونٌ فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقُهم .

وانظر ما وقَع من ذلك فى القَادسِيَّة ، وأن فارِس فى اليوم الثالث اشتدوا بها على المسلمين حتى اشتدت رجَالاَت من العرب فخالطوهم وبعجوها[1] بالسيوف على خرَاطِيمها ، فنفرت ونكَصَت على أعقابها إلى مرَابِطها بالمدائن ، فجفا معسكرُ فارس لذلك وانهزَمُوا فى اليوم الرابع .

وأما الرُوم وملوك القُوطِ بالأندلس وأكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الأسرّة ينصبون للملك سريره فى حومة الحرب ، ويَحُفُّ به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستِمَاتَةِ دونَه ، وترفع الرَّايات فى

---

(١) « بعجه كمنعه شقه » (القاموس) .

أركان السـرير ، ويحدق به سـياجٌ آخر من الـرماة والرَّجَّالة[1] ، فيعظم هيكل السرير ويصير فِئةً للمقاتلة وملجأً للكرِّ والفر .

وجعل ذلك الفُرسُ أيام الـقادسيـة ، وكان رستم جالـسًا على سرير نصبـه لجلوسه . حتى اختلفت صـفوفُ فارس وخالطه العـرب فى سريره ذلك ، فتحول عنه إلى الفرات وقُتِل .

وأما أهل الكَرِّ والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرَّحَّالة فيصُفُّون لذلك إِبلَهم والظَّهـر الذى يحمل ظعـائنهم فـيكون فِئَةً لهم ، ويسمُّونهـا المجبوذة[2] .

وليس أمة مـن الأمم إلا وهى تفعلُ ذلك فى حروبِـها ، وتراه أوثقَ فى الجولة ، وآمن من الغِرَّة والهزيمة . وهو أمرٌ مشاهد .

وقد أغـفلتهُ الدولُ لعـهدنا بالجـملة ، وآعتَاضُوا عنه بالظَّهـر الحامل للأثقال والفـساطيط يجـعلونها سـاقة من خلفهم ؛ ولا تغنـى غَنَاء الفيلة والإبل . فصارت العـساكر بذلك عُرْضَةَ للهزائم ، ومـستَشْعِرةً للفِرار فى المواقف .

---

(١) المشاة .

(٢) لأنها مجذوبة إلى الجيش ومشدودة به .

وكان الحـــرب أوَل الإِسلام كله زحـفًا . وكان إنمـــا يعـرفـون الكَرَّ والفر . لكن حملهم على ذلك أولَ الإِسلام أمران : أحدهما أن عدوَّهم كانوا يقاتلون زحفًا فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم ؛

الثانَى أنهم كانوا مُستَميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما رسَخ فيهم من الإِيمان . والزحفُ إلى الاستماتة أقرب .

وأول من أبطل الصفَّ فى الحـروب وصار إلى التـعبـئة كـراديس : مروانُ بنُ الحكم فى قتال الضَّحَّاك الخَارجىِّ والخُبَيْرىِّ بعده .

قال الطبرى لما ذكر قتال الحبيرى : « فولى الخوارجُ عليهم شيبانَ بن عـبـد العـزيز اليـشكرى ويلقب أبا الذَلْفـاءِ وقـاتَلهم مـروان بعـد ذلك بالكراديس وأبطلَ الصفَّ من يومـئذ » انتـهى . - فتنوسى قـتال الزحف بإبطـال الصَّف ، ثـم تنـوسى الـصَّفُّ وراءَ المُقَاتلَةِ بمـا داخل الـدول من الترف. وذلك أنها حـينما كانت بدويةً وسكناهم الخيام كـانوا يستكثرون من الإِبل وسكنى النساء والولِدان معهم فى الأحياءِ فلما حصلوا على ترف المُلْك وألفوا سكنى الـقصور والحـواضر وتركوا شـأن البادية والقفـر نسوا لذلك عهـد الإبل والظَّعائِن وصعُب عليـهم اتخاذها ، فخلّفـوا النساءَ فى الأسـفار ، وحـملهم الملك والترف عـلى اتخاذ الفـساطيط والأخـبيـة ،

فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية[1] . وكان ذلك صفتهم فى الحرب . ولا يغنى كل الغَنَاءِ لأنه لا يدْعُو إلى الاستماتة كما يدعوا إليها الأهل والمال . فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهَيْعَات وتُخْرَم صفُوفُهُم .

(فصل) ولَمّا ذكرناه من ضرب المصَافّ وراءَ العساكر وتأكده فى قتال الكَرّ والفَرّ ، صار ملوك المغرب يتخَذون طائفة من الافرنج فى جندهم ، واختُصُّوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كلّه بالكَرّ والفَرّ . والسلطان يتأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون رِدْءًا للمقاتلة أمامه ، فلابد وأن يكون أهل ذلك الصفّ من قوم متعودِّين للثبات فى الزحف ، وإلا أجفلوا[1] على طريقة أهل الكر والفر ، فانهزم السلطانُ والعساكر بإجفالهم ؛ فاحتاج الملوكُ بالمغرب أن يتخذوا جندًا من هذه الأُمة المتعوِّدة الـباتَ فى الزحف وهم الإفرنج ، ويرتبون مصافَّهم المحدق بهم منها . هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر . وإنما استخفوا ذلك للضرورة التى أريناكها من تخوف الإجفال على مصافّ السلطان . والإفرنج لايعرفون غير الثبات فى ذلك ، لأن عادتَهم فى القتال الزحفُ ، فكانوا أقوم بذلك من غيرهم . مع أن الملوكَ فى المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب

---

(١) علق الهورينى على الكلمة بقوله « مراده بالأبنية الخيام ، كما يدل له فى قوله فى فصل الخندق الآتى قريبًا « إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم » .

(٢) أجفل القوم أسرعوا فى الهرب .

والبربرَ وقتالهم على الطَّاعة ؛ وأما فى الجهادِ فلا يستعينُون بهم حذرًا من ممالأتهم على المسلمين . هذا هو الواقعُ بالمغـرب لهذا العهـد ؛ وقد أبْدينا سببه . واللهَ بكلِّ شىءٍ عليمٌ .

(فصل) وبلغنا أن أُممَ الترك لهذا العهد قتالُهم مناضلةٌ بالسهام وأن تعبئةَ الحرب عندهم بالمصَافّ ، وأنهم يقسـمون بثلاثة صفوف ، يضربون صـفًا وراءَ صفٍّ ، ويترجَّلون عن خـيـولهم ، ويفرغـون سـهامـهم بين أيديهم، ثم يتَنَاضَلون جلوسًا ، وكـل صف رِدْءٌ للذى أمامـه أن يكْبِسَهُم العدو ، إلى أن يتهيأ النصرُ لإحـدى الطائفتين على الأخرى . وهى تعبئةٌ محكمة غريبة .

(فصل) وكـان من مذاهب الأُوَل فى حـروبهم حفـرُ الخَنَادق على معسكرهم عندمـا يتقاربون حذرًا من مَعَرَّة البَيَاتِ[1] والهجوم على العسكر بالليل لما فى ظلمته ووَحْشته من مضَاعفة الخوف فيلوذ الجيشُ بالفرار وتجِد النفوس فى الظلمة سترًا من عاره ، فإذا تساوَوْا فى ذلك أُرْجِف[2] العسكر ووقعت الهزيمةُ . فكانوا لذلك يحتـفرون الخنادقَ على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيـتهم ، ويديرُون الحـفائر نطاقًا عليهم مـن جميع جـهاتهم ، حرصًا أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا .

---

(١) الإيقاع بالعدو ليلا .

(٢) من معانى الإرجاف . الاضطراب والزلزلة .

وكانت للدُّول فى أمثال هذا قوةٌ وعليه اقـتدارٌ باحتشاد الرجالِ وجمع الأيْدى عليه فى كل منزلٍ مـن منازلهم ، بما كانوا عليه من وفُور العـمران وضخَامة الملك . فلما خَرِب العمران وتبعه ضعفُ الدولة وقلَّة الجنود وعدم الفَعلَة نُسِى هذا الشأن جُمْلَةً كأنه لم يكن . والله خيرُ القَادِرين .

فصل
فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها

اعلم أن الجبـاية أوَّلَ الدولةِ تكونُ قليلَة الوازائعِ كـثيـرة الجملة [١] ، وآخِرَ الدولة تكونُ كثيرةَ الوزَائع قليلَة الجُملَة .

والسـببُ فى ذلك : أن الدولة إن كـانت علـى سنَن الدِّين فليـست تقتـضى إلا المغارِمَ الشـرعيةَ من الصـدَقَات والخَرَاج والجِزْية ، وهى قليلةُ الوزَائع ، لأن مقدارَ الزكَاة من المال قليلٌ كمـا علمت ، وكذا زكَاةُ الحبوبِ والماشية ، وكـذا الجزيةُ والخراجُ وجميعُ المغارم الشـرعيَّةِ ، وهى حدود لا تَتعدَّى .

وإنْ كانتْ على سنَن التغلُّب والعصبيَّة فلابدَّ من البدَاوة فى أولها كما تقدم ، والبـداوةُ تقتضى المسـامحةَ والمكارَمَةَ وخـفضَ الجناحِ والتَّجافى عن

---

(١) جمع وزيعة وهو ما يتوزع على الأشخاص .

أمـوالِ الناس ، والغفلةَ عنِ تحـصـيل ذلك إلا فى النَّادر ، فيـقل لذلكَ مقدارُ الوظيفـة الواحدةِ والوَزِيعةِ التى تُجمع الأموالُ من مـجموعِها . وإذا قلَّت الوزائعُ والوظائف على الرَّعـايا نشطوا للعَمل ورغِبـوا فيـه ، فيكثـر الاعتمادُ . ويتزايدُ مـحصولُ الاغتباط[1] بقلة المَغْرَم ، وإذا كثـرَ الاعتـمادُ كثـرت أعدادُ تلك الوظائف والوزائعِ ، فكثرة الجِبَاية التى هى جـملَتُها .

فإذا استمرَّت الدولةُ واتصلت ، وتعاقبَ ملوكَهـا واحدًا بعد واحدٍ واتصفوا بالكَيس ، وذهب شر البـداوة والسذَاجة وخُلقُهـا من الإغْضَاءِ والتَّجافى ، وجاءَ المُلْكُ العَضُوض والحضـارةُ الداعية إلى الكَيْس ، وتخلق أهلُ الدولة حينئذ بخلق التحذْلُق[2] وتكثرت عوائدُهم وحـوائجهم بسبب ما انغـمسوا فيـه من النَّعيم والترَف ، فـيكثرُون الوظَائف والوزَائِع حينئـذ على الرَّعايا والأكَرَة[3] والفلاَّحين وسائرِ أهل المغَارم ، ويزيدون فى كل وظيفةٍ ووزيعةٍ مقـدارًا عظيمًا لتكثرَ لهم الجبـاية ، ويضعون المكُوسَ على المبـايعات وفى الأبوابِ كما نذكر بعد ، ثم تتدرَّج الزيادات فيـها بمقدارٍ بعد مقدار لتدرَّج عوائِد الدَّولة فى التَّرفِ وكثرةِ الحاجات والإنفاق بسببه ، حتى تثقل المغَارِمَ على الرَّعايا وتنـهضِمَ وتصيـر عادةً مفروضـة ، لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً ولـم يشعر أحـدٌ بمن زادهَا على التَّعيين ولا مَن هُوَ واضِعها ،

(١) الغبطة حسن الحال والاغتباط التبجح بالحال الحسنة (من المصباح والقاموس) .
(٢) حذلق : أظهر الحذلق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق .
(٣) الأكار : الحراث والجمع أكرة . والمعنى من يشتغلون بالزراعة .

إنّما تثبتُ على الرَّعايا[1] (كأنها عادةٌ مفروضةٌ ثم تزيد إلى الخروج عن حدِّ الاعتدال فتذهب غبطةُ الرَّعايا)[1] فى الاعتمارِ لذهاب الأمَل من نفُوسهم بقلة النَّفع ، إذا قَابَل بين نفْعه ومغَارمه وبينَ ثمرته وفائدته ، فتنقبض كثيرٌ من الأيدى عن الاعتمارِ جملةً ، فتنقُصُ جملة الجِباية حينئذٍ بنقصان تلك الوَزَائع منها . وربما يزيدُون فى مقدار الوظَائف إذا رأوا ذلك النقص فى الجباية ويحسبونَه جبرًا لما نقصَ ، حتى تنتهى كلٌّ وظيفة ووزَيعةٍ إلى غَايةٍ ليس وراءَها نِفعٌ ولا فائِدة ، لكثرةِ الإنفاق حينئذٍ فى الاعتمار وكثرةَ المغارِمِ وعدمِ وفَاءِ الفائِدة المرجوَّة به ، فلا تزالُ الجملةُ فى نقصٍ ومقدارُ الوزائعِ والوظَائف فى زيادة لما يعتقدونَه من جبرِ الجملة بها ، إلى أن ينتقَصَ العمرَان بذهاب الامال من الاعتمار ، ويعودَ وبالُ ذلك على الدَّولةِ ، لأن فائدة الاعتْمار عائدةٌ إليها .

وإذا فهمتَ ذلك علمتَ أن أقوى الأسباب فى الاعتمارِ تَقْليلُ مقدَارِ الوظَائِفِ على المعتَمِرين ما أمكن ؛ فبذلك تنْبسطُ النُّفوسُ إليه لِثقتها بإدرَارِ المنفعة فيه . والله سبحانه وتعالى مالِكُ الأُمور كلها ، و ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] .

(١) انفردت : « التيمورية » بهذه الزيادة التى لا يستقيم بدونها المعنى.

(٢) آخر آية من سورة يس .

فصل
فى ضرب المكوس أواخر الدولة

أعلم أن الدولَة تكونُ فى أولَها بدَوِيَّةً كمـا قلنا ، فتكون لذلك قليلةَ الحاجَاتِ لعدم التَّرفِ وعوائِدِهِ ، فيكون خَرْجُها وإنفاقُها قليلاً ، فيكون فى الجبايةِ حينئذٍ وفاءٌ بأزيد منها ، بل يفضلُ منها كثيرٌ عن حاجاتِهم .

ثم لا تلبثُ أن تأخـذَ بدينِ الحضـارةِ فى الترف وعـوائِدِها ، وتجرى على نَهج الدّولِ السَّابِقَة قبلَهـا ، فيكثر لذلِك خـراج أهل الدولةِ ، ويكثر خراجُ السُّلطان خصـوصًا كثرةً بالغة بنفقته فى خـاصتِّه ، وكثرة عطائه ، ولا تفِى بذلك الجِبَايَةُ . فتحتاج الدولةُ إلى الزيادةِ فى الجباية لما تحتاج إليه الحاميَة من العطَاءِ والسّلطانُ من النفقة ؛ فيزيد فى مقدَار الوظَائف والوزَائِع أولاً كما قلناه ، ثم يزيد الخَرَاجُ والحاجاتُ والتدريجُ فى عوائد الترف وفى العطاءِ للحَامـية ، ويدرك الدولة الهَرَمُ ، وتضـعف عصابتـها عن جـبايَةِ الأَمْوالِ منَ الأعـمالِ والقَاصيَة ، فـتقِلُّ الجـبايَة وتكثـر العوائدُ ، ويكثـرُ بكثـرتِها أرزاقُ الجند وعطاؤهم . فـيستـحدث صـاحب الدولة أنواعًا من الجِبَاية يضربها على البِياعَات ، ويفرِض لـها قدرًا معلومًا على الأثمان فى الأسـواقِ ، وعلى أعيـان السّلعِ فى أمـوال المدينَة . وهو مع هذا مـضطرٌ لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرةِ العطاءِ مع زيَادة الجُيوش والحَامِية.

وربما يزيد ذلك في أواخر الدّولة زيادةً بالغة ، فتكْسدَ الأَسواقُ لفساد الآمال ، ويؤْذن ذلك باختلاَل العُمْران ، ويعود علَى الدَّولة ؛ ولايزال ذلك يتزايدُ إلى أن تضْمَحِلَّ .

وقد كان وقعَ منه بأمصار المشرقِ في أُخريات الدّولة العباسيّة والعُبَيْدية كثيرٌ ، وفرضت المغارم حتَّى على الحَاجِّ في الموْسم ، وأسقطَ صلاحُ الدين أيوبِ تلك الرُّسومَ جملةً وأعاضَها بآثار الْخَير . وكذلِكَ وقع بالأندلس لعهدِ الطَّوائف حتى محارَسْه : يوسف بن تاشفين أميرُ المرابطين. وكذلك وقع بأمصار الجَرِيدِ بإفْرِيقيَة لهذا العهد حين استبدَّ بها رؤسَاؤها . والله تعالى أعلم .

فصل
في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم أن الدولة إذا ضاقت جبايتُها بما قدمناه من التَّرفِ وكثرةِ العوائد والنفقات وقَصَّرَ الحاصلُ من جبايتها على الوفاءِ بحاجاتها ونفقاتها ، واحتاجت إلى مزيدِ المال والجِبَاية ، فتارةً توضع المكوسُ على بياعات الرّعايا وأسواقِهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله ، وتارةً بالزيادة في ألقاب الْمكوس إن كان قدإستحدث من قبل ؛ وتارة بمقاسمة العُمَّال

والجبَاهُ وامْتِكَاكِ[1] عظامِهِم ، لَمَّا يرون أنهم قـد حـصلُوا على شيءٍ طائلٍ من أمـوال الجبَاية لايظهـرُ الحُسْبان وتارة بـاستـحدَاث التِّجـارة والفلاَحـة للسّلطان على تسمية الجباية[2] ، لَمَّا يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلاَّت مع يَسَارة أمـوالهم ، وأن الأرباح تكون على نسبة رِؤُوسِ الأموَال . فـيأخـذون فى اكتساب الحـيوان والنَّبات لاسـتغـلاله فى شراءِ البضائـع والتعرّض بها لحوالـة الأسواقِ ويحسبونَ ذلك مـن إِدْرَارِ الجباية وتكثـيـر الفـوائد ، غلطٌ عظيم وإدخـال الضَّرر على الرّعـايا من وُجـوه متعدِّدة .

فأولاً : مضايقـة الفلاحين والتجَّار فى شراءِ الحيوان والـبضائع وعدم تيسـير أسبـاب ذلك ؛ فإن الرَّعـايا متكافئـون ، فى اليَسَار متـقاربُون ، ومزاحمةُ بعضهم بعضًا تنتهى إلى غاية موجُودهم أو تقرُب ، وإذا رافقَهم السلطان فى ذلك ، ومالُه أعظم كثيرًا منهم ، فلا يكادُ أحدٌ منهم يحصل على غـرضه فى شيءٍ من حـاجاته ، ويدخل على النُّفـوس من ذلك غمٌّ ونكد .

ثم إن السـلطان قَد ينتزع الكثيرَ مَن ذلك إذا تعرَّض له غضًا أو بأيسر

(1) مكة وامتكه . . . امتصه جميعه (القاموس) .

(2) أى باسم الجـباية أو كـمـا نقول نحـن : على أنها ضـرائب غـير مـباشرة تجبى من المستهلكين.

ثمن ، (إذ)[1] لا يجد من ينافسه فى شرائه فيبخس ثمنَه على بائعه .

ثم إذا حصلَ فوائدُ الفلاحة ومُغلُّها كله من زرع أو حرير أو عَسَل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلاَّت ، وحصلت بضائعُ التجارة من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالَة الأسواق ولا نفاق البياعات لما يدعوهم إليه تكاليف الدولة ، فيكلفونَ أهلَ تلك الأصنَاف من تاجرٍ أو فلاَّح بشَراء تلك البضائع ، ولا يرضَون فى أثمانها إلا القِيَمَ وأزيد فيستوعبون فى ذلك ناض[2] أموالِهم وتبقى تلك البضائعُ بأيديهم عُرُوضًا جامدَة ويمكثون عُطُلاً من التجارةَ التى فيها كسبُهم ومعاشُهم . وربما تدعوهم الضرورةُ إلى شيءٍ من المالِ فَيبيعون تلك السلع على كساد من الأسَواق بأبخسِ ثمن . وربما يتكرَّرُ ذلك على التاجرِ والفلاح منهم بما يُذْهِبُ رأسَ ماله ، فيقعد عن سَوقه ، ويتعدد ذلك ويتكرَّر ، ويدخل به على الرَّعايا من العَنَت والمضايقَةَ وفسادَ الأرباح ما يقبضُ آمالهم عن السعى فى ذلك جُمْلَةً ويؤدِّى إلى فساد الجباية ، فإن معظم الجباية إنما هى من الفلاَّحين والتجار ، لاسيما بعد وضع المكوسِ ونموُّ الجبايَة بها ؛ فإذا انقبض الفلاَّحون عن

---

(١) فى جميع النسخ « أو لا يجد » وهو تحريف كما لايخفى .

(٢) الناض : الدرهم والدينار (القاموس) .

الفلاحَة وقعد التـجَّار عن التجارَة ، ذهبت الجبايةُ جـملةً أو دخلها النقصُ المتفاحش[1] .

وإذا قَايَس السلطَان بين مـا يحصل له من الجبـاية وبين هذه الأرباح القَليلة وجدها بالنسبة إلى الجبـاية أقلَّ من القليل . ثم إنه ولَو كان مفيدًا فيذهب له بحظ عظيم من الجَبـاية فيما يعانيـه من شرَاءٍ أو بيع ؛ فإنه من البعيد أن يوجـد فيه من المكس . ولو كان غيرُهُ فى تلك الـصفقات لكان تكسُّبًا كلها حـاصلاً من جهة الجـبايَة . ثم فيه التعـرضُ لأهل عُمرانه ، واختلالُ الدولة بفسـادهم ونقصه ؛ فإن الرعايا إذا قعدُوا عن تثْمير أموالهم بالفِلاحة والتجارة نقِصبتْ وتلاشت النفقاتُ ، وكان فيها إتلافُ أحوالِهم، فافهم ذلك .

وكان الفرس لايملّكُون عليهم إلاّ من أهل بيت المملكة ، ثم يختارونه من أهل الفضل والدِّين والأدب والسخاءِ والشجاعة والكرم ، ثم يشترطون عليه مع ذلك العـدلَ ، وأن لايتخذ صنعـةً فيضـر بجيرَانه ، ولا يتـاجر

(١) يعنى أن حاشـية السلطان بعد أن تحصل على السلـع لا تعرضها فى الأسـواق لتسرى عليها قوانين العرض والطلب ، بل تستدعى الـتجار وتلزمهم بشرائها بأثمان باهظة ، فتـمتص بذلك أموالـهم ، وتبقى هذه البضـائع جامدة بأيـديهم ، إذ لا يجدون من يشتريها منهم بأثمان مجزية ، فتتعطل تجارتهم التى فيها كسبهم ومعاشهم .

فيحب غـلاءَ الأسعار فى البضَائع وأن لايستـخدِم العبيدَ فـإنهم لايُشيرون بخير ولا مصلَحة .

وأعلم أن السلـطانَ لا يُنْمِى مـاله ولا يُدِرُّ مـوجـودَهُ إلا الجـبـايةُ ؛ وإدرارها إنما يكون بالعدل فى أهل الأمـوالِ ، والنَّظرِ لهم بذلك ؛ فبذلك تنبسط آمالـهم ، وتنشرح صدُورُهم للأخذ فى تثمـير الأموال وتنميـتها ؛ فتـعظم منها جـبايةُ السلطان . وأما غـير ذلك من تجـارة أو فلْح فإنما هو مضـرةٌ عاجلة للرعايا وفـسادٌ للجباية ونقصُ لـلعمارة . وقد ينتـهى الحال بهؤلاء المنسلخين للتـجارة والفلاحة من الأمـراءِ والمتغلبين فى البلدان أنهم يتـعـرضـون لشراءِ الغـلاَّت والسلـع من أربَابهـا الواردين على بلَدهم ، ويفرضـون لذلك من الثّمن ما يشاؤون ، ويبـيعونها فى وقْتـها لمن تَحتَ أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشدُّ من الأولى وأقرب إلى فساد الرعيَّة واختلالِ أحوالهم . وربما يحمل السلطانَ على ذلك مَنْ يُداخله من هذه الأصناف - أعنى التـجار والفـلاحين - لما هى صناعتُه التى نـشأ عليها ، فيحمل السلطانَ على ذلك ويضربُ معه بسهـم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعًا ، سِيَّما مع ما يحصلُ له من التجارة بلا مَغْرم ولا مكْس ، فإنها أجدرُ بنموُّ الأموال ، وأسـرع فى تثميره ؛ ولا يفهم ما يدخلُ على السلطان من الضر بنقص جـبايَته . فينبـغى للسلطان أن يحذرَ

من هؤلاء ، ويُعرِضَ على سِعَايتهم المضرة بجبايته وسلْطانه . والله يلهمنَا رشد أنفسنا ، وينفعنا بصَالح الأعمال . والله تعالى أعلم .

فصل
فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلَم أن العدْوانَ على الناس فى أمـوالهم ذاهبٌ بآمالهم فى تحصـيلها واكتسابِهـا لما يرونَه حينئذ من أن غَايتَها ومصيـرهَا انتهابُها من أيديهم . وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابهـا وتحصيلهَا انقبضتْ أيديهم عن السَّعى فى ذلك . وعلى قدْر الاَعـتداء ونسبتـه يكونُ انقباضُ الرّعـايا عن السعى فى الاكتساب فإذا كان الاعتداءُ كـثيرًا عامًا فى جميع أبوابِ المعَاشِ كان القُعُودُ عن الكسبِ كذلك لذهابه بالآمالِ جـملةً بدخوله من جميع أبوابهَا . وإن كان الاعـتداءُ يسيرًا كـان الانقباض عن الكسب علـى نسبته . والعـمران ووفوره ونَفَاق أسواقه إنما هو بالأعمالِ وسعْى الناس فى المصالحِ والمكاسبِ ذاهبين وجَائينَ . فـإذا قـعـدَ الناس عن المعـاش وانقبـضتْ أيديهم عن المكاسبِ كَسدتْ أسواقُ العمرانِ ، وانتقضتْ الأحوال وابْذَعَرَ[1] الناس فى الآفاق من غير تلك الإِيَالَة فى طلب الرزّق فيـما خرجَ عن نطاقها . فخفَّ ساكن القطرِ ، وخلت ديارُه ، وخـربتْ أمصارُه ، واختل باخـتلاله حالُ

---

(١) ابذعروا : تفرقوا وفروا .

الدولة والسّلطان ؛ لما أنها صـورةٌ للعمران تفسـد بفسادِ مادتـها ضرورةً .
وانظر فى ذلك ما حكاه المسـعودى فى أخبار الفـرس عن المُوبذَان صاحب الدين عندهم أيام بهْرَام بن بهْرَام ، وما عرّض به للملك فى إنكار ما كان عليـه من الظُّلم والغفْلةِ عن عـائدته على الدولة ، بضرب المثـال فى ذلك علَى لسَانِ الْبوم حين سمع الملك صوتَها وسأله عن فهم كلامها فقال له : إن يومًا ذكرًا يَرُومُ نكاح بُوم أُنثى ، وأنها شرطَت عليـه عشرين قرية من الخَرابِ فى أيام بهْرَام فـقبل شـرطهـا ؛ وقال لهـا : إن دامت أيام الملك أقطعـتُكِ ألف قرية ، وهذا أسـهلُ مرام . فتنبـه الملك من غفـلته وخَلاَ بالمَوبذَانِ وسـأله عن مُراده ، فـقال : أيهـا الملكُ إن المُلكَ لايتِم عـزُّه إلا بالشريعة ، والقَيـامِ لله بطَاعته ، والتصرف تحت أمـرِهِ ونهيه ؛ ولا قِوام للشريعـة إلا بالمَلِكِ ؛ ولا عزَّ للمَلكِ إلا بالرجالِ ؛ ولا قـوام للرّجال إلا بالمال ؛ ولا سبيلَ إلى المالِ إلا بالعمَارة ؛ ولا سبيل للعمَارة إلا بالعدْل .
والعدلُ الميزَانُ المنصـوبُ بين الخليقة ، نصبـه الربُّ وجعل له قيِّمًا ، وهو الملك . وأنتَ أيهـا الملكُ عـمـدتَ إلى الضِّيـاع فانـتزعتَهـا من أربَابهـا وعُمَّارها؛ وهم أربابُ الخراج ومن تؤْخذُ منهم الأموال ، وأقْطَعتهَا الحاشيةَ والخدمَ وأهل البطَالة ، فـتركوا العـمارة ، والنَّظر فى العـوَاقبِ وما يُصلِحُ الضِّياعَ ، وسُومِحوا فى الخـراج لقربهم من الملكِ . ووقع الحيف علَى من بَقِى منْ أربابِ الخـراَج وعُمَّار الضيـاع ؛ فـانجلوا عن ضِياعـهم ، وخلَّوا دِيَارهم ، وآووا إلى ما تعَذَّر من الضِّياع فسكنوها ، فقلتْ العمارة وخربتْ

الضِّيَاع وقلت الأمْوالُ وهلكت الجنود والرعِيَّةُ وطمع فى ملك فارِسَ من جاورهم من الملوك لعلْمِهم بانقطاع المواد التى لا تستقيمُ دعائم الملك إلا بهَا .

فلما سمع الملِكُ ذلك أقبلَ على النظر فى ملكه ، وانتزِعت الضِّيَاعُ من أيدى الخاصَّة ورُدَّت على أربابِهـا ، وحُملوا على رُسُومهم السالفة وأخذُوا فى العِمارة، وقُوى من ضَعُفَ منهم ، فَعَمرت الأرضُ ، وأخصبت البلادُ وكثرت الأموال عند جباة الخَرَاجِ ، وقويت الجنُود ، وقطعت موادُّ الأعدَاءِ ، وشحنت الثغُور ، وأقبلَ الملك علىَ مباشرَة أموره بِنَفْسه ، فحسنت أيَّامه ، وانتظم ملْكه . فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران ، وأن عائدة الخرابِ فى العمران على الدَّولة بالفسَادِ والانتقاضِ .

ولا تنظرْ فى ذلك إلى أنَّ الاعتِدَاءَ قد يوجد بالأمصارِ العَظيمة من الدُّول التى بها ، ولم يقع فيها خرابٌ واعلم أن ذلك إنما جاءَ من قبل المناسبةِ بين الاعتداءِ وأحوال أهل المِصْر . فلما كان المصرُ كبيرًا وعمرانه كثيرًا وأحواله متسعةً بما لاينحصرُ ، كان وقوعُ النقصِ فيه بالاعتداءِ والظلم يسيرًا ؛ لأن النقص إنما يقعُ بالتدريج . فإذا خَفِى بكثرةِ الأحوال واتساعِ الأعمال فى المصْر لم يظهر أثرهُ إلا بعدَ حين . وقد تذهب تلك الدولة المعتديةُ من أصلها قبل خَرَاب المصْر ، وتجىء الدولةُ الأخرى ، فترقعه

بِجدَّتها ، وتجبر النَّقص الذى كان خفـيًا فيه ، فلا يكاد يشعرُ به ، إلا أن ذلك فِى الأَقَلِّ النَادِر .

والمرادُ من هذا أن حصولَ النقص فى العمرَان عن الظُّلم والعدوان أمر واقعٌ لابد منه لما قدمناه ووبَالُه عائدٌ على الدول .

ولا تحسـبنَّ الظلمَ إنما هو أخذُ المال أو الملك من يَد مـالِكِه من غـير عِوَض ولا سبَب كما هو المشهورُ ، بل الظلم أعم من ذلك . وكلَّف من أخذ ملكَ أحد أو غصبه فى عمله أو طَالَبه بغير حق أو فرض عليه حقًا لم يفرضـه الشَّرع فقد ظلمه . فَجباةُ الأموال بغيـر حقها ظَلَمَةٌ ، والمعـتدُون عليها ظَلمة ، والمنتبُون لهـا ظَلَمةٌ ، والمانعون لحقوق الناس ظَلَمةٌ وغُصَّابِ الأمـلاك على العمـوم ظَلمةٌ ؛ ووبال ذلك كـله عائدٌ على الدولة بخـراب العمران الذى هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله .

واعلَمْ أنَّ هذه هى الحكمةُ المقصُودَةُ للشَّارِع فى تحريم الظُّلم ، وهو ما ينْشَأ عنه من فسادَ العمرَان وخَرَابِه ، وذلك مؤْذِنٌ بانقطاع النوعِ البشرىِّ ، وهى الحكمةُ العامَّةُ المراعـاةُ للشَّرع فى جميع مقـاصِدِه الضَّروريّة الخمسَة ، من حفظِ الدِّين والنفسِ والعقْلِ والنَّسلِ والمال . فلما كان الظلمُ كمَا رأيتَ مُؤْذنًا بانقطاع النَّوع لما أدى إليه من تخريبِ العُمرَان ، كانت حكمةُ الحظْرِ فيه موجُودةً ، فكان تحريمُه مهِمًّا . وأدِلَّته مـن القرآنِ والسُّنَّةِ كثيرةٌ ، أكثرُ من أن يأخذَها قَانونُ الضبّطِ والحَصْرِ .

ولو كان كلٌّ واحـد قادرًا عليه لوضع بإزائه من العقُوبَات الـزَّاجرة ما وضع بإزاءِ غيره من المفْسِدَات للنَّوْعِ ، التى يقدرُ كل أحد على اقْترافها من الزِّنا والقتلْ والسُّكر ، إلاَ أن الظلم لايَقْدِر عليه إلا من لا يُقْدَر عليه، لأنه إنما يقع من أهلِ القُدرَة والسُّلطان . فـبُولغ فى ذَمِّه وتكرِيرِ الوَعـيد فـيه، عسـى أن يكـونَ الوازعُ فيـه للقادرِ علَيـه فى نفْسِه . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1] .

وَلاَ تقولنَّ إن العقُوبـةَ قد وضعت بإزَاءِ الحِرَابة[1] فى الشَّرع ، وهى من ظلم القـادِر ؛ لأن المحارِبَ زَمن حِرابـته قـادر . فإن فى الجـوابَ عن ذلك طريقين : أحدهما أن تقول : العقوبة على ما يقترفه من الجنَايَاتِ فى نفس أو مالٍ على ما ذَهب إليه الكثيـرُ ، وذلك إنما يكونُ بعدَ القدْرَة عليه والمطَالَبـة بجِنَايَته ، وأمـا نفسُ الحِرَابَةِ فـهى خِلْوٌ من العقـوبَة . الطريقُ الثانى أن تقولَ : المحاربُ لا يوصف بالقدرة ؛ لأنَّا إنما نعنى بقدرَةِ الظَّالم اليدَ المبـسوطَةَ التى لا تعارِضُهـا قدرة ؛ فهى المؤْذنَة بالخَراب ؛ وأمـا قدرَةُ المحارب فإنما هى إخَافَةٌ يجـعلها ذريعةً لأخذِ الأموالِ ؛ والمدافَعـةُ عنها بيد

---

(١) آخر آية ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) الحرابة هى قطع الطريق . وعقوبتها القتل أو الصلب أو كلاهما معًا ولكل عقوبة حالتها التى تجد تفصيلها عند الفقهاء .

الكلُّ موجودَةٌ شـرعًا وسياسةً ؛ فليســت من القدر المؤْذِنِ بالخرَاب . والله قادرٌ على ما يَشَاءَ .

(فـصل) ومن أشَدِّ الظُّلمات وأعظَمِهـا فى إفسَاد العمـرَانِ تكليفُ الأعمالِ وتسخيرُ الرَّعايا بغير حقٍّ . وذلك أن الأعمالَ من قبيل المتموّلاتِ كما سنُبين فى باب الرزق[1] ؛ لأن الرِّزقَ والكسب إنما هو قِيمُ أعْمالِ أهْلِ العُمْرَان . فإذًا مَساعِيهم وأعمـالُهم كلُّها متموّلات ومكَاسِب لهم ، بل لا مكاسب لهم سِوَاها ؛ فـإن الرَّعـيةَ المعـتـمِلِين فى العـمَارة إنما معـاشُهم ومكاسِبُهم من اعتمالِهِم ذلك . فإذا كُلِّفـوا العملَ فى غيرِ شأنهم واتُّخِذوا سُخْرِيًا فى مـعاشـهم بطل كسـبُهم واغْصبـوا قيـمةَ عـملهم ذلك ، وهو متمولُهم فدخلَ عليهم الضَّررُ ، وذهـب لهم حظٌّ كبيرٌ من معاشِهِم ، بل هو معاشُهم بالجملة . وإن تكرَّرَ ذلك أفسـدَ آمالَهم فى العمارة وقعدُوا من السعى فـيهـا جملةً ؛ فأدَّى ذلك إلـى انتقاضِ العـمران وتخـريبِه ، والله سبحانَه وتعالى أعلمُ وبه التَّوفيق .

(فصل) وأعظمُ من ذلك فى الظُّلم وإفسـادِ العمرانِ والدَّولة التسلُّط على أمـوالِ النَّاسِ ، بشـراءِ مـا بين أيْديهم بأبخَسِ الأثمـانِ ، ثم فَرْضِ البضَائعِ علَيهم بأرْفع الأثمانِ على وجه الغصب والإكراه فى الشراءِ والبَيْعِ،

---

(١) يقصد الباب الخامس « فى المعاش ووجوهه .... » الخ .

وربما تُفرض عليـهم تلك الأثمانُ على (التَّراخِى [1] والتأجيل ، فيتعلَّلُونَ فى تلك الخسَارَة التى تلحـقهم بما تحـدثهم المطامعُ من جَبْرِ ذلك بحـوالَة الأسْوَاقِ فى تلك البَضَائع التى فرضت بالغلاءَ إلى بَيْعِهَا بأبخسِ الأثْمَان، وتعـود خسارةُ مـا بين الصَّفْـقَتَين على رؤُوس أمْوالَهم . وقـد يعمُّ ذلك أصنافَ التجار المقِيمينَ بالمدينة والوَارِدِينَ من الآفـاقِ فى البضائعِ ، وسائرَ السوقة وأهلَ الدكاكين فى المأكل والفواكـه ، وأهلَ الصنائع فيما يتخذ من الآلاتِ والمواَعين ، فتـشمل الخسـارةُ سائرَ الأصناف والطَّبـقَاتِ ، وتتوالى على الساعات ، وتجحف برؤُوس الأموالِ ، ولا يجدون عنهَا وَليجَةً [2] إلا القعودَ عنِ الأسواقِ لِذهَابِ رءوس الأموالِ فى جَبْرِها بالأرباح [3] ، ويتثاقل الوارِدُونَ من الآفـاقِ لشراء البـضـائع وبيعـهـا من أجل ذَلك ، فتكسـدَ الأسواق ويبطَل معاش الرَّعايَا ، لأن عامَّته منَ البيع والشِّراء . وإذا كانت الأسواقُ عـطَّلا منها بطلَ مـعاشُهم ، وتنقص جِبَاية السلطان أو تـفْسد ، لأن مـعظمـهـا من أواسِطِ الدَّولة ، ومـا بعـدَها إنما هُو من المكُوس على

(١) فى جميع النسخ : النواحى ، ولا يستقيم به المعنى .

(٢) يعنى لايجدون مفرًا ولا متندحًا وهو استعمال للكلمة فى غير معناها الأصلى .

(٣) هكذا فى جـميـع النسخ ، ولابد أن يكون هنا سـقط وتحريف ، والـوضع الصحـيح للعبارة هو مـا يلى : « لذهاب رءوس الأموال والعجز عن جـبرها بالأرباح » أى إن جزءًا من رؤوس أموالهم قـد ذهب فى ثمن تلك البضائع التى فرضت عليـهم بأكثر من ثمنها الطبيعى ، ولم تمكنهم حـالة السـوق من تحقـيق ربح يجبر ما خسروه انظر جـ ٢ ص ٨٥٥ منشورة د. وافى .

البيَاعَات كما قدمناه[1] . ويؤولُ ذلك إلى تَلاَشى الدولة وفسَادِ عمرَان المدينَةِ . ويطرق هذا الخللُ على التَّدريج ولايُشعر به .

هذا ما كانَ بأمثال هذه الذَّرائع والأسبابِ إلى أخْذ الأموالِ ، وأما أخذُها مجَّانًا والعدوانُ على الناسِ فى أموالِهِم وحُرَمِهِم ودمائهم وأسرارِهم وأعراضهم فَهُو يقضى إلى الخلل والفَساد دفعة ، وتنتقض الدَّولة سريعًا بما ينشأ عنه من الهَرْج المفضى إلى الانتِقَاض .

ومن أجل هذه المفاسد حظَر الشَّرعُ ذلك كلَّه وشرع المكَايَسَة[1] فى البيع والشِّراءِ ، وحظر أكلَ أموالِ الناسِ بالباطلِ ، سدًّا لأبوابِ المفَاسدِ المفْضية إلى انتقاض العمران بالهَرْجِ أو بطلان المعَاش .

واعلم أن الدَّاعى لذلك كله إنما هو حاجَةُ الدولة والسلطان إلى الإكْثارِ من المالِ بما يفرض لهم من الترفِ فى الأحوال ، فتكثر نفقاتُهم ويعظم الخَرْجُ ولاَ يفى به الدَّخْل على القوانين المعتادةَ ، فيستحدثون ألقابًا ووجوهًا يوسعون بها الجِبَاية ليفى لهم الدخلُ بالخَرْج ، ثم لايزال الترفُ

---

(١) انظر الفصول ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ من هذا الباب ، وخاصة فصل ٤١ .

(٢) المكايسة فى البيع فى عرف الفقهاء هى المغالبة التى تتمثل فى المساومة ومحاولة كل من البائع والمشترى أن يصل إلى الثمن الذى يحقق فائدته . وفى الحديث : إنما كستك لآخذ جملك ، أى غلبتك بالكياسة .

يزيد ، والخرجُ بسببه يكثر ، والحَاجة إلى أموالِ الناس تشتد ، ونطاق الدولة بذلك يزيد ، إلى أن تنمحى دائرتها ويذهب رسمُها ويغلبها طالبها، والله أعلم .

فصل
فى أن الهَرَم إذا نزل بالدولة لايرتفع

قد قدَّمنا ذكر العوارِض بالهَرَم وأسبابه واحدًا بعد واحدٍ ، وبيَّنَّا أنها تحدث للدولة بالطبع ، وأنها كلها أمورٌ طبيعية لهَا . وإذا كان الهَرَم طبيعيًا فى الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطَّبيعية كما يحدث الهَرَم فى المِزاج الحيوانى .

والهَرَم من الأمراض المزمنة التى لايمكن دواؤُها ولا ارتفاعها ؛ لما أنه طبيعىٌّ ، والأمور الطبيعيَّة لا تتبَّدل . وقد يتنبه كثيرٌ من أهل الدول ممن له يقظةٌ فى السياسة ، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهَرَم ، ويظن أنه ممكن الارتفاع ، فيأخذ نفسه بتلافى الدولة ، وإِصلاح مِزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحقها بتقصير مَنْ قبله من أهل الدولة وغفلتهم ؛ وليسَ كذلك ، فإِنها أمور طبيعية للدولة ، والعوائد هى المانعةُ له من تلافيها والعوائد منزلة طبيعية أخرى ؛ فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلْبسون الحرِيَر والديباج ، ويتحلَّون بالذهب فى السِّلاح والمراكب ،

ويحتجبونِ عن الناس فى المجالس والصَّلوات ، فلا يمكنه مخَالفَةُ سلَفِه فى ذلك إلى الخشونَة فى اللباس والزِّيِ والاختلاطِ بالناس ؛ إذ العوائِدُ حينئذ تمنَعه وتقبح عليه مرتكبه.

ولو فعله لرمى بالجنون والوسْواس فى الخروج عن العوائد دفعة ، وخشى عليه عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه . وانظر شأن الأنبياءِ ففى إنكار العوائد ومخالفتها ، لولا التأييد الإلهَى والنصر السَّماوى . وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأَبَّهَةُ تعوض عن موقعها من النفوس . فإذا أُزيلت تلك الأَبَّهَة مع ضعف العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أوهَام الأَبَّهَة ، فتتذرع الدولةُ بتلك الأَبَّهة ما أمكنها حتى ينقضِى الأمر .

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهُّم أن الهَرَم قد ارتفع عنها ويومض ذُبالُها إيماضَة الخمود كما يقع فى الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضةٌ توهم أنها اشتعال ، وهى انطفاءٌ . فاعتبر ذلك ، ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته فى اطِّراد وجوده على ما قدر فيه . و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [1] .

---

(١) آخر آية ٣٨ من سورة الرعد .

فصل
فى كيفية طروق الخلل للدولة

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما : فالأول : الشَّوكةُ والعصبية وهو المعبَّر عنه بالْجند ؛ والثانى : المال الذى هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملكُ من الأحوال . والخَلَلُ إذا طَرَق الدَّولة طرقها فى هذين الأساسين . فلنذكر أولا طروق الخلل فى الشوكة والعصبية ؛ ثم نرجع إلى طروقه فى المال والجباية .

١ - واعلم أن تمهيدَ الدولة وتأسيسهَا كما قلناه إنما يكون بالعصبيَّة ، وأنه لابد من عصبيَّة كبرى جامعة للعَصَائب مستْتبعة لها ، وهى عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة . فإذا جاءَت الدولةَ طبيعَةُ الملك من الترف وجدْع أنوف أهل العصبيَّة ، كان أولُ ما يجدع أنوفَ عشيرته وذَوى قرباه المقاسمين له فى اسم الملك . فيستبدّ فى جدْع أنوفهم بما بلغ من سِوَاهم . ويأخذهم الترف أيضًا أكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعزِّ والغَلَب ، فيحيط بهم هادمَان وهما : الترفُ والقهرُ . ثم يصير القهر آخرًا إلى القَتْل لما يحصل من مرضٍ قلوبهم عند رُسوخ الملك لصاحبِ الأمر ، فيقلب غيرتَه منهُم إلى الخوْف على ملكه ، فيأخذهم بالقَتل والإهانةَ وسلْبِ النعمة والترفِ الذى تعوَّدُوا الكثيرَ منه ، فيهلكون ويقلُّون وتفسد عصبيَّةُ صاحِب الدولة منهم ، وهى العصبيَّةُ الكبرى التى كانت تجمعُ بها العصائبُ وتستتبعها ، فتنحل عُرْوتُها ، وتضعف

شكيمتُها، ويستبدل عنها بالبطانة[1] من موالى النعمة وصنائع الإحسان ، ويتخذ منهم عصبية . إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية ، لفقدان الرحم[2] لما جَعَل الله فى ذلك . فينفرد صاحبُ الدَّولةَ عن العَشير والأنصار الطبيعيَّة ، ويحسُ بذلك أهلُ العصائب الأُخرَى ، فيتجاسرُون عليه وعَلى بطانته تَجاسرًا طبيعيًا ، فيهلكُهم صاحب الدولة ، ويتبعهم بالقتل واحدًا بعد واحد . ويقلد الآخرُ من أهل الدولة فى ذلك الأوَّلَ ؛ مع ما يكون قد نزل بهم من مَهْلَكَة الترف الذى قدمنا . فيَستولى عليهم الهلاك بالترَف والقتْلِ ، حتى يخرجوا عن صبْغَة تلك العَصَبيَّة ، وينسوا نُعْرتها وسورتها[3] ويصيروا أُجراءَ على الحِمَاية ، ويقلُّون لذلك ، فتقل الحامية التى تنزل بالأطْراف والثغور . فيتجاسرُ الرعايا على نَقْض[4] الدعوة فى الأطَراف ، ويبادر الخوَارِجُ على الدولة من الأعْيَاص وغيرهم إلى تلك الأطراف ، لما يرجون حينئذ من حصُول غرَضهم بمبايَعة أهل القَاصية لهم ، وأمنهم من وُصُول الحامِيَة إليهم . ولايزال ذلك يتدرَّجَ ونطاق الدَّولة يتضايقُ حتى تَصِير الخوارِجُ فى أقرب الأماكن إلى مَرْكَز الدولة .

---

(١) فى جميع النسخ « البطالة » باللام ، وهو تحريف واضح .

(٢) انظر لتفصيل ذلك الفصل الثامن من الباب الثانى فى أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب وما فى معناه .

(٣) وردت هذه الجملة محرفة فى جميع النسخ : ففى بعضها « ويفشو بعزتها وثورتها » .

(٤) فى جميع النسخ : « على بعض الدعوة » ولعله من خطأ النساخ .

وربما انقسمت الدولةُ عند ذلك بدولَتَين أو ثَلاثَة على قدْر قوتُها فى الأصل كما قلْناه[1] ، ويقوم بـأمرها غيـر أهل عصـبيـتها ، ولكـن إذعانًا لأهل عصبيتها ولغَلبهم المعهود .

واعتـبرْ هذا فى دول العرَب فى الإسْلام ، انـتهتْ أولا إلى الأندلس والهندِ والصِّين . وكَانَ أمرُ بنى أُمـية نافذًا فى جميع العرَب بعـصبيَّة بنى عبـد منَاف ، حتى لقد أمـرَ سليمانُ بـنُ عبْد المَلك من دمشق بقَتْل عـبد العـزيز بن مُوسى بن نُصيـرٍ بقرطـبة فـقتل ولم يُردَّ أمـره . ثم تلاشت عصـبيةُ بنى أمـية بما أصابهم من التَّرف فـانقرَضُوا . وجاءَ بنو العـباس فَغَضُّوا أعِنَّة بنى هاشم ، وقتلوا الطَّالبيّين وشرَّدوهم ، فانحلَّت عصبيةُ عبدِ مناف وتلاشَت ، وتجاسَر العربُ عليهم ، فاستبدَّ عليهم أهل القَاصيَة مثل بَنى الأغْلب بإفْريقية وأهل الأندلس وغيـرهم وانقسمت الدّولة ، ثم خرج بنو إدريس بالمغـرب ، وقام البـرْبرُ بأمرهم إذعـانًا للعصَبـيَّة التى لهم ، وأمنًا أن تصلهم مقاتلةٌ أو حامية للدولة .

فإذا خـرج الدعاة آخرًا فيـتغلبون على الأطراف والقَاصيـةَ ، وتحصَّل لهم هناك دعوةٌ ومُلكٌ تنقسم به الدولة . وربما يزيدُ ذلك متى زادت الدّولة نقصًا ، إلـى أن ينتهى إلى المركـز ، وتضعف البطانة بعـد ذلك بما أخَذَ منها الترف ، فتهلِك وتضمَحِلّ وتضعُف الدولة المنقسمةُ كلها .

---

(١) انظر الفصل الخامس والأربعون من هذا الباب .

وربما طال أمدُها بعــد ذلك فتستــغنى عن العصبيَّة بما حــصلَ لها مِن الصِّبغة فى نفــوس أهل إيَالتها ، وهى صبغة الانقــيادِ والتَّسليم منذ السنين الطِّويلة التى لا يَعقِل أحدٌ من الأجـيال مبدأها ولا أوَّليتهــا فلا يعقلُون إلا التَّسليم لصــاحب الدولة ، فيـستغنى بذلـك عن قوَّة العصــائب ، ويكفى صاحبَها بما حـصل لها فى تمهيد أمرها ، الأجراءُ علـى الحامية من جُندى ومُرْتزَق ، ويعضُد ذلك مــا وقع فى النفوس عامة من التــسليم ؛ فلا يكادُ أحدٌ أن يتصور عصيانًا أو خروجًا إلا والجـمهورُ منكِرون عليه مخالِفون له ؛ فلا يقدرْ على التَّصَدى لذلك ولَو جهــد جهده . وربما كانت الدولةُ فى هذا الحــال أسلَم من الخَوارِج والمنَازَعَة لاستـحكام صِبْغَة التَّسليم والانقــياد لَهم . فلا تـكَادُ النفوسُ تحدث ســرّهَا بمخَالفَة ، ولا يختلج فــى ضَمِيرها إنحرافٌ عَنِ الطاعةِ . فـيكون أسلم من الهَرْج والانْتقَاض الذى يحدث من العصَائِب والعشَائِر . ثم لايزالُ أمرُ الدولة كذلك وهى تَتَلاشى فى ذاتها، شأن الحَرَارَة الــغرِيزيَةَ فى البَدن العَادِم للغــذاءَ ، إلى أن تنتهى إلــى وقْتِها المقدُور . و ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [1] ؛ ولكل دولة أمــد . ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار ﴾[1] وهُو الواحد القهار .

---

(١) آخر الآية ٣٧ من سورة الرعد .

٢ - وأمـا الخللُ الذى يتطـرَّق من جِهَة المَال ، فـأعلم أنّ الدَّولَة فى أولهـا تكونُ بدَوِيَّةً كـما مـر ، فـيكون خُلُقُ الرِّفق بالرَّعَايا والقَصـد فى النفـقـات ، والتَّعفُّف عَن الأمْوال ، فَتَتَخَافَى عن الإمـعـانِ فى الجِبَايَة ، والتَّحذلُقِ والكَيْس فى جـمع الأموال وحُسْبان العـمَّال ، ولا داعيةَ حـيـنئذ إلى الإسْرَاف فى النفقـة ، فلا تحتاجُ الدولة إلى كـثْرة المال . ثم يحصلُ الاستِيلاَءَ ويعظمُ ، ويستفحِلُ الملك ، فـيدْعو إلى الترف ، ويكثر الإنفاقُ بسبـبه ، فـتعظُم نفقَاتُ السّلطـان وأهل الدولة على العمُوم ، بل يتـعدَّى ذلك إلى أهلِ المِصْر ويدْعـو ذَلِك إلـى الزِّيادَة فى أَعْطِيـات الجُنْد وأرزَاقِ أهلِ الدولة . ثم يعظُم الترف فيكثر الإسْرَاف فى النفَقَات ، وينتشرْ ذَلك فى الرَّعية ، لأنَّ الناس علَى دينِ مُلوكها وعوائدها . ويحتَاج السّلطان إلى ضَرِبْ المكُوس على أثمانِ الـبيَاعَات فى الأسْوَاق لإدْرَار الجِبَايَة لما يراهُ من ترَف المدَينة الشَّاهِد عليهم بالرَّفْه ، ولما يحتـاجُ هوَ إليه من نفقَاتِ سلْطَانه وأرزَاقِ جنده . ثم تَزيد عوائد الترَف فلا تَفِى بها المُكُوس ، وتكُون الدَّولة قد اسـتفْحَلَت فى الاسـتطَالة والقَهْر لمن تحت يدها من الرعايا ، فـتمـتد أيْديهم إلى جَمْع المَالِ منْ أمـوال الرَّعـايـا من مكْس أو تِجَارة أو نقْدِ فى بعض الأحوال ، بُشبْهَةَ أو بغَيـر شُبهة . ويكونَ الجُنْدُ فى ذَلك الطَّور قد تَجَاسر على الدَّولَة بما لحِقـها من الفَشَل والهَرَم فى العصَبيَّة فـتوقَّع ذلك

(١) من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

منهم ، وتُداوى بسكينة العَطَايا وكثرة الإنفاق فيهم ، ولا تجدُ عن ذلكَ وليجَةً . ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظمت ثروتُهم في هذا بكثرة الجبَاية وكونها بأيديهم وبما اتَّسع لذلك من جاههم . فيتَوَجَّه إليهم باحتجان الأموال من الجبَاية ، وتفشُو السّعَاية فيهم بعضهم من بعض للمنافَسة والحقد ، فتعمّهم النكبات والمصَادرَات واحدًا واحدًا إلى أن تذهب ثروتُهم وتُتلاشَى أحوالهم ، ويُفْقَد ما كان للدولة من الأُبَّهة والجمال بهم . وإذا اصطُلِمت نعمتهم تجاوزتْهم الدّولة إلى أهل الثَّروة من الرعايا سواهم . ويكون الوَهَن في هذا الطور قد لَحِق الشوكة وضعفَت عن الاستطالة والقَهر ، فتنصرف سياسَةُ صاحب الدَّولة حينئذ إلى مدَاراة الأُمور ببذْل المال ، ويرَاه أرفعَ من السّيف لقلة غنَائه ؛ فتعظُم حاجتُه إلى الأموَال ، زيادةً على النفقَات وأرزاق الجندُ ، ولا يغني فيما يريد[1] . ويعظم الهَرَم بالدولَة ويتجاسَر عليها أهلُ النواحي ، والدولةُ تنحلُّ عرَاها في كل طور من هذه إلى أن تُفْضِي إلى الهلاك ، وتتعرض لاستيلاء الطُلاَّب. فإن قَصدَها طالبٌ انتزَعها من أيدِي القَائمين بها ، وإلا بَقيتْ وهي تتَلاشى إلى أن تضْمحِل كالذُّبَال في السّراج إذا فني زيتُه وطفيءَ .

والله مالك الأُمور ، ومدبّر الأكوان ، لا إله إلا هو .

---

(١) أي لايغني ما يبذله في تحقيق ما يريده .

المختار من مقدمة إبن خلدون

رقـــم الايـــداع

٩٨/١٠٠٩٣

I.S.B.N. 977-01-5848-8



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة



١٩٩٨ مائة وخمسون قرشاً

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب